
كتابي
51
جون شتاينبيك
الثأر للوطن
Looloo
www.dvd4arab.com
المؤسسة العربية الحديثة

الثأر للوطن

لمـــاذا اخترت لك هذه القصة

عزيزى القارىء :

عندما خطر ببالى أن أقدم لك فى هذا العدد من « مطبوعات كتابى » قصة « الثأر للوطن » ، التى تعتبر من أروع ما كتب عن حركات المقاومة للاحتلال الأجنبى ، وجدت فكرى يتجـه من تلقاء نفسه إلى الربط بين الظروف التى كتب فيها « جون شتاينبيك » هذه القصة ، والظروف التى تجتازها مصر منـذ بدأ العدوان البريطانى الفرنسى الإسرائيلى الغادر عليهـا ، والذعر الذى نقلته البرقيات إلى كافة أرجاء العالم .. ذعر الأنذال المعتدين ، من المقاومة النبيلة التى يصليهم شواظهـا أبطال بورسعيد !

لقد كتب « شتاينبيك » هذه القصة عندما سولت الأطمـاع لألمـانيا النازية أن تعتدى على حرية الدول ، فأشعلت نار الحرب العالمية الثانية ، وأرسلت قواتها لاحتلال بلاد النرويج الآمنة ، غير حافلة بحيادهـا الذى كانت تضـمنه القوانين الدولية . ولن تتمالك نفسك من ان تتمثل بورسعيد الباسلة ، وأنت تقرأ قصة البلدة النرويجيـة الصغيرة التى اتخذهـا « شتاينبيك » مسرحا لوقائع قصته .. البلدة الآمنـة التى احتلها جنود المظلات النازيون غدرا ، فاذا بشعبها المسالم يقض مضاجعهم ، وإذا الشعب الأعزل يصبح مصدر فـزع وذعـر للغزاة المسلحين ، وإذا القـوم المغلوبون يصبحون هم المنتصرين !

ومن سخريات القدر أن النرويج فى كفاحها النبيل ، كانت تتطلع إلى إنجلترا كملجأ للحرية .. بل إن أبطال حركة المقاومة النرويجية كانوا يتطلعون إلى إنجلترا كما لو كانت الزعيمة التى تحمل لواء الدفاع عن الحرية .. ولكن القـدر شاء قبل أن تنقضى أربع عشرة سنة على كفاح النرويج ، أن يكشف حقيقة إنجلترا للعالم بأسره ، فاذا « بطلة الحرية » تنضـو ثـوب البطولة الزائف عنها ، وتتنكر لكل المبادىء التى أجادت أجهزة دعاياتها تزييفها ، لتبدو على حقيقتها .. ذئبا كاسرا ، لا يعبأ بشرف ، ولا مبادىء ، ولا مثل عليا ، ولا قوانين دولية ، فى سبيل إشباع نهمه الاستعمارى البشع !

* * *

هذه المفارقة العجيبة ، أو هذا التناقض العجيب بين إنجلترا فى ثوب البطولة الذى تنكرت فيه أيام الحرب العالمية الثانية لتثير العالم ضـد النازية — حماية لأمنها وسلامتها ، وليس دفاعا عن الحرية ! — وبين إنجلترا كما تجلت على حقيقتهـا للعالم فى العدوان الوحشى الآثم على بورسـعيد .. هـذا التناقض الصارخ كان من أهم العوامل التى شجعتنى على أن أقدم لك هذه القصة .

وثمة عامل ثان ، هو أننى لم أتمالك نفسى من الاستسلام للزهو والفخر ، وأنا اقرأ قصص مقاومة الشعب النرويجى للغزاة المعتدين — وقد صورها شتاينبيك نقلا عن أكثر المصادر دراية بها ، كما ستقرأ فى المقدمة التى تلى هـذه السطور — .

مأجد صور هذه المقاومة ، على نبلها وبسالتها ، تبدو باهتة إزاء البطولة الفذة التى تجلت فى حركة المقاومة الشعبية فى بورسعيد الخالدة !

بقى عامل ثالث .. ذلك هو الإعجاب بشتاينبيك نفسه . فان شتاينبيك فى كفاحه من أجل النجاح ، ضرب أمثلة خليق بكل كاتب ان يتدبرها ، ليرى كيف تتغلب الأمانة للرسالة على كل بريق للمادة !.. ولكننى لن ازيد ، لاترك لك مجال الحكم بنفسك !

وتقبل تحياتى ..

حلمى مراد

جون شتاينبيك

الكاتب الذى كان يخشى الشهرة خشيته للموت !

لعل الأقدار كانت تريد لجون شتاينبيك أن يصبح قصصيا ، منذ مولده فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢ . فقد ولد فى بلدة (ساليناس) بولاية كاليفورنيا فى أمريكا ، وهى بلدة صغيرة فى مقاطعة (مونتيرى) ، إحدى المقاطعات الأمريكية التى ما تزال تعيش فى فطرة البداوة إلى حد بعيد .. فما تزال نفوس اهلها صافية ، وقلوبهم عامرة بالطيبة ، وعقولهم ساذجة إلى الحد الذى يجعلهم يعشقون رواية القصص أو الانصات إليها ، حول النار التى يسمرون حولها فى التلال ..

ولقد ولد « جون » لأب ألمانى الأصل ، وأم إيرلندية الأصل .. فإذا علمت انه كتب هذه الرواية « غروب القمر » — أو « الثار للوطن » كما آثرنا أن نسميها — كمساهمة فى مقاومة العدوان النازى على شعوب أوربا ، وشعب النرويج بالذات ، خلال الحرب العالمية الثانية ، فلا تعجب لتنكره للأصل الذى انحدر منه ، إذ ان الحرية التى رضعها مع لبان امه الإيرلندية — سليلة الشعب الثائر المجاهد — كانت أقوى من النعرة العنصرية !

ولقد كان والد شتاينبيك هو المسئول عن الشئون المالية فى مقاطعة (مونتيرى) ، إذ كان مدير الإدارة المالية فى حكومة المقاطعة .. اما امه ، فكانت معلمة ، ولعلها صاحبة الفضل فى

شغفه بالقراءة والكتابة . على أنه لم يكتب بوحى من دروس أمه فحسب ، وإنما استمد إلهامه من دراسته للناس ونفوسهم ، ومن اختلاطه الحقيقى العملى ، بالحياة ذاتها وتفاعله معها . فقد اعتاد أثناء دراسته الثانوية أن يقوم ببعض الأعمال المؤقتة فى المزارع .. فعمل مساعدا لنجار ، وصبيا لنقاش ، وعاملا فى المصانع .. كما دفعه حبه للعلوم إلى أن يعمل مساعدا فى بعض المعامل الكيميائية ..

الخفير الذى انصرف إلى تأليف الروايات !

ثم التحق بجامعة « ستانفورد » فى سنة ١٩١٩ ، ولكنه شغف أثناء دراسته الجامعية بالتجوال فى المراعى ومزارع تربية المواشى ، فكان لا يحضر سوى الدروس التى تروق له ، ثم يهيم فى تلك المزارع ، ويقضى أوقاتا بين أهلها . وما لبث أن ترك الجامعة فى سنة ١٩٢٥ ، دون أن يظفر بدرجة جامعية . ومنذ ذلك الحين ، أصبح همه فى الحياة التجوال والكتابة .. فرحل إلى الولايات الشرقية من أمريكا على إحدى سفن البضائع ، حتى إذا بلغ (نيويورك) ، آثر الاستقرار فيها ..

وكان لابد له من مورد يتعيش منه فى (نيويورك) .. المدينة الكبيرة التى لم يكن له فيها معارف أو أصدقاء .. ومن ثم عمل كمخبر صحفى فترة ، ولكنه ما لبث أن فقد عمله ، فلم يتورع أو يخجل من ممارسة بعض الأعمال التى تبدو تافهة فى نظر أى شخص حظى بقسط من الدراسات الجامعية ، حتى لقد مارس حرفة البناء ، واشتغل مع البنائين فترة من الزمن !

.. وما لبث بعد عامين أن عاد إلى ولاية كاليفورنيا ، فاستؤجر لحراسة بيت فى منطقة (هاى سييراس) الجبلية !

والظاهر أن مركزه كخفير أتاح له فسحة من الوقت ، وجوا من الاستقرار . ففى أثناء عمله فى الحراسة ، وضع أولى رواياته ، وهى التى نشرت فى سنة ١٩٢٩ ، تحت اسم « الكأس الذهبية » .. ومن عجب ، أن أحد الناشرين عرض عليه بعد سبع سنوات — وبعد أن ذاع اسمه — أن يعيد طبع هذه الرواية ، فكتب إلى « ميكنتوش » و « أوتيس » اللذين صارا وكيلى أعماله ، يتصلان بالناشرين ويشرفان على مصالحه .. كتب إليهما يقول : « لست أشعر بفخر جم بهذه الرواية ، وقد كنت أوثر لو أنها لم تنشر قط .. أما وقد نشرت بالفعل ، فلا سبيل إلى حجبها .. ولا بأس إذن من إعادة نشرها » !

ثمن القهوة .. من الجريمة !

وهذه ناحية فى شخصية « شتاينبيك » قد لا تجدها لدى كثيرين من الأدباء والمؤلفين .. وأعنى عزوفه عن نشر ما لا يرتاح إليه من إنتاجه ، مهما تكن حاجته إلى المال ، ومهما يكن إغراء وكيليه والناشرين الذين يطمئنون إلى إقبال القراء على أى كتاب يحمل اسمه !

ومن نوادره فى هذا الصدد ، أنه وضع حوالى سنة ١٩٣٢ رواية بعنوان « اللحن الأخرس » . وبينما كان وكيلاه يعرضانها على الناشرين ، خطر له أن يعيد قراءتها ، فما أن فعل ، حتى كتب إليهما يرجوهما أن يرداها إليه ، قائلا : « إننى

اشمر بخجل إذ كتبت شيئا كهذا ! » . وكان قد حاول فى تلك
الأثناء أن يتمشى مع التيار الذى جرف دنيا القصة فى أمريكا
منذ العقد الثالث من القرن الحالى ، فكتب قصة من قصص
الجريمة ، ودفع بها إلى وكيليه .. فلما سحب « اللحن
الأخرس » ، كتب إليهما فى الخطاب ذاته يقول : « إن الجريمة
قد تصلح لو أنها اختصرت قليلا . ولو أنها درت مبلغا ضئيلا
من المال ، لكان هذا أفضل من حزمة الورق التى تضمنتها ..
إنه قد يساعد على دفع ثمن القهوة التى احتسيها ! » .. وفى
الخطاب ذاته أيضا ، كتب يقول : « لقد اقترب موعد دفع أجرة
المنزل ، وسنضطر إلى مغادرته عاجلا .. إلى حيث
لا أدرى ! » .

عمل غير مربح لناشريه !

على أنه إذا اقتنع بوجاهة إحدى الأفكار التى يبنى
عليها رواياته ، لا ينثنى عنها حتى يجعل منها رواية ناجحة .
وقد حدث — فى نفس الفترة التى ذكرناها — أن كتب رواية
بعنوان « الإله المجهول » ، ودفع بها إلى وكيليه ، وكانا فى
بداية علاقاتهما به ، ولم يوفقا بعد فى بيع شىء من إنتاجه
للناشرين .. وعرض الوكيلان الرواية على عدد من دور النشر
فأجمعت على رفضها ، ومن ثم كتبا إلى « شتاينبيك » يعربان
عن أسفهما ، فرد عليهما قائلا : « إن ما ذكرتماه عن فشل
الكتاب فى الظفر بناشر ليس بالنبأ البغيض أو المؤلم .. بل
إننى سأعيد كتابة الرواية من جديد ، وسنرى ما إذا كان
اعتقادى فى روعة الوقائع والحوادث يتمشى مع آراء النقاد

والناشرين .. على أننى لن أبذل أى جهد للاتصال بالصحفيين
للترويج للقصة .. فشكرا لنصيحتكما .. ولكننى عميل غير
مربح » !

ولكن الحظ متقلب مع الزمن .. فبعد ست سنوات ، وكان
اسم شتاينبيك قد بدأ يشتهر ، كانت هذه الرواية — بعد أن
أدخل عليها بعض التنقيحات والتعديلات التى ساعدت على
نشرها تحت اسم « نحو إله غير معروف » — سببا فى علو
صيته ، ورواج مؤلفاته ، وزيادة دخله .. كذلك !

تجديد .. فى فن الرواية

على أن بداية المجد لشتاينبيك — ككاتب روائى — اقترنت
برواية « مراعى السماء » ، التى حاول الكاتب أن يصور فيها
الحياة فى واد كانت ترفرف عليه السعادة بأجلى آياتها ، وكان
الوئام يسود الأسرات العشرين التى كانت تعمره .. ذلك هو
وادى « باستوراس ديل سيبلو » ، أى مراعى السماء .. نفس
الاسم الذى أطلقه على الرواية ! وترجع قيمة هذه الرواية
بالنسبة لمجد « شتاينبيك » إلى أنه اتبع فيها طريقة مبتكرة
لم يألفها الروائيون .. إذ جعل الكتاب عبارة عن مجموعة من
القصص المستقلة ، تصلح كل منها لأن تكون قصة قصيرة
كاملة ، ولكنها تربط بعضها ببعض بوحدة الشخصيات ،
والوسط الذى تدور فيه الحوادث .. وتتوالى فى ترتيب يجعل
بعضها استئنافا لبعض — برغم استقلالها — حتى تصل أحداث
الرواية إلى أوجها !.. ولعل الحافز الذى شجع شتاينبيك

على الاتجاه إلى هذه الطريقة ، هو أنه لم يعتد أن يرسم مقدما فكرة معينة لقصته وهيكلا يتشبث بهما فى علاج الحوادث ، وفى التقيد بأسلوب معين أو بطريقة معينة للعرض ، كما تفعل الغالبية العظمى من الروائيين والقصصيين !

وما أن ظهرت « مراعى السماء » — فى سنة ١٩٣٢ — حتى قوبلت بحرارة وتشجيع من النقاد ، وإن لم يكن رواجها عظيما .. وإلى هذا التشجيع وتلك الحرارة ، يرجع الفضل فى وصول شتاينبيك إلى أولى درجات المجد ..

ينزعج من الشهرة .. إلى درجة الموت !

ولكنه لم يرق السلم درجة فدرجة ، إذ استطاع بروايته التالية « كورتيلا فلات » — أو هضبة تورتيلا — أن يطفر طفرة واسعة . وقد اتبع فيها عين الطريقة المبتكرة السابقة .. طريقة تكوين الرواية من عدة قصص قصيرة . ولعل هذه الطريقة هى السر فى أنك لا تجد لهذا الكاتب كثيرا من القصص القصيرة القائمة بذاتها ، فهو يشبع ميله إلى القصص القصيرة بكتابتها على شكل حلقات فى رواية طويلة !.. ومما زاد « تورتيلا فلات » روعة ، أنه مزج فيها الفكاهة بالمأساة ، والجد بالهزل ، فى براعة نمت عن نبوغ !

والواقع ان النبوغ فى شتاينبيك غريزة فطرية كان يكشف عنها شيئا فشيئا فى اجتهاده ودأبه وممارسته للكتابة .. ومن ثم فقد كان إنتاجه — لا تقريظ النقاد — هو الذى أظهر عبقريته ودعم مكانته فى عالم الأدب الأمريكى الحديث !

وعندما نشرت « تورتيلا فلات » — فى سنة ١٩٣٥ — استقبلت استقبالا مشجعا ، حتى يمكن اعتبارها أول رواج فعلى لشتاينبيك ، أو بالأحرى أول إنتاج أذاع اسمه لدى جمهور القراء عامة فى بلاده ، بعد أن كانت شهرته مقتصرة فى باكورتها على طبقة أو طبقات معينة من القراء .

والعجيب فى الأمر ، أن الكاتب نفسه لم يرض عن هذه الرواية رضاءه عما سبقها ، حتى لقد كان يعتبرها « إنتاجا من الدرجة الثانية » ، وكتب لوكيله يبدى عجبه من النجاح الذى لقيته ، قائلا : « من العجيب أن هذا الكتاب الذى أعتبره من الدرجة الثانية ، والذى كتبته لمجرد الترويح عن النفس، قد أثار كل هذه الضجة ! » .

والأعجب من هذا ، أن النجاح أخافه وأقلقه . فقد مضى يقول فى ذلك الخطاب : « إننى منزعج — إلى درجة الموت — من الشهرة .. فقد أفسدت على كل إنسان عرفته ! » .. وعندما طلبت إليه دار النشر — التى تولت نشر الكتاب — صورة له تستغلها فى الاعلان ، كتب يقول : « قط لم تلتقط لى صورة .. ولست أزعم أن هذا راجع إلى طبع متأصل فى نفسى ، أو إلى تعمد .. كل ما هنالك أننى لا أؤمن بالمزج بين الشخصية والعمل .. ولعل هذا المزج عادة مألوفة ، ولكننى أحب أن أخرج على هذه العادة .. فإنى أخال أن الجمهور يضيق بالتفصيلات التى تنشر عن الكاتب ! » .

يكره الإعلان عن شخصيته !

وسواء أكان شتاينبيك مخطئا أو كان مصيبا فيما خاله

من ضيق القراء بما ينشر عن الكاتب ، إلا أن هذا الظن اتخذ عنده شكل اليقين ، فظل أمينا له ، لا يخرج عنه . وعندما نال أول تكريم ادبى شبه رسمى ، حين اختار « نادى كتاب الشهر » — وهو من أكبر الهيئات الأدبية فى أمريكا — كتابه « فئران ورجال » ، الذى نشر فى سنة ١٩٣٧ ، سئل أن يوافى النادى بشىء عن تاريخ حياته وشخصيته ، فكتب لوكيليه يقول : « لعلكما تعرفان مدى بغضى للمادة التى تنشر عن شخصى ، فأرجو ان تنقلا عنى هذا .. والواقع اننى اوثر من المسئول عن النشر أن يقصر حديثه على الكتاب ذاته .. وجلية الأمر ، اننى لا يمكن ان افلح فى تأليف الكتب إذا فرض على أن اعتد بنفسى وأفكر فيها » .

وكانت الفكرة التى تشبث بها هى انه لن يرضى عن نفسه ، إلا إذا استطاع أن يطمئن إلى أن الجمهور عرفه من إنتاجه ، وليس مما يكتب او يذاع عنه !.. والواقع أنه كان مصيبا فى رأيه هذا .. فان الكاتب الذى يصبح شخصية عامة ، يفقد الكثير من مسلكه العادى ، إذ أن الخوض فى سيرته وحياته لا يلبث ان يوحى إليه بانه على غير شاكلة الناس الذين يقرأون له . ومن ثم يتباعد شيئا فشيئا عن قرائه ، اعتدادا منه بانه من « المؤلفين ! » .. وهذا ما حرص شتاينبيك — وما يزال إلى اليوم يحرص — على تفاديه !

ومع ذلك ، فان رواج مؤلفاته لم يلبث ان غير من معالم حياته بالفعل ، إذ تحسنت احواله المادية ، حتى انه كتب لوكيليه — اللذين صارا أقرب الأصدقاء إليه — يقول : « لشد

ما صارت الحياة جميلة منذ ان ابتعت مدفأة تشعل بالكيروسين لغرفة مكتبى .. لقد تغيرت نظرتى إلى كل شىء تغيرا شاملا .. الا ما أبدع اليدين الدافئتين ! » .

آراء ابطاله ليست من تعاليم « الصالونات » !

على ان رواية « تورتيلا فلات » لم تكن أول رواج لإنتاج شتاينبيك فى ميدان النشر فحسب ، بل إنها كانت كذلك أول اتصال بينه وبين (هوليوود) وميدان السينما ، إذ ابتيع منه حق إخراجها على الستار الفضى .. وكانت هذه من أكبر المفاجآت فى حياته .. فقد كان ، كما وصف نفسه ، لا يذهب إلى دار السينما سوى مرة فى العام عادة !

ولقد أثارت رواية « المعركة المشكوك فيها » — التى نشرت فى سنة ١٩٣٧ — كثيرا من المتاعب قبل أن تخرج إلى واجهات المكتبات .. فقد كانت — كما وصفها شتاينبيك أثناء انهماكه فى تأليفها — « كتابا قاسيا، لأنه خال من اية فكرة أو موعظة اخلاقية .. وقد يبدو الحوار بين العمال — فى سياقه — مما يخدش الآذان فى النوادى النسائية الراقية ، ولكن هذا ليس بالمهم ، إذ أن النساء لن يصدقن أن مثل هذا الحوار يجرى فى الواقع .. ولكننى خبير بهذا الأسلوب ، وقد مللت ان أجرد العمال من أسلوبهم الطبيعى لأجعلهم يتكلمون بأسلوب براق ! » .

وعندما أبدى الناشر شكه من أن يكون فى الكتاب ما يؤخذ على انه آراء شيوعية ، أجاب شتاينبيك قائلا إن ما تضمنه

الكتاب إنما أخذ عن العمال الإيطاليين والإيرلنديين ، الذين اكتسبوا آراءهم من واقع الحياة والعمل .. فإذا كانت هذه شيوعية ، فهى شيوعية من صميم الحياة . وليست تعاليم تلقن فى الصالونات .. « إنهم لا يؤمنون بالمذاهب والآراء والأساليب المثالية ، لأنهم إنما يفعلون ما تدفعهم إليه الظروف التى يعيشون فيها ! » .. وكان أشد ما آلمه بعد نشرها ، أن النقاد تناولوها من الناحية السياسية لا الأدبية .. فقد ساءه الا يفطن النقاد إلى القيمة الروائية للكتاب ، وهى التى يعتز بها الكتاب !

النرويج .. مسرح « الثأر للوطن » !

وأتاح نجاح كتاب « فئران ورجال » لشتاينبيك فرصة القيام بأول رحلة له إلى أوربا ، وكان مشوقا لزيارة الدول السكندنافية ، إذ كانت لغاتها هى اللغات الأجنبية التى ترجم إليها إنتاجه لأول مرة .

على أن قلبه لم يعلق بأى من الدول السكندنافية بقدر ما علق بـ (النرويج) ، التى جعلها — بعد خمس سنوات — مسرحا لأولى القصص التى نقدمها لك فى هذا العدد من « مطبوعات كتابى » . .وهى قصة « غروب القمر » أو « الثأر للوطن » ..

وبينما كان كتابه الجديد — « الفرس الأحمر » — تحت الطبع ، ترك شتاينبيك وزوجته الدول السكندنافية إلى روسيا ، ولكنهما لم يقضيا فيها المدة التى كانا يرجوانها ، بل بادرا

بالعودة قبل الموعد المحدد إلى أمريكا ، حيث شرع الكاتب فى إعداد مادة كتاب جديد ، نشر فيما بعد باسم « كروم السخط » .. فلقد عاش شتاينبيك فى المزارع والمراعى أمدا طويلا منذ صباه ، فعرف الفاقة التى كان يعيش فيها أبناء الوديان القابعة بين الجبال فى كاليفورنيا ، ولمس مرارة عيشهم ، وكتب إلى وكيليه يقول : « لابد لى من أن أسعى إلى الوديان الداخلية ، فهناك خمسة آلاف أسرة تتضور جوعا ، إلى درجة الموت .. وإن الحكومة لتحاول أن تعينهم بالأطعمة والخدمات الطبية ، ولكن الهيئات الاستغلالية الفاشية والمصارف وكبار ملاك الأراضى الزراعية ، يحاربون هذه الجهود .. أفتعلمان ما الذى يخيفهم ؟.. إنهم يرون انه إذا اتيح لهؤلاء الناس ان يعيشوا فى معسكرات تتوفر فيها كافة الضرورات الصحية ، فانهم لن يلبثوا أن ينتظموا .. وهذا هو الشىء الذى يقض مضاجع كبار ملاك الأراضى والشركات الزراعية !.. لسوف ابذل قصارى جهدى من اجلهم .. الا ما اقل الكتب التى تواجه مثل هذه المآسى المفجعة ! » .

وقام بجولته ، وبذل قصارى جهده كما وعد ، حتى إذا عاد إلى داره ، عكف على تأليف أقوى كتاب وضعه حتى ذلك الحين .. وهو « كروم السخط » ، الذى نشر فى سنة ١٩٣٩ !

ينقد نفسه وإنتاجه بمرارة !

ولكن ، ما أعجب الأحداث التى مرت منذ بدأ شتاينبيك أول سطر فى هذا الكتاب ، وبين اليوم الذى نشر فيه الكتاب !..

فبعد ان فرغ من الكتاب ، كتب لوكيليه يقول : « إنه كتاب رديء ، ولابد من أن أتخلص منه .. فلا سبيل إلى طبعه .. وترجع رداءته إلى انه ليس أمينا !.. حقيقة أن الوقائع التى تضمنها حدثت كلها ، ولكن .. ولكنى لم أورد من الحقيقة عنها بقدر ما أعرف ! » .

ويمضي شتاينبيك فى الخطاب قائلا : « لقد وضعت حتى الآن ثلاثة كتب غير أمينة ، لأنها اقل من قصارى جهدى. واحد هذه الكتب لم ترياه ، لأننى احرقته فى اليوم الذى فرغت فيه منه . أما الثانى فهو قصة الجريمة .. وهذا هو الثالث . ولقد انسقت إلى كتابة الأول والثانى لدفع ضيق مالى شديد ، أما هذا الكتاب فانسقت فى كتابته إلى التزام شعرت به !.. إننى أعرف انكما قد تبيعان من هذا الكتاب ...ر٣٠ نسخة. وأعرف أن عددا كبيرا جدا من النـاس قد يخالون — بعد قراءة هذا الكتاب ـ انهم احبوه .. ولقد ناقشت نفسى كثيرا ، ولكنى لا أحب الكتاب !.. ولسوف يتأتى عن طبعه ضرر يفوق الضرر الذى ينجم عن إعدامه .. فأنا لم اشعر قط اثناء كتابته بتلك المتعة الدافئة العجيبة التى تعترى المرء عندما يكون العمل سائرا على ما يرام . لقد كان حافزى على العمل منذ البداية هو حمل الناس على ان يفهم كل منهم الآخر ، فاذا بى أنزلق فى وضع هذا الكتاب إلى حمل الناس على ان يكره كل منهم الآخر ، عن طريق التفاهم الناقص !.. وما لم أستطع أن أكتب أفضل من هذا ، فانىأكون قد انحدرت بدرجة كبيرة ! .. إن الكتاب يجب أن يكون حياة تعيش أمدها بأكمله .. وهذا الكتاب لا يفعل ذلك ! » .

ثم يضرب شتاينبيك المثل للكتاب الذين يقفون حائرين بين المادة والأمانة الأدبية ، فيقول : «إننى اكافح الفقر سنوات طويلة عديدة ، ولكننى أكون ملعونا إذا هبطت عن مستوى عند اول هبة من رياح النجاح ! .. إن الهبوط عن المستوى شبيه بالإقدام على السرقة للمرة الأولى ، فهو عسير محفوف بالمشقة ، ولكنه فى المرة الثانية أقل عناء ، ثم لا يلبث أن يغدو سهلا بعد قليل .. إن هذا الكتاب تجربة فى الخداع .. والخداع فى كتاب هو الغش والخيانة ! »

ويختتم خطابه قائلا : « أعتقد أن هذا الكتاب سيكون درسا نافعا لى .. فأنا الآن فى خطر من أن أصدق الدعاية التى تدور حولى .. إننى ادرى الناس بكتابى ! » .

« كروم السخط » .. حدث بارز فى تاريخ النشر !

وبدلا من أن يصدر « كروم السخط » ، نشر بدلا منه — فى سنة ١٩٣٨ — أول كتاب تضمن قصصا قصيرة ، غير مترابطة ، فى مجموعة واحدة !

وعكف شتاينبيك على « كروم السخط » يعيد كتابتها من جديد ، فأرهق نفسه كل الارهاق ، وكان خليقا بالنجاح الذى ظفر به .. فقد اثارت الرواية ضجة هائلة فى الولايات المتحدة ، تحسنت على أثرها أحوال سكان الخيام فى وديان كاليفورنيا ! .. بل لقد اعتبر هذا الكتاب من الأحداث البارزة فى تاريخ النشر فى أمريكا . ولكنه خلف شتاينبيك منهوك القوى ، معلولا ، فلم يسترد قواه ونشاطه إلا بعد شهور

عديدة .. ولم يستطع أن يجرى على مألوف عادته ، فبدأ كتابا جديدا قبل ظهور آخر كتاب فرغ منه !

وثمة انقلاب آخر أحدثه هـذا الكتاب فى حياة شتاينبيك .. فلقد دفعه إلى تيار الشهرة على الرغم منه ، حتى لقد كتب يقول عن متاعبه : « لقد أصبحت فى شغل بشهرتى ككاتب ، حتى اننى لم اعد اجد وقتا للكتابة .. وكأنما طرح عشرة آلاف شخص كل أعمالهم وشئونهم ، لكى ينصرفوا إلى حملى على الكلام . وقد أخذ خوفى من الوجود بين جماعات من الناس يزداد إلى درجة اننى اصبحت أرتبك إذا تحدثت إلى أكثر من واحد ! » .

وفى تلك الأثناء ، كانت الحرب تخيم على سماء شتاينبيك ، كما كانت تخيم على سماء العالم . وهكذا تضافرت العوامل على تعطيله عن الإنتاج . وحاول فى البداية أن يقاوم ، ففر إلى المكسيك .. إذ نمى إليه ان عالما يدعى « ادوارد ريكتيس » أعد رحلة إلى هناك للدراسة وجمع المعلومات ، فشاطره الرحلة وعاد من المكسيك بمادة لكتابين .. أولهما « القرية المنسية » ، الذى نشر فى سنة ١٩٤١ ، والذى اتخذته السينما المكسيكية مادة لأحد أفلامها الناجحة .. أما الكتاب الآخر ، فكان لونا جديدا من الإنتاج .. كان مادة علمية ــ عن دراسات بيولوجية تدور حول الكائنات الحية فى المكسيك ــ صاغها فى قالب قصصى مستساغ .. وقد نشر هذا الكتاب فى سنة ١٩٤٢

العدوان النازى .. أساس فكرة « الثأر للوطن » !

واتسع نطاق الحرب ، حتى انزلقت الولايات المتحدة إلى المعمعة . وعرض شتاينبيك جهوده ومواهبه على الحكومة ، فاستعانت به كثير من المصالح والهيئات الحكومية ، ولكنه صدم حين تبين الهوة الواسعة التى تفصل بين الحماس القومى والروتين الحكومى .

على انه انتهز هذه الفرصة لكى يسجل كراهيته للعدوان ، وانتصاره للحرية .. ولكى يواسى النرويج ــ التى احبها منذ زارها فى سنة ١٩٣٧ ــ فقد قدر له أثناء عمله فى إدارة «الخدمات الستراتيجية» أن يصاحب أحد الضباط المتخصصين فى فنون مساعدة حركات المقاومة فى الدول الأوربية التى احتلها النازيون .. ومن الأحاديث الجدية التى دارت بينه وبين هذا الضابط ، أستطاع أن يكون فكرة قصة « غروب القمر » ، حتى إذا تبلورت فى ذهنه ، وتجمعت لديه البيانات الكافية عن حركات المقاومة وأساليبها ، عكف على كتابة هذه الرواية ، فاذا بها تلقى نجاحا مدويا ، عندما نشرها فى سنة ١٩٤٢ . وقد شجعه هذا النجاح على ان يقتبس من الرواية نفسها مسرحية من جزئين ــ بنفس الاسم ــ ظهرت فى العام ذاته !

ومع ان خمسة عشر عاما انقضت على نشر هـذه الرواية لأول مرة ، إلا انها تعتبر من أروع وأدق ما كتب عن المقاومة السرية للعدوان والاحتلال الأجنبى ، حتى اليوم . وقد ترجمت

أثناء الحرب العالمية الثانية إلى عدة لغات ، مما اكسبها شهرة عالميـــة .

الساحر اللطيف .. الخشن !

كذلك خرج شتاينبيك من احاديثه مع أحـد قادة السلاح الجوى الأمريكى بفـكرة كتاب يدور حول تدريبات وأعمـال السلاح الجوى ، اسماه « قنابل إلى الخارج » . على أن من المغالطة أن يدرج هـذا الكتاب فى قائمـة الإنتـاج الأدبى لشتاينبيك ، لأنه فى الواقع لم يكن مادة أدبية بالمعنى الصحيح، ولا كان نابعا عن تفاعلات صادقة ، وإنما .. كان نوعا من « المقاولة » عهد به السلاح الجـوى الأمريكى لشتاينبيك ، فسخر قلمه وفكره فى إنجاز هـذه « المقاولة » .. أو بمعنى أصح ، كانت مهمة كلف بها رسميا ، فأداها إظهارا لشعوره القومى !

على انه خاض تجربة اخرى اثناء الحرب ، إذ اتيح له فى سنة ١٩٤٣ ان يرحل إلى اوربا مع بعثة امريكية ، فقام بمهمة المراسل الحربى لصحيفة « الهيرالد تريبيون » فى إنجلتـرا وحوض البحر الأبيض المتوسط .

وفى غمرة هذا النشاط الحربى ، راوده الحنين إلى الأدب، وإلى تأليف الروايات .. واتجه حنينه بوجه خاص إلى جـو وأسلوب وطريقة « تورتيلا فلات » التى الفها قبل ذلك بعشر سنوات ، فأخذ ينساق لهذا الحنين فى صمت ، ثم فاجأ وكيليه فى سنة ١٩٤٤ برواية « كنارى رو » .. كمـا كتب « لؤلؤة

العالم » للسينما المكسيكية التى أخرجتها فى فيلم فى سـنة ١٩٤٥ . وقد حاول شتاينبيك أن يحذو فى « اللؤلؤة » حذو الأدب الشعبى التقليدى . على أنه خرج من هـذه التجربة بعزم وثيق على الا يكتب للسينما بعد ذلك !

ولقد تتابعت مؤلفات شتاينبيك بعد ذلك ، ولكنها ليست بالوفرة التى تدفق بها إنتاجه فى المرحلة التى فصلناها هنا .. .. كما أنها ليست من الأهميـة بمثل تلك المؤلفات الأولى ، لا لأنها اقل منها قيمة — من الناحية الأدبية — وإنما لأن هـذه المؤلفات الأولى كانت الدعامات الأساسية فى مجد شتاينبيك .. كانت الإنتاج الذى جعل النقاد يصفونه بأنه : « نابغـة ساحر فى رواية القصص .. يجمع بين العنف والعاطفة ، وبين اللطف والخشونة ، وبين الازعاج والجمال » .. فهـو يحيد وصف كل لون ، ويمزج الألوان بعضها ببعض فى قصصه ببراعة عبقرية !



الفصل الأول

ما ان حلت الســاعة الحــادية عشرة إلا الربع حتى كان كل شيء قد انتهى . فقــد تم احتلال البلدة ، ومنى المدافعون عنها بالهزيمة ، ووضعت الحرب أوزارها ، إذ كان الغازى قد أعد العدة لهذه الحملة بنفس العناية التى كان يبذلها للحملات الأكبر منها !

وكان موزع البريد والشرطى قد خرجا لصيد السمك — فى صباح ذلك اليوم من أيام الآحاد — فى قارب المستر «كوريل» ، إذ كان صاحب المتجر المشهور قد أعارهما هذا القارب الأنيق ذا الشراع ليقضيا فيه يومهما . وما أن توغــل موزع البريد والشرطى بضعة أميال فى عرض البحر ، حتى شاهدا ناقلة الجنود الصغيرة ، الداكنة اللون، تمر بهما فى هدوء .. ولم يكن ثمة شك فى أن هذا الأمر يعنيهما بوصفهما من موظفى المدينة ، فبادرا إلى العودة . وما ان وصــلا إلى المينــاء ، حتى كانت الكتيبة قد استولت على البلدة فى الواقع ، إلى حد أن موزع البريد والشرطى لم يستطعا دخول مكتبيهما فى مبنى البلدية ، ولمــا أصرا على أن هذا من حقهما ، أخذا كأسيرى حرب ، وألقى بهما فى سجن البلدة !

وكان الجنود المحليون الاثنا عشر غائبين جميعــا فى صباح ذلك اليوم من أيام الآحاد ، إذ أن المستر كوريل ، صــاحب المتجر المشهور ، كان قد قدم الغــداء ، و « الأهــداف » ، والخراطيش ، والجوائز ، هدية منه فى مسابقة للرماية أقيمت

فى مرج جميل كان يمتلكه بين الجبال ، على مسيرة ستة أميال من البلدة . وكان الجنود المحليون من الشبان ذوى العزائم المتراخية ! ومع أنهم أسرعوا فى خطى حثيثة ، عائدين إلى البلدة ، بمجرد أن سمعوا أزير الطائرات ، وشاهدوا على البعد هبوط جنود المظلات ، إلا أنهم لم يصلوا حتى كان الغزاة قد نصبوا المدافع الرشاشة على جانبى الطريق . ولم يكن لهؤلاء الجنود سوى خبرة ضئيلة بالحروب، كما أنهم لم يكونوا قد عرفوا الهزيمة من قبل ، فبدأوا بإطلاق النار من بنادقهم ، وأجابتهم المدافع الرشاشة ، فإن هى إلا لحظة ، حتى سقط ستة منهم صرعى ، وأصيب ثلاثة منهم بجراح خطيرة جعلتهم أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة . ثم فر الثلاثة الباقون إلى الجبال يحملون بنادقهم !

* * *

وما أن حانت الساعة العاشرة والنصف حتى كانت فرقة الغزاة الموسيقية تعزف ألحانا عاطفية شجية فى ميدان البلدة ، بينما وقف أهلها مشدوهين ، وقد نطقت عيونهم بالدهشة ، وأخذوا ينصتون إلى الموسيقى ويحدقون النظر فى الرجال ذوى الخوذات الرمادية الذين كانوا يحملون البنادق السريعة الطلقات .

وفى الساعة العاشرة والدقيقة الثامنة والثلاثين ، كان الجنود الستة الذين سقطوا صرعى قد دفنوا ، وطويت المظلات ، واتخذت الكتيبة الغازية مقامها فى مستودع المستر

كوريل بجانب رصيف الميناء ، وقد زودت رفوفه بالأسرة والبطاطين التى تكفى أفرادها .

وفى الساعة الحادية عشرة إلا ربعا تلقى «أوردن» — العمدة المسن — طلبا رسميا ليسمح للكولونيل « لانسر » ، من فرقة الغزاة ، بمقابلته . وقد حددت المقابلة فى الساعة الحادية عشرة تماما بقصر العمدة ذى الخمس غرف .

وكانت غرفة الاستقبال فى القصر آية فى البهاء ، إذ اجتمعت فيها كل أسباب الراحة ، وتناثرت مقاعدها المذهبة — المكسوة بأغطية (بياضات) بالية — فى غير ترتيب ، كأنها خدم يزيدون كثيرا عن حاجة العمل فى بيت ولا يجدون ما يفعلون !.. وكانت ثمة مدفأة مقوسة من الرخام اشتملت على موقد استعرت فيه نار هادئة لا تصعد لهبا ، وصورة رسمت باليد تمثل حامل الفحم ، وعلى رف المدفأة استقرت ساعة من الخزف المجعد ، تحيط بها آنيتان ضخمتان للزهور . وامتلأت جوانبهما برسوم لملائكة على وشك السقوط !.. وكان ورق الجدران أحمر داكنا ، وقد اشتمل على أشكال ذهبية ، بينما بدا الإطار الخشبى — الممتد فى أسفل الجدران — نظيفا بهيجا . أما الصور التى علقت إلى الحائط ، فكان معظمها يمثل مناظر رائعة لبطولة الكلاب الكبيرة فى إنقاذ أطفال حاق بهم الخطر . فما كان الماء ولا النار ولا الزلازل لتنال من أى طفل طالما كان إلى جواره كلب كبير يحرسه !

وجلس إلى جوار المدفأة الطبيب الشيخ «الدكتور وينتر» . وكان رجلا ملتحيا ، يتسم بسلامة الطوية ودماثة الخلق ..

وكان مؤرخ البلدة . إلى جانب كونه طبيبها ، فكان يرقب ما حوله وقد أخذت منه الدهشة مأخذها ، وراح يدير إبهاميه — الواحد حول الآخر — وهو يضع يديه فى حجره . وكان الدكتور وينتر بادى البساطة ، وإن كان لا يدرك عمق غوره سوى من أوتى ما أوتيه الطبيب الشيخ من بعد الغور .. وما لبث أن رفع بصره إلى « جوزيف » — خادم العمدة — ليرى ما إذا كان قد لاحظ ما كان يفعله من عجائب باللعب بإبهاميه . ثم سأله : « هل بلغت الساعة الحادية عشرة ؟ ».

فأجاب جوزيف وهو شارد الذهن : « أجل يا سيدى ، فقد حددت الرسالة الساعة الحادية عشرة » .

— وهل قرأت الرسالة ؟

— كلا يا سيدى ، فقد قرأها لى صاحب السعادة !

وأخذ جوزيف يطوف بالمقاعد المذهبة ليرى ما إذا كانت قد انتقلت من موضعها منذ رتبها لآخر مرة . وكان من عادة جوزيف أن يزجر الأثاث متهما بعض القطع بالتمرد ، أو بالفوضى ، أو بالقذارة إذا ما كانت متربة ! وفى العالم الذى يقود فيه العمدة « أوردن » الرجال ، كان جوزيف هو قائد الأثاث والأوانى الفضية والصحاف . وكان رجلا متقدما فى السن ، نحيفا هزيلا ، تعلو محياه سيماء الجد ، وكانت حياته معقدة فى ظاهرها ، بسيطة فى جوهرها .. على أنه لم يكن يدرك بساطته هذه سوى رجل بعيد الغور .

ولم ير « جوزيف » ما يدعو إلى العجب فيما كان يفعله الدكتور وينتر من إدارة إبهاميه ، بل الواقع أن هذه الحركة

كانت مدعاة لإثارة أعصابه .. فقد أوحت إليه هذه الحركة بأن حدثا بالغ الشان كان وشيك الحدوث ، وينبىء ببوادره وجود الجنود الأجانب فى البلدة ، وقتل بعض رجال الجيش المحلى ووقوع بعض آخر منهم فى الأسر .. وكان لابد لجوزيف — إن عاجلا أو آجلا — من أن يستقر على رأى فيما يتصل بهذا كله !.. وما كان ليجب أن يوصف بالخفة والطيش ، ولا أن يلهو ويعبث بإبهاميه ، ولا أن ينصت لهذه الثرثرة التى كان يخالها منبعثة من الأثاث !

* * *

وأزاح الدكتور وينتر مقعده بضع بوصات عن مكانه المعين ، فانتظر جوزيف — على أحر من الجمر — اللحظة التى يستطيع ان يعيد فيها المقعد إلى مكانه الأول !.. وما لبث الطبيب ان عاد يقول : « الساعة الحادية عشرة ، وسيأتون هم أيضا إلى هنا . إنهم لقوم أوتوا عقولا فى دقة الساعة يا جوزيف ! » .

وأجاب جوزيف دون أن ينصت : « اجل يا سيدى » .

فكرر الطبيب قوله : « قوم لهم عقول فى دقة الساعة ! ».

وقال جوزيف : « أجل يا سيدى » .

فأردف الطبيب وكأنه ماض فى حديثه : « أجل ، فى دقة الساعة والآلات ! » .

— اجل يا سيدى .

— إنهم يسرعون الخطى إلى مصيرهم ، وكان هذا المصير

متعجل لا ينتظرهم . إنهم ليدفعون عجلة الدنيا الدوارة بأكتافهم ، وكأنهم هم الذين يسيرونها !

واجاب جوزيف قائلا : « أصبت تماما يا سيدى » . إذ كان قد بدأ يسأم قوله : « أجل يا سيدى » !

ولم يكن جوزيف ليوافق على هذا اللون من الحديث ، لأنه لم يكن يساعده على أن يستقر على رأى فى شىء مما كان يدور حوله !.. ولو أن جوزيف قال للطاهية فى أى وقت من بقية ذلك اليوم : « إنهم لقوم أوتوا عقولا فى دقة الساعة يا آنى »، لما استطاع أن يجعل لحديثه أى معنى ، لأن آنى كانت خليقة بأن تسأله : « من ؟ » ، ثم : « لماذا ؟ » ، حتى إذا عجز من إجابتها قالت : « هذا هراء يا جوزيف » !.. فلقد حاول جوزيف فى مناسبات سابقة أن ينقل ملاحظات الدكتور وينتر إلى الطابق الأسفل ، فكانت النتيجة هى هى فى كل مرة ، إذ كانت آنى تكتشف دائما أن هذه الملاحظات هراء وهزرا !

ورفع الدكتور وينتر بصره عن إبهاميه واخذ يراقب جوزيف وهو يرتب المقاعد ، ثم سأله قائلا : « ماذا يفعل العمدة ؟ » .

— إنه يرتدى ملابسه لاستقبال الكولونيل يا سيدى !

— دون أن تساعده ؟.. انه لا يحسن ارتداء ملابسه إذا ترك وشأنه !

— بل إن سيدتى تساعده ، فهى تريد أن يظهر فى أحسن مظهر له !

ثم أردف يقول وقد كست حمرة الخجل خديه قليلا :

« انها تقص الشعر الذى يظهر فى داخل أذنيه يا سيدى .. انه يشعر بدغدغة من لمس المقص ، ولذلك لا يسمح لى سيدى بقصه ! » .

فأجاب الدكتور وينتر بقوله : « طبعا .. ان لمسات المقص تدغدغ ! » .

واسترسل جوزيف يقول : « إن سيدتى تصر على ان تقص هى هذا الشعر » .

وضحك الدكتور وينتر على حين بغتة ، ثم انتصب واقفا ومد يديه إلى النار ، ودار جوزيف بمهارة حتى صار خلفه ، ثم أعاد المقعد إلى المكان الذى يجب أن يوضع فيه !

وقال الدكتور وينتر : « إننا لغاية فى العجب ، فان بلادنا على وشك السقوط ، وقد تم غزو بلدتنا ، والعمدة يتأهب لاستقبال الغازى ، ومع ذلك فان السيدة تمسك العمدة من عنقه وهو يناضلها ، لتقص له شعر أذنيه ! » .

واجاب جوزيف قائلا : « لقد بدأ شعره يتخذ سمة الشعر الكث الأشعث ، وكذلك حاجباه .. وإن صاحب السعادة ليزعجه قص شعر حاجبيه أكثر مما يزعجه قص شعر أذنيه ، وهو يقول إن العملية تؤلمه ، ويخالجنى الشك فيما إذا كانت سيدتى مستطيعة أن تقص له شعر حاجبيه !

فقال الدكتور وينتر : « إنها ستحاول » .

— إنها تريده ان يظهر فى احسن مظهر يا سيدى !

* * *

ولمحا إذ ذاك وجها — تعلوه خوذة — يحدق خلال الكوة الزجاجية التى تتوسط الباب الداخلى للدار ، ثم دوت على ذلك الباب طرقات ، فكأنما انساب من الغرفة شىء من الضوء الدافىء ، لتحل محله عتمة خفيفة ! وتطلع الدكتور وينتر إلى الساعة ثم قال : « لقد جاءوا مبكرين .. افتح لهم الباب يا جوزيف ! » .

وذهب جوزيف إلى الباب وفتحه ، فدخل جندى يرتدى معطفا طويلا ، وقد وضع خوذة على رأسه ، وحمل بندقية سريعة الطلقات على كتفه . والقى الجندى نظرة عاجلة فيما حوله ، ثم انتحى جانبا ليفسح الطريق لضابط كان يقف خلفه على عتبة الباب . وكان الضابط فى الزى العسكرى المألوف ، وليس ثمة ما ينم عن مرتبته سوى شارة على كتفيه .

ودلف الضابط إلى الداخل ، فنظر إلى الدكتور وينتر .. وكان اشبه بصورة لسيد إنجليزى ، بالغ الرسام فى رسمها .. إذ كان له وجه احمر مترهل ، وانف طويل ولكنه مقبول ، وقد بدا عليه انه كان يضيق ذرعا بزيه ، شأنه فى هذا شأن معظم الضباط البريطانيين ! ومكث لحظة لدى الباب يحملق فى الدكتور وينتر ، ثم سأله قائلا : « هل انت العمدة اوردن يا سيدى ؟ » .

فابتسم الدكتور وينتر وأجاب قائلا : « كلا ، كلا ، لست أنا العمدة ! » .

— افأنت إذن من رجال الحكومة ؟

— كلا .. بل إننى طبيب البلدة وصديق العمدة !

فسأله الضابط : « وأين العمدة أوردن ؟ » .

— إنه يرتدى ملابسه لاستقبالك . هل انت الكولونيل ؟

— كلا .. بل انا الكابتن بنتيك !

وانحنى ، فرد الدكتور وينتر تحيته بانحناء خفيفة . واسترسل الكابتن بنتيك يقول ، وكأنه احس بخجل مما كان لديه من حديث :

« إن أوامرنا العسكرية يا سيدى تقتضينا البحث عن الأسلحة فى اية غرفة يوشك ان يدخلها القائد العام . ونحن لا نقصد بهذا إساءة أو امتهانا يا سيدى ! » . ثم نادى من فوق كتفه : « أيها الجاويش ! » .

فهرع الجاويش إلى جوزيف ، ومر بيديه فوق جيوبه ، وقال : « لا شىء يا سيدى » .

ثم قال الكابتن بنتيك للدكتور وينتر : «أرجو الا تؤاخذنا!» . واتجه الجاويش إلى الدكتور وينتر فتحسس جيوبه ، وتوقفت يداه عند جيب السترة الداخلى ، وسرعان ما دس يده فى الجيب وأخرج علبة صغيرة مسطحة من الجلد الأسود حملها إلى الكابتن بنتيك . وفتح الكابتن بنتيك العلبة فوجدها

تشتمل على بعض الأدوات الطبية البسيطة : مشرطين ، وبعض الإبر الجراحية ، وبعض المشابك ، وإبرة لحقنة تحت الجلد ، فاغلق العلبة ثانية وردها إلى الدكتور وينتر ، فقال هذا :

ــ إننى طبيب أعمل فى الريف كما ترى ، وقد اضطررت مرة إلى استئصال الزائدة الدودية باستعمال سكين من سكاكين المطبخ ، ولذلك فإننى احرص منذ ذلك الحين على ان احمل فى جيبى هذه الأدوات !

وسأله الكابتن بنتيك : « اعتقد انه توجد هنا بعض الأسلحة ! » . وفتح دفترا مجلدا صغيرا كان يحمله فى جيبه ، فاجاب الدكتور وينتر قائلا : « انك لدقيق » .

ــ اجل ، فإن عميلنا المحلى قضى فى العمل هنا بعض الوقت !

وقال الدكتور وينتر : « ما اظنك ترضى بأن تخبرنى عمن يكون هذا الرجل ؟ » .

وأجابه بنتيك قائلا : « بل أنه أنجز مهمته تماما الآن ، ولا احسب أن فى إفشاء اسمه أى ضرر .. أن اسمه كوريل ! » .

فقال الدكتور وينتر وقد استبدت به الدهشة : « جورج كوريل ؟ .. إن هذا ليبدو مستحيلا ! فله أياد بيضاء على هذه البلدة ، بل إنه منح بعض الجوائز لمسابقة فى الرماية فى الجبل هذا الصباح » . وما أن تفوه بهذه العبارة حتى بدا فى عينيه

وميض نم عن أنه أدرك حقيقة ما حدث ، فانطبقت شفتاه رويدا ولكنه ما لبث أن قال : « لقد فهمت !.. لهذا ، إذن ، اقام مسابقة الرماية . اجل فهمت ! ولكن .. جورج كوريل بالذات !.. إن هذا ليبدو مستحيلا ! » .

وفتح الباب الذى يقع إلى اليسار ، فدخل العمدة «أوردن» . وكان يدس خنصره فى أذنه اليمنى ، وقد ارتدى سترته الرسمية ، وتدلت من عنقه قلادة العمودية .. وكان ذا شارب ابيض كبير انتفش فوق شفته العليا ، و «شاربين» اقل منه كثافة فوق عينيه ؛ وكان قد سوى شعره الأبيض بالفرشاة منذ برهة وجيزة ، ولكن بعض شعيرات راسه بدات فى التحرر محاولة ان تنتصب !.. وكان قد قضى فى منصبه زمنا طويلا حتى اصبح فى نظر اهل البلدة رمزا للعمودية .. بل ان الكبار منهم كانوا لا يتمالكون أن يتمثلوا شكل « العمدة أوردن » إذا ما وقعت أبصارهم على كلمة « عمدة » ! فقد كان هو ومنصبه شيئا واحدا .. إذ أكسبه المنصب الاحترام بينما أضفى هو على المنصب الدفء والحرارة !

وظهرت ربة القصر خلف العمدة . وكانت ضئيلة الجسم ، مجعدة الوجه ، تبدو الشراسة على محياها .. فقد كانت تعتبر انها خلقت هذا الرجل ، بل إنها هى التى ابتكرته ابتكارا ! ولو ان الأمر كان بيدها ، لتولت صنعه من جديد !.. ومع أنها لم تستطع طوال حياتها معه أن تفهم نفسيته سوى مرة أو اثنتين ، إلا أنها استوعبت ما عرفته تمام الاستيعاب ، واصبحت تدركه عن خبرة دقيقة ، فلم يكن يفوتها عزوفه عن



وهرع (الجاويش) الذى كان يقلب الوسادات ويفتش خلف الصور ، فاقترب من العمدة (أوردن) ومر بيديه على جيوبه

الطعام أحيانا ، وما كان يحس به من ألم أو ينتابه من دناءة ! على أنها لم تدرك قط أية فكرة أو أمنية أو رغبة راودته يوما .. ومع ذلك فقد لقيت منه ما أسعدها فى كثير من المناسبات !

***

وبرزت السيدة من وراء العمدة ، فأخذت بيده ، وانتزعت خنصره من أذنه الموجوعة ــ كما لو كان طفلا تنتزع أمه إبهامه من فمه ! ــ ثم قالت له « لا أصدق لحظة ان اذنك تؤلمك كل هذا الألم الذى تزعمه ! » . والتفتت إلى الدكتور وينتر وقالت : « لم يدعنى أصلح من شأن حاجبيه ! » .

فأجاب العمدة أوردن قائلا : « إن هذه العملية تؤلمنى ! » .

ــ حسنا جدا ، إذا كنت تريد أن تبدو فى هذا المظهر ، فلا حيلة لى ! » .

وأخذت تسوى ربطة عنقه التى لم تكن فى حاجة إلى تسوية ، ثم قالت : « يسعدنى أنك هنا يا دكتور ، كم سيأتى فيما تظن ؟ » . ثم تطلعت فرأت الكابتن بنتيك ، فقالت : « آه .. الكولونيل ؟ » .

فأجابها الكابتن بنتيك قائلا : « كلا يا سيدتى ، إنما أعد العدة لاستقبال الكولونيل .. أيها الجاويش ! » .

وهرع الجاويش الذى كان يقلب الوسادات ويفتش خلف الصور ، فاقترب من العمدة أوردن ومر بيديه على جيوبه ، بينما قال الكابتن بنتيك : « عفوا يا سيدى ، ولكنها الأوامر ! »

.. ثم رمق الدفتر الذى كان فى يده مرة أخرى وقال : « أعتقد أن لديك هنا بعض الأسلحة النارية يا صاحب السعادة .. تطلعتان فيما أظن ؟ » .

فأجابه العمدة أوردن قائلا : « أسلحة نارية ؟.. لعلك تقصد البندقيتين .. أجل عندى بندقية رش وبندقية صيد » . ثم أردف يقول فى لهجة غلب عليها الضعف : « لم أعد أصيد كثيرا الآن .. إننى أفكر دائما فى الخروج للصيد ، ثم يبدأ الموسم فلا أخرج .. لم يعد الصيد يطيب لى كما كان يطيب لى من قبل ! » .

والحف الكابتن بنتيك فى السؤال قائلا : « وأين توجد هاتان البندقيتان يا صاحب السعادة ؟ » . فتحسس العمدة خده محاولا أن يتذكر : « أعتقد .. » ، ثم التفت إلى زوجته متسائلا : « ألم تكونا خلف ذلك الدولاب بغرفة النوم مع عصى السير ؟ » .

وأجابته السيدة قائلة : « أجل ، وكل قطعة من قطع الملابس الموضوعة فى ذلك الدولاب تفوح منها الآن رائحة الزيت ! ليتك وضعتهما فى مكان آخر ! » .

ونادى الكابتن بنتيك يقول : « أيها الجاويش ! » ، فأسرع الجاويش إلى غرفة النوم .. بينما قال الكابتن : « إننى لآسف ، فهو واجب ثقيل ! » .. وما لبث الجاويش أن عاد وهو يحمل بندقية رش ذات ماسورتين ، وبندقية صيد جميلة تعلق على الكتف ، فأسندهما إلى جوار الباب الخارجى .

وقال الكابتن بنتيك : « بهذا تنتهى مهمتى .. شكرا لك يا صاحب السعادة ، وشكرا يا سيدتى » . ثم استدار فى انحناءة خفيفة للدكتور وينتر وقال : « شكرا يا دكتور ، إن الكولونيل لن يلبث أن يفد ، طاب صباحكم ! » .. واتجه إلى الباب الخارجى وفى أعقابه الجاويش يحمل البندقيتين بإحدى يديه ، ويعلق بندقيته السريعة الطلقات على كتفه اليمنى .

وقالت السيدة : « ظننت انه الكولونيل ، وإنه لشاب وسيم ! » .

فقال الدكتور وينتر فى تهكم واستخفاف : « كلا ، ولكنه كان يحمى الكولونيل ! » .

وكانت السيدة تحدث نفسها قائلة : « ترى كم من الضباط سيأتون ؟ » ، ثم نظرت إلى جوزيف فرأت انه يتسمع الحديث فى غير خجل أو حياء ، فهزت له رأسها وقطبت حاجبيها . وإذ ذاك عاد لفوره إلى ما كان يؤديه من أعمال صغيرة ، وشرع ينفض الغبار عن قطع الأثاث كلها .

وتساءلت السيدة : « ترى كم منهم سيأتى ؟ » .. فجذب الدكتور وينتر مقعدا بعنف ، وجلس ثانية وهو يقول : « لست أدرى » .

فأجابت السيدة بقولها : « حسنا » ، ثم عبست فى وجه جوزيف واردفت تقول : « لقد كنا نتحدث فى الأمر .. ترى هل نقدم لهم الشاى أم النبيذ ؟.. وإذا فعلنا فلست أدرى كم سيكون عددهم ، وإذا لم نقدم لهم شيئا فماذا عسانا نصنع ؟ » .

وهز الدكتور وينتر رأسه مبتسما وقال : « لست أدرى ، فلم يغز بلادنا أحد ، ولم نغز بلاد أحد منذ زمن طويل ، ومن ثم فلست أعرف ما الذى يليق بنا أن نفعله ! » .

وعاد العمدة أوردن بأصبعه إلى أذنه التى كانت تضايقه ، وقال : « حسـنا ، لا أظن أنه يليق بنا أن نقدم لهم شيئا ، فلا أعتقد أن هذا سيروق لقومنا .. إننى لا أحب أن أشرب شيئا من النبيذ معهم وإن لم أدر سببا لذلك ! » .

واستنجدت السيدة بالطبيب عندئذ قائلة له : « ألم يكن الناس فيما مضى ـ أقصد القادة ـ يحيى كل منهم الآخر بشرب كأس من الخمر ؟ » .

فأومأ الدكتور وينتر برأسه وهو يقول : « أجل ، كانوا يفعلون هذا » ، ثم هز رأسه ببطء وقال : « ربما كانت الحال تختلف الآن ، فقد كان مسلك الملوك والأمراء فى الحروب كمسلك السادة الإنجليز فى الصيد .. إذا ما اطمأنوا إلى موت الثعلب ، واجتمعوا حول مائدة الإفطار بعد الصيد ! ولكن لعل العمدة أوردن على حق ، فقد لا يرضى الشعب عن شربه الخمر مع الغازى » .

وقالت السيدة : « إن الشعب ينصت إلى الموسيقى .. لقد قالت لى آنى هذا .. فإذا كان أهل البلدة يفعلون هذا ، فلماذا لا نحيى نحن العادات التى اصطلحت عليها الحضارة ؟! » .

وأمعن العمدة النظر فيها برهة ، ثم قال لها فى لهجة

حادة « أستميحك عفوا يا سيدتى إذا كنا لا نقدم الخمر ، فإن الشعب تتملكه الحيرة الآن .. لقد عاش فى سلام طويل حتى أنه لا يصدق أنه فى حالة حرب الآن ، ولن يلبث أن يدرك الحقيقة فتزول هذه الحيرة التى تتملكه . إنهم لم ينتخبونى ليظلوا فى حيرة من أمرهم ! .. لا ، ليس من رأيى أن نقيم حفلة إفطار بعد الصيد .. ألم يصيدوا ستة من رجالنا هذا الصباح ؟.. إن الناس لا يخوضون غمار الحروب للرياضة! » .

وانحنت السيدة انحناءة خفيفة .. كان من عادة زوجها فى بعض المناسبات أن يتخذ صفة العمدة ، وأن يملأ مركزه حقا ، وقد تعلمت ألا تخلط بين العمدة وبين زوجها !

* * *

ونظر العمدة « أوردن » إلى ساعته ، بينما أقبل جوزيف يحمل قدحا صغيرا من القهوة « السادة » ، فتناوله منه وهو شارد الذهن ، وقال له وهو يرتشف منه : « شكرا لك » ، ثم التفت إلى الدكتور وينتر وهو يقول معتذرا : « يجب أن يكون رأيى واضحا ، يجب أن .. أعرفت كم عدد فرقة الغزاة ؟ » .

فأجابه الطبيب بقوله : « ليسوا كثيرين ، ولا أعتقد أن عددهم يزيد على مائتين وخمسين ، ولكنهم جميعا يحملون تلك البنادق السريعة الطلقات ! » .

ورشف العمدة رشفة أخرى من قدحه ، وبدأ حديثا جديدا ، إذ قال : « وماذا حدث فى باقى أنحاء البلاد ؟ » .. فرفع الطبيب كتفيه ثم خفضهما ثانية

واسترسل العمدة يقول فى لهجة اليائس : « الم تكن ثمة مقاومة فى اية جهة من الجهات ؟ » .

وعاد الطبيب يرفع كتفيه وهو يقول : « لا اعلم .. فقد قطعت الأسلاك أو استولى عليها الغزاة ، وانقطعت الاخبار » .

— وشبابنا ؟ جنودنا ؟

فأجاب الطبيب قائلا : « لست أعرف عنهم شيئا » .

وقطع جوزيف عليهما الحديث : « سمعت .. اقصد ان آنى سمعت .. » .

— ماذا يا جوزيف ؟

— لقد قتل ستة رجال يا سيدى بالمدافع الرشاشة . وسمعت « آنى » ان ثلاثة آخرين جرحوا ووقعوا فى الأسر .

— ولكن عدد الجنود كان اثنى عشر .

— سمعت « آنى » ان ثلاثة ولوا الأدبار !

والتفت العمدة بشدة وهو يسأل : « من اولئك الثلاثة الذين هربوا ؟ » .

— لست ادرى يا سيدى ، فان آنى لم تسمع عن هذا شيئا .

واخذت السيدة تمر باصبعها على المنضدة لتتحقق من أنه لا يعلق بها شيء من الغبار ، ثم قالت : « عليك ان تلزم الجرس يا جوزيف عندما يأتون ، فقد نحتاج إلى بعض أشياء بسيطة .. وعليك أن ترتدى سترتك الأخرى يا جوزيف ..

السترة ذات الأزرار » ، ثم فكرت لحظة واستطردت تقول : « وعندما تنجز ما يطلب إليك إنجازه يا جوزيف ، يجب أن تبارح الغرفة ، فانه لمما يسيء إلى سمعتك وقوفك دون عمل تنصت إلى الحديث .. إن هذا من شيمة أهل الريف وحدهم ! » .

— واجاب جوزيف قائلا : « سمعا وطاعة يا سيدتى » .

— لن نقدم الخمر يا جوزيف ، ولكن حرى بك أن تضع بعض السجاير فى هذه العلبة الفضية الصغيرة ، ولا تحك عود الثقاب على حذائك لتشعل سيجارة الكولونيل بل حكه على علبة الثقاب ! » .

— سمعا وطاعة يا سيدتى .

وفك العمدة « أوردن » أزرار سترته ، فاخرج ساعته ونظر فيها ، ثم أعادها إلى جيبه واحكم أزرار سترته ثانية . ولكنه أخطأ فوضع الزر الثانى فى العروة الأولى ، فاتجهت إليه السيدة واصلحت من وضع سترته .

وتساءل الدكتور وينتر : « كم الساعة ؟ » .

— الحادية عشرة إلا خمس دقائق .

— إنهم قوم فى دقة الساعة !.. سيكونون هنا فى الموعد الذى حددوه . أتريد منى أن أرحل ؟

فلاح الفزع على العمدة أوردن وقال : « ترحل ؟ كلا .. كلا ، بل ابق ! » ، ثم ضحك واردف فى لهجة غلب عليها

الاعتذار : « إننى أشعر بشىء من الخوف . . لا ، ليس الخوف ، وإنما هو الانفعال ينال منى مناله ! » . ثم استطرد يقول فى عجز ويأس : « لم يغزنا أحد منذ زمن طويل ! . . » ، وتوقف عن الكلام منصتا ، فقد كان الهواء يحمل من بعيد صوت الفرقة الموسيقية وهى تعزف لحنا عسكريا . وأرهفوا جميعا أسماعهم صوب مصدر الصوت فى إصغاء تام !

* * *

وما لبثت السيدة أن قالت : « ها هم أولاء قادمون ، أرجو الا يكون عددهم كبيرا جدا ، ولعلهم لا يأتون جميعا دفعة واحدة فتضيق بهم الغرفة ، وهى ليست غاية فى الاتساع » .

فقال الدكتور وينتر ولهجته تنم عن التهكم : « أتفضل سيدتى قاعة المرايا فى قصر فرساى ؟ » . فعضت على شفتيها ، ونظرت حولها وهى تتخيل وضع الغزاة ، ثم قالت : « إنها لغرفة صغيرة جدا » . وارتفع صوت الموسيقى ، ثم أخذ يخفت . . وطرقت الباب الخارجى يد حرصت على أن تكون رقيقة ، فقالت السيدة : « ترى من يكون هذا ؟ قل للطارق يا جوزيف أن يعود فيما بعد ، فنحن مشغولون جدا » . وعاد الطرق من جديد ، فذهب جوزيف إلى الباب وفتحه فى تحفظ ، ثم فتحه أكثر من ذى قبل ، فظهر جندى فى لباس رمادى وقد علت الخوذة رأسه وكسا القفاز يديه ! . . وقال الجندى : « أحمل اليكم تحيات الكولونيل لانسر ، وإن الكولونيل ليلتمس مقابلة صاحب السعادة » .

وإذ ذاك فتح جوزيف الباب على مصراعيه فدخل الجندى لابس الخوذة ، وسار إلى الغرفة فألقى نظرة عاجلة فى أرجائها ، ثم انتحى جانبا ، ونادى معلنا : « الكولونيل لانسر ! » .

ودخل شخص آخر يلبس الخوذة أيضا ، وتنم الشارات التى على كتفيه عن أنه « الكولونيل » المرتقب . ثم أقبل خلفه رجل يميل إلى القصر ، ويرتدى حلة سوداء على غرار رجال الأعمال . وكان الكولونيل رجلا متوسط العمر ، أشيب الشعر ، صعب المراس ، تبدو على ملامحه علائم التعب . وكانت له كتفا الجندى العريضتان ، ولكن عينيه لم تكونا كعيون العسكريين . . ذات النظرات الفارغة ! أما الرجل الذى جاء معه فكان أصلع الرأس ، أحمر الخدين ، له عينان سوداوان صغيرتان ، وفم ينم عن الشهوة العارمة !

وخلع الكولونيل « لانسر » خوذته ، وقال وهو ينحنى انحناءة سريعة : « يا صاحب السعادة ! » ، ثم انحنى للسيدة قائلا : « سيدتى ! » ، وقال : « أغلق الباب من فضلك أيها الأومباشى » . فأسرع جوزيف إلى غلق الباب ، وهو يرمق الجندى وكأنه يزهو بهذا النصر الصغير . . فقد كان إغلاق الباب من مهامه هو ، لا من مهام « الأومباشى » ! وتطلع الكولونيل لانسر إلى الطبيب متسائلا ، فقال العمدة أوردن : « هذا هو الدكتور وينتر » .

فسأله الكولونيل : « أهو موظف ؟ » .

— إنه طبيب يا سيدى ، ولعلنى لا أخطىء جادة الصواب إذا قلت إنه مؤرخنا المحلى .

فانحنى لانسر انحناءة خفيفــة وقال : «إننى لا اقصــد أن اكون وقحا يا دكتور وينتر ، ولكن ربما اضيفت إلى تاريخكم صفحة . . . » .

فابتســم الدكتور وينتر وقال : « ربما أضــيفت إليــه صفحات كثيرة » .

والتفت الكولونيل لانسر قليلا إلى رفيقه ، وقال : « اعتقد انكم تعرفون المستر كوريل ؟ » .

فأجاب العمدة : « جورج كوريل ؟ . . طبعا اعرفه ، كيف أنت يا جورج ؟ »

فقاطعه الدكتور وينتر فى حدة ، وقال له فى لهجــة طغت عليها الصبغة الرسمية : « يا صاحب السعادة ، أن صديقنا جورج كوريل اعد هذه البلدة للغزو . . إن جورج كوريل صاحب الأيادى البيضاء علينا أرسل جنودنا إلى الجبال . . إن جورج كوريل ــ ضيف الشرف فى مآدب عشائنا » ــ كتب قائمة بكل ما فى البلدة من اسلحة نارية . . هــذا هو صــديقنا جورج كوريل ! » .

فقال كوريل فى لهجة شاع فيها الغضب : « إننى اعمل فى سبيل ما أومن به ، وهذا شىء شريف ! » .

وفغر أوردن فمه قليلا ، إذ اشتد به الذهول ، واخذ يقلب النظر يائسا بين وينتر وكوريل ، ثم قال : « إن هــذا ليس صحيحا يا جورج . . إن هــذا لا يمكن أن يكون صــحيحا !

. . لقد جلست إلى مائدتى وشربت نبيــذ « البورت » معى ، بل إنك ساعدتنى فى وضع مشروع المستشفى . . إن هــذا لا يمكن أن يكون صحيحا ! » .

ورمق كوريل بنظرة نافــذة ، فــرد إليــه كوريل نظرته بنظرات ملؤها الحقد والعداوة ، ثم ساد بينهما صمت طويل . واخذت ملامح العمدة تستحيل رويدا رويدا إلى ملامح صارمة قاسية اتخــذت السمة الرســمية ، وتصلب جسمه كله ، ثم التفت إلى الكولونيل لانسر وقال : « لا اريد أن أتحدث فى حضرة هذا الســيد » .

وقال كوريل : « إن من حقى أن أكون هنا ! » انى جندى كسائر اولئك الجنود ، وإن كنت لا ارتدى الزى العسكرى » .

وكرر العمدة قوله : « لا أريد أن أتحدث فى حضرة هــذا الســيد » .

فقال الكولونيل لانسر : «هلا تركتنا الآن يا مستر كوريل ؟» .

وقال كوريل : إن من حقى أن اكون هنا ! » .

وكرر لانسر فى حدة : « هلا تركتنا الآن يا مستر كوريل ؟ أو تراك أعلى منى رتبة ؟ » .

ــ كلا يا سيدى .

فقال الكولونيل لانسر : « إذن أرجوك أن تنصرف يا مستر كوريل » .

ونظر كوريل إلى العمدة نظرة الغاضب الحانق ، ثم استدار وخرج لا يلوى على شيء . وضحك الدكتور وينتر وهو يقول : « هذه مادة كافية لفقرة فيما سأكتبه من التاريخ » ، فرمقه الكولونيل لانسر شزرا ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة .. وفى تلك اللحظة ، فتح الباب الأيمن وأطلت منه آنى ، الحمراء العينين ، ذات الشعر الذى يشبه القش .. وكان وجهها يفيض غضبا وهى تقول : « هناك جنود عند الباب الخلفى يا سيدتى .. وليس لهم من عمل سوى الوقوف هناك ! » .

فأجاب الكولونيل لانسر : « انهم لن يدخلوا، إذ أن وقوفهم هناك من الإجراءات العسكرية » .

وقالت السيدة ببرود : « إذا كان لديك ما تقولين يا آنى ، فدعى جوزيف يحمل رسالتك » .

فأجابت آنى قائلة : « كل الذى أعلمه انهم قد يحاولون الدخول ، فقد شموا عبير القهوة » .

وصاحت السيدة محنقة : « آنى ! » .

فقالت الخادم : « سمعا يا سيدتى » . ثم غادرت الغرفة .

وقال الكولونيل : « هل لى أن أجلس ؟ » ، ثم اردف يقول: « لقد قضينا وقتا طويلا دون أن يغمض لنا جفن » .

وكأنما أيقظت هذه الكلمات العمدة من سبات عميق ، فقال : « أجل ، طبعا .. اجلس ! » .

وتطلع الكولونيل إلى السيدة ، فجلست ، بينما ألقى هو بنفسه متهالكا على أحد المقاعد ، وظل العمدة واقفا وهو شارد البال ، وكأنه يحلم !

وبدأ الكولونيل حديثه قائلا : « نريد الا يعوق سبيلنا للتفاهم عائق ، فأنت ترى يا سيدى أن هذه أقرب إلى أن تكون مغامرة تجارية ، منها إلى اى شيء آخر .. نحن فى حاجة إلى منجم الفحم الموجود هنا ، وفى حاجة إلى مصايد للأسماك . وسنبذل قصارى جهدنا حتى نمضى فى علاقاتنا مع الأهالى بأقل احتكاك ممكن » .

فقال العمدة : « لم تصلنى اية أخبار ، فماذا حدث فى باقى أنحاء بلادنا ؟ » .

فأجاب الكولونيل قائلا : « لقد استولينا عليها كلها .. لقد أحكمنا تدبير خطتنا » .

— ألم تكن هناك مقاومة فى اى مكان ؟

فنظر إليه الكولونيل فى رثاء وهو يقول : « كم كنت أتمنى الا تكون هناك مقاومة !.. أجل ، كانت ثمة مقاومة ، إلا أنه لم ينجم عنها سوى إراقة الدماء .. فقد أحكمنا تدبير خطتنا تماما » .

ولكن أوردن كان يلح فى سؤاله : « ولكن كانت هناك مقاومة ؟ » .

— أجل ، ولكن المقاومة كانت ضربا من الحماقة ، فقد قضينا عليها هناك كما قضينا عليها هنا فى الحال .. أجل ،

لقد كانت المقاومة من الأعمال التى تتسم بالحماقة وتبعث على الحزن والأسى !

وانتقل إلى الدكتور وينتر شىء من لهفة العمدة وقلقه ، فقال : « أجل ، كانت من الحماقة ، ولكنهم قاوموا ! » .

فأجاب الكولونيل لانسر قائلا : « لم يقاوم إلا قلة قضينا عليها .. والشعب الآن هادىء وادع ، فى مجموعه ! » .

وقال الدكتور وينتر : « إن الشعب لم يقف بعد على ما حدث » .

فأجاب لانسر بقوله : « لقد اخذوا يدركون ما حدث ، ولن يعودوا إلى حماقتهم ! » . ثم تنحنح واصبح صوته اكثر وضوحا ، وهو يستطرد : « والآن يا سيدى ، يجب أن أبدا مهمتى ، فان التعب قد نال منى مناله ، ولكننى مضطر إلى أن انجز إجراءاتى قبل ان اسلم جفنى للكرى » . ثم مال إلى الأمام فى مقعده وقال : « إننى مهندس اكثر منى جندى ، وهذه المغامرة كلها اقرب إلى الأعمال الهندسية منها إلى الغزو ، فان الفحم يجب أن يستخرج من الأرض ويشحن . ولدينا الفنيون ، ولكن الأهالى يجب أن يستمروا فى العمل فى المنجم .. أهذا واضح ؟ لا نريد أن نكره على استخدام القوة والعنف » .

فاجابه أوردن قائلا : « أجل ، هذا واضح تماما ، ولكن هب أن الناس لا يريدون العمل فى المنجم ؟ » .

فقال الكولونيل : « أرجو أن يكونوا راغبين فى العمل ، لأن هذا فرض عليهم . فالفحم لازم لنا » .

ــ وإذا عزفوا عن العمل ؟

ــ هذا فرض عليهم .. وأرى أن الشعب منظم ، رتيب ، ينأى بنفسه عن المتاعب !

وانتظر جواب العمدة ، ولكن العمدة لم يحر جوابا ، فسأله الكولونيل : « أليس الأمر كما أقول يا سيدى ؟ » .. فتشاغل العمدة بالعبث بسلسلة ساعته ثم قال: «لست أدرى يا سيدى .. إنه شعب منظم رتيب فى ظل حكومته ، ولكنى لا أعلم كيف يكون فى ظل حكومتكم ، فهذا أمر لم تسبق لنا فيه تجربة كما تعلم ، إذ اننا انشأنا حكومتنا منذ اكثر من أربعمائة عام » .

فأجاب الكولونيل بسرعة : « نحن نعرف هذا ، ولذلك سنبقى على حكومتكم ، وستظل انت العمدة : تصدر الأوامر ، وتعاقب وتكافىء ، وبهذه الوسيلة لن يكونوا مصدر تعب لنا ! » .

ونظر العمدة إلى الدكتور وينتر وسأله ، قائلا : «ما رايك ؟» .. فأجابه الدكتور وينتر بقوله : « لست أدرى ، وإنه ليكون طريفا ان نرقب النتيجة . على اننى أتوقع المتاعب ، فقد يكون هذا الشعب مرا ، صلب العود ، لا تلين له قناة ! » .

وقال العمدة اوردن : « ولا أنا أدرى ! » . ثم التفت إلى الكولونيل يقول : « سيدى ، اننى واحد من هذا الشعب ، إلا اننى لا أدرى ما عساه يفعل . ولعلك انت تدرى ، أو لعله هو يقدم على شىء يختلف تماما عما تعرفه أنت أو نعرفه نحن ، فبعض الناس يرتضون الزعماء الذين يفرضون عليهم ويطيعون أوامرهم ، ولكن قومى قد انتخبونى .. لقد رفعونى وهم

مستطيعون أن يسقطونى ، ولعلهم يفعلون هذا إذا ظنوا أننى قد ضالعتك .. كل ما أملك ان أقوله هو أننى لا ادرى ! » .

فقال الكولونيل : « إنك لتـؤدى لهم خـدمة لو جعلتهم يحافظون على النظام » .

ـــ خدمة ؟!

ـــ أجل خدمة ، فان من واجبك حمايتهم من الأذى ، وأن الخطر ليحدق بهم إذا هم تمردوا ، إذ لا بد لنا من أن نحصـل على الفحم ، وقادتنا لايبينون لنا طريق الحصول عليـه ، بل يأمروننا بالحصول عليه فقط .. ولـكن عليك أنت أن تحمى قومك ! .. يجب أن تحملهم على أداء العمل ، وبذلك تحفظ عليهم سلامتهم .

فسأله العمدة أوردن : « ولكن هب أنهم لا يريدون لأنفسهم السلامة ؟! » .

ـــ إذن فعليك أنت أن تفكر نيابة عنهم !

فأجاب أوردن فى شىء من الزهو : « إن قومى لا يحبـون أن يفكر إنسان عنهم ، ولعلهم يختلفون فى هـذا عن قومك . إننى لفى حيرة ، ولكننى واثق مما أقول ! » .

ودلف جوزيف إلى الغرفة إذ ذاك ووقف منحنيا إلى الأمام وقد استبدت به الرغبة فى الكلام . فقالت السيدة : « ما الخبر يا جوزيف ؟.. احضر علبة السجاير الفضية » .

فأجاب جوزيف قائلا : « عفوا يا سيدتى ، عفوا يا صاحب السعادة » .

وسأله العمدة : « ماذا تريد ؟ » ... فأجاب قائلا : « إنها آنى .. لقد بدأ الغضب يسيطر عليها يا سيدى ! » .

وتساءلت السيدة : « ماذا جرى ؟ » .

ـــ إن آنى لا يروق لها الجنود الذين يرابطون عند البـاب الخلفى ! .

فسأله الكولونيل : « اهم يسببون شيئا من المتاعب ؟ » .

فأجاب جوزيف قائلا : « أنهم يتلصصون خلال الباب على آنى ، وهى تكره هذا ! » .

فقال الكولونيل : « إنهم ينفذون الأوامر الصادرة إليهم ، دون أن يضروا بأحد » .

فأجاب جوزيف بقـوله : « حسـنا ، ولكن آنى تكره أن يحملق فيها أحد » .

وقالت السيدة : « جوزيف ، قل لآنى ان تلزم الحذر ! » .

فأجاب جوزيف قائلا : « سمعا وطاعة يا سيدتى » ، ثم غادر الغرفة .

* * *

وخفض الكولونيل عينيه عياء وتعبا ، ثم قال : « ثمة أمر آخر يا صاحب السعادة .. هل من الممكن أن اقيم مع أركان حربى هنا ؟ » .. ففكر العمدة أوردن لحظة ثم قال : «إن المنزل صغير، وثمة منازل أكبر منه واكثر استعدادا لتوفير الراحة !» .

وعاد جوزيف فى تلك الأثناء يحمل علبة السجاير الفضية ففتحها وقدمها إلى الكولونيل . وتناول الكولونيل سيجارة ، فأشعلها له جوزيف فى شئ كثير من التكلف . وزفر الكولونيل الدخان من أعماق صدره ، ثم قال : « ليس هذا هو بيت القصيد ، بل لقد تبين لنا أن إقامة أركان الحرب فى نفس البيت الذى يقيم فيه أصحاب السلطة المحلية ، ادعى لهدوء البال والطمانينة » .

فقال أوردن : « تقصد ان الناس سيشعرون بأن ثمة تعاونا بين الاثنين ؟ » .

ــ اجل ، اعتقد أن هذا هو المقصود !

فنظر العمدة اوردن فى يأس إلى الدكتور وينتر مستنجدا به . ولم يستطع وينتر أن ينجده بأكثر من ابتسامة مريرة . وما لبث أوردن أن قال فى لهجة رقيقة : « هل من المباح لى رفض هذا الشرف ؟ » .

فأجابه الكولونيل قائلا : «إننى لآسف ، ولكنكَ لا تستطيع، فتلك هى أوامر قائدى » .

فقال اوردن : « إن الشعب لن يرتاح إلى هذا ! » .

ــ دائما الشعب !.. لقد أصبح الشعب اعزل .. لم يعد للشعب حول ولا قوة !

فهز العمدة أوردن رأسه وهو يقول : « إنكَ لا تعرفهم يا سيدى » .

وطرق اسماعهم من خلال الباب صوت امراة غاضبة . ثم صوت ارتطام ، وصرخة رجل .. واقبل جوزيف على الغرفة مهرولا ، وقال : « لقد رمتهم بالماء المغلى .. لقد بلغ بها الغضب ذروته ! » .

وسمعت الأوامر تترى من خلال الباب ، وصوت وقع الأقدام ، ثم نهض الكولونيل لانسر متثاقلا ، وتساءل قائلا : « اليس لك سلطان على خدمك يا سيدى ؟ » .

فابتسم العمدة اوردن وقال : « لى سلطان ضئيل عَليهم.. إنها طاهية بارعة عندما تكون سعيدة ! » . ثم سأل جوزيف « هل اصيب احد بأذى ؟ » .

ــ لقد كان الماء يغلى يا سيدى !

وقال الكولونيل لانسر : « إنما نريد أن ننجز مهمتنا ، وهى مهمة هندسية ، فعليك أن تؤدب طاهيتك ! » .

فأجابه اوردن : « لا أستطيع هذا وإلا غادرت بيتى ورحلت ! » .

ــ إننا فى حالة طوارئ ، فلا يمكنها أن ترحل .

وهنا قال الدكتور وينتر : « إذنْ فستستمر فى إلقاء الماء ! » .

وفتح الباب ، فاذا بجندى يقف فى فراغه ، وهو يقول متسائلا : « هل اقبض على هذه المراة يا سيدى ؟ » .

فسأله لانسر : « هل أصيب احد بأذى ؟ » .

— أجل يا سيدى ، فقد أصيب البعض بحروق ، ونال أحد الجنود عضة .. إنها الآن فى أيدينا يا سيدى .

ولاحت الحيرة على لانسر ، ثم قال : « اطلقوا سراحها ، واذهبوا بعيدا عن الباب ! » .. فقال الجندى : « سمعا وطاعة يا سيدى » . ثم أغلق الباب .

وقال لانسر : « كان فى استطاعتى إصدار الأمر بإعدامها رميا بالرصاص ، وكان فى استطاعتى حبسها ! » .

فقال أوردن : « إنك إذ ذاك تحرمنا من الطاهية ! » .. فأجاب الكولونيل : «إننا مأمورون بأن نحسن معاملة قومك». وما لبثت السيدة أن قالت : « عفوا يا سيدى ، سأذهب لأرى ما إذا كان قد نال « آنى » شىء من الأذى على يد الجنود!» ، ثم انصرفت . فنهض لانسر وقال : « قلت لك اننى متعب جدا يا سيدى . لا بد لى من أن أحظى بقسط من النوم ، فأرجو ان تتعاون معنا لمصلحة الجميع ! » . وإذ لم يجب أوردن ، أردف لانسر يقول مرة اخرى : « لمصلحة الجميع .. فهل أنت فاعل ؟ » .

فأجاب أوردن بقوله : « هذه بلدة صغيرة .. لست أدرى .. إن القوم تتملكهم الحيرة ، كما تتملكنى أنا » .

— ولكن هلا حاولت المعاونة ؟

فهز أوردن رأسه وهو يقول: « لست ادرى . ربما استطعت أن أعرف ما ينبغى أن افعله ، إذا استقر رأى القوم على ما يحسن بهم عمله ! » .

— ولكنك صاحب السلطان !

فابتسم اوردن وقال : « لن تصدق هذا ، ولكنه الحقيقة .. إن السلطان فى يد البلدة ذاتها . ولست أدرى كيف ولا لماذا ، ولكن هذا هو الواقع .. وهذا معناه اننا لا نستطيع التصرف بالسرعة التى تتصرفون أنتم بها ، ولكن ما أن نضع خطة للسير عليها ، حتى نعمل كلنا معا .. إننى فى حيرة ، لاننى لا اعرف بعد ما ينبغى عمله ! » .

فقال لانسر وهو يكاد يسقط إعياء : « ارجو أن نستطيع العمل معا حتى يسهل الأمر بالنسبة لكل إنسان ، وارجو ان نستطيع الوثوق بك ، فاننى لا أحب ان افكر فى الوسائل التى يلجأ إليها العسكريون لحفظ النظام ! » .

ولاذ العمدة أوردن بالصمت ، فعاد لانسر يكرر : « أرجو أن نستطيع الوثوق بك والركون إليك ! » .

ووضع أوردن اصبعه فى اذنه وهز يده وهو يقول : « لست أدرى » .. ودخلت السيدة فى هذه اللحظة قائلة : « لقد استبد الغضب بآنى ، وهى عند الجيران تحادث كريستين .. وكريستين غاضبة ايضا » .. فقال العمدة : « إن كريستين طاهية بارعة تفوق آنى نفسها ! » .

الفصل الثانى

اتخذ أركان حرب الكولونيل لانسر مقامهم فى الطابق الأعلى من قصر العمدة الصغير . وكانوا خمسة عدا الكولونيل، منهم الماجور هنتر .. وهو رجل صغير يشغل الحساب والأرقام باله . وكان « وحدة » يركن إليها ، ولكنه كان يرى بقية الناس وحدات لا يركن إليها ، أو لا تصلح للبقاء !.. وكان الماجور هنتر مهندسا ، ولولا الحرب لما فكر أحد فى أن يوليه قيادة الرجال !.. ذلك لأن الماجور هنتر كان يصف رجاله صفوفا كأنهم الأرقام ، يجمعهم ويطرحهم ويضربهم !.. كان أقرب إلى عالم الحساب منه إلى رجل العلوم الرياضية ، ومن ثم لم يستسغ يوما ما كان يزعمه المتبحرون فيها من أن لها سحرا وموسيقى ونشوة روحية !.. ولقد يختلف الناس فى الطول أو الوزن أو اللون ، كما يختلف رقم ٦ عن ٨ ، ولكنهم قل أن يختلفوا فى شىء آخر . على أن هنتر لم يكن يفطن إلى ذلك .. فقد تزوج عدة مرات ، ومع ذلك فانه لم يدر يوما السر فى أن أعصاب زوجاته كانت تثور قبل أن يهجرنه !

أما الكابتن بنتيك ، فكان رجل أسرة .. يحب الكلاب ، والأطفال ذوى الوجوه الوردية ، وحفلات عيد الميلاد . ولقد كان أكبر سنا من أن يكون « يوزباشيا » ، ولكنه كان منعدم الطموح إلى درجة تثير العجب ، مما جعله يتخلف فى تلك الرتبة. وكان قبل الحرب شديد الاعجاب بأعيان الريف الإنجليز ، فكان يرتدى الازياء الإنجليزية ، ويؤوى الكلاب الإنجليزية ، ويدخن

فى غليونه خليطا مخصوصا من التبغ يرسل إليه من لندن ! كما أنه كان مشتركا فى تلك المجلات الريفية التى تبحث فى الفلاحة والتى تداب على الجدال فى المزايا النسبية لكلاب الصيد الإنجليزية وكلاب (جوردون) .. بل إنه كان يقضى إجازاته كلها فى مقاطعة (ساسكس) الإنجليزية ، ويستطيب أن يأخذه الناس — فى بودابست أو باريس — على أنه إنجليزى . ومع أن الحرب اضطرته إلى تغيير كل هذه المظاهر ، إلا أنه كان قد دخن الغليون كثيرا ، وحمل العصا طويلا ، حتى بات من المتعذر عليه أن يستغنى عنهما فجأة . ولقد كتب مرة — منذ خمس سنوات — خطابا إلى صحيفة « التايمس » عن صبغ حشائش الأرض فى (ميدلاند) . ووقع الخطاب باسم السيد ادموند تويتشل ، فنشرت « التايمس » خطابه هذا !

وإذا كان الكابتن بنتيك أكبر سنا من أن يكون يوزباشيا ، فان الكابتن « لوفت » كان أصغر من أن يكون يوزباشيا ، وإن حرص على أن يبدو فى رتبته كأحسن ما يظهر « اليوزباشية » فى رتبتهم ، فكانت حركاته وسكناته كلها توحى بأنه «يوزباشى» مثالى . ولم تكن فى وقته لحظة غير عسكرية ! وقد دفعه الطموح إلى الرقى ، فأخذ يصعد سلم الدرجات العسكرية تباعا ، وهو يرتفع فى يسر كأنه القشدة حين تعلو اللبن !.. ولقد كان يضرب أحد عقبيه بالآخر فى براعة الراقص الرشيق، كما كان يعرف كل ضرب من ضروب الآداب العسكرية ، حتى بات قادة الجيش يخشونه ، لأنه كان يعرف عن مسالك الجندى أكثر مما يعرفون . وكان الكابتن « لوفت » يعتقد — بل يؤمن —

بأن الجندى هو أرقى ما تطورت إليه حياة الحيوان . ولو أنه
كان على شيء من الإيمان بوجود الله ، لكان كل ما يتخيله عن
الله هو انه قائد قد تقدمت به السن وتوجته أكاليل الشرف ،
وقد اعتزل الخدمة بعد أن اشتعل راسه شيبا ، وأخذ يعيش
على ذكريات المعارك التى خاضها ، ويضع أكاليل الزهور
على قبور ملازميه عدة مرات فى السنة !.. وكان الكابتن
« لوفت » يعتقد ان النساء جميعا يتهافتن على حب الزى
الرسمى . ولم يكن يرى اى عجب فى ذلك .. ومن ثم كان
يحلم بانه إذا سارت الأمور سيرها الطبيعى ، فلن يلبث ان
يصبح لواء فى سن الخامسة والأربعين من عمره ، فتنشر
الصحف والمجلات صورته تحيط به نساء مسترجلات طويلات ،
شحبت وجوههن ، وارتدين قبعات مطرزة أنيقة !

اما الملازمان « براكل » و « توندر » ، فكانا فى طور التمرين
.. لم يكونا أكثر من ملازمين يتدربان على فنون السياسة
الحالية ، ويؤمنان بأن نظام الحكم الجديد ابتكره عبقرى ،
وبلغ من العظمة بحيث لم يكونا فى حاجة إلى أن يكلفا نفسيهما
مؤونة التحقق من نتائجه !.. وكانت العاطفة تملك قيادهما ،
نألفا الدموع وسورات الغضب . وكان الملازم « براكل »
يحمل خصلة من الشعر الصقها فى داخل الغلاف الخلفى من
ساعته الجيبية ، وقد لفها فى قطعة من الحرير الأزرق . وكان
الشعر يخرج دائما من غلالته ويعوق بندول الساعة عن
العمل ، ولذلك فقد كان يحمل ساعة يد ليعرف بها الوقت .
ولقد كان « براكل » فى الأصل راقصا أجيرا ، مرحا بطبعه ،

إلا انه كان قادرا على أن يتجهم كما يفعل القائد ، وان يطيل
التفكير والتأمل كما يفعل القائد أيضا !.. وكان يكره الفن
المائع المنحل ، حتى لقد اتلف بيديه بعض اللوحات التى رسمت
على القماش . وكان يعمد ــ اثناء سهره فى الملاهى احيانا ــ
إلى رسم رفاقه بالقلم الرصاص فى صور كاريكاتورية كانت
من البراعة بحيث قيل له كثيرا إنه كان يجب أن ينشأ فنانا.
وكانت لبراكل بضع شقيقات شقراوات كان فخورا جداً بهن،
حتى انه اثار ضجة ذات مرة عندما خيل إليه ان الحديث قد
نال من سمعتهن . وانزعجت الشقيقات بعض الشيء بسبب
هذا الحادث ، لانهن خشين ان يعمد شخص ما إلى إثبات
الواقعة التى تناولتها الإهانة ، ولم يكن هذا بالأمر المتعذر !..
وكان الملازم « براكل » يقضى وقت فراغه كله ــ تقريبا ــ فى
نسج الخيال حول إغراء أخت الملازم « توندر » الشقراء ..
وهى فتاة بدينة كانت تحب أن يكون إغراؤها على ايدى الرجال
الأكبر منه سنا ، إذ انهم ما كانوا يعبثون بشعرها على النحو
الذى يعبث به الملازم براكل !

اما الملازم « توندر » فكان شاعرا ، حزينا ، متشائما ، يحلم
بالحب المثالى الكامل الذى يتدفق من قلوب الشبان المثقفين
إلى الفتيات الفقيرات !.. وكان شابا اسمر اللون ، يفيض
بالعاطفة ، كما كان خصب الخيال ، واسع التجربة . وكان
يتمتم أحيانا بأشعار لا معنى لها ، إلى نساء سمراوات من
نسج خياله .. ويتوق للموت فى ميدان القتال ، ويتخيل والديه
وهما يبكيانه ، وقائده الشجاع وقد استبد به الحزن امام

الشاب وهو يحتضر . وكثيرا ما كان يتخيل مشـهد موته ، فيتمثل الشمس محتقنة اللون غاربة ، تنعكس أشعتها على مهمات عسكرية محطمة ، وقد وقف جنوده حوله سكوتا وقد طأطأوا رؤوسهم .. بل إنه أعـد الكلمات التى يجمل به أن يقولها وهو يحتضر !

* * *

هؤلاء كانوا أركان الحـرب .. يخوض كل منهم غمـار الحرب كأنها لعبة من ألعـاب الصبية . وكان رأى المـاجور « هنتر » فى الحرب أنها عملية حسابية يجب إيجاد حل لهـا ، حتى يستطيع العودة إلى جوار مدفأته . أما رأى الـكابتن « لوفت » فكان يتمثل فى أن الجيش هو المستقبل اللائق بشاب نشأ على أحسن ما يشب عليه الشباب ، فى حين أن الملازمين « براكل » و «توندر» كانا يتصوران الحرب كأنها حلم لا ينطوى على شىء من الحقيقة . ولقد كانت الحرب التى خاضوها حتى اليوم لعبة من اللعب . فالأسلحة بديعة الأشـكال ، والخطة التى أعدوها — ضـد أعداء بلا أسلحة أو خطط — خطـة رائعـة ، ومن ثم لم يهزمـوا فى موقعـة واحـدة ، ولم تنزل بهم إلا خسـائر قليـلة . وكانوا — كأى ناس غيرهم — عرضـة لأن يبـدوا من الجبن أو الشـجاعة ما يقتضـيه الضغط الذى ينصـب عليهم ، فمـا كان بينهم من يعـرف حقيقة الحـرب وكنههـا سوى الكولونيل لانسر . فلقـد قضى « لانسر » فى بلجيكا وفرنسا عشرين عاما ، وحاول ألا يفكر فيما قدر له أن يعرفه من أن الحرب خيانة وحقد ، وأنها

خطط مشوشة لقادة تعوزهم الكفاية ، وعذاب وقتل ومرض وكلال . وإلى أن ينتهى كل هذا — بأن تضع الحرب أوزارها — لا يطرأ على العالم أى تبدل اللهم إلا زيادة التعب وخلق أحقاد جديدة . وكان لانسر يحدث نفسه بأنه جندى صدرت إليـه تعليمات يجب أن يقوم على تنفيذها ، فلم يكن من المفروض أن يناقش هذه التعليمات أو يفكر فيها ، وإنمـا كان عليه أن ينفذها فقط !.. وكان يحـاول أن يطـرد الذكريات المريره التى خلفتها الحرب السابقة ، وهـو موقن فى قرارة نفسـه من أن هـذه الحرب على غرار تلك .. كان يحـاول أن يقنع نفسه خمسين مرة فى اليوم بأن هـذه الحرب ستختلف عن الحرب الأخرى .. كل الاختلاف !

ومن المعتاد فى الطوابير العسكرية ، وفى زحمة الجماهير ، ومباريات كرة القدم ، والحروب ، أن تصبح المعالم مبهمة غير واضحة ، وتغدو الأمور الملموسة سرابا ، فتخيم على العقـل غشاوة تطمس المرئيات . إذ أن التوتر والإثارة والملل والكلال والحركة ... كل هـذه تندمج فى حلم واحـد كبير مشوش غير واضح المعالم . فاذا ما انقضى ، كان من الصعب عليك أن تذكر ماذا كانت عليه الحال عندما قتلت الناس أو أصـدرت الأمر بقتلهم .. فاذا أنبأك الذين لم يحضروا القتال بمـا وقع من أحداث ، قلت وقد التبس عليك الأمر : « أجل ، أعتقد أن هذا هو ما جرى ! » .

وقد شغل أركان الحرب ثلاث غرف فى الطابق الأعلى من قصر العمدة ، فصفوا فى غرفة النوم أسرتهم وبطاطينهم ومهماتهم ،

وجعلوا من الغرفة المجاورة لهاتين الغرفتين — والتى تقع فوق غرفة الاستقبال — ناديا . ولكن أسباب الراحة لم تكن متوفرة فى هذا النادى .. كان ثمة عدد من المقاعد ومنضدة ، وكانوا يكتبون فى هذه الغرفة ويقرأون خطاباتهم ، كما كانوا يتجاذبون أطـراف الحـديث ويحتسـون القهـوة ويضعون الخطط ويستريحون . وقد علقت على الجدران ـ بين النوافذ ـ صور البقـر والبحيرات والبيـوت الريفيـة الصغيرة . وكانـوا يستطيعون أن يشرفوا من النوافذ على البلدة حتى الميناء ، وعلى الأرصفة التى ترسو عندها سفن الشحن ، والأرصفة التى تجنح إليها سفن الفحم لتشحن ثم تقلع إلى عرض البحر. كانوا يستطيعون أن يروا البـلدة الصغيرة وهى تنثنى حـول الميدان حتى تبلغ الميناء ، كمـا كان فى وسـعهم أن يشاهدوا قوارب الصيد وهى راسية فى الخليج وقد طوت قلوعها .. بل لقد كان فى وسعهم أن يشموا رائحة السمك وهو يجفف على الساحل ، إذ كان النسيم يحملها إليهم خلال النافذة .

وكانت فى وسط الغرفة منضدة كبيرة جلس إلى جوارهـا الماجور « هنتر » ، وقد وضع لوحة الرسم الهنـدسى على ركبتيه ، مسندا حافتهـا إلى المنضدة ، وراح يرسم مشروع خط حديدى جديد لتخزين العربات بالمحطة ، مستعينا بالمسطرة « حرف ت » والمثلث . ولكن اللوحة لم تكن ثابتة فى مكانها ، فأخذت تتحرك ، مما أثار غضب الماجور ، فالتفت ونادى قائلا : « براكل ! » ، ثم : « أيها الملازم براكل ! » .

وفتح باب غرفة النوم ، وخرج الملازم وقد غطى معجـون الحلاقة نصف وجهه ، بينما أمسك بالفرشاة فى يده ، وقال :



وفتح باب غرفة النوم ، وخرج الملازم وقد غطى معجون الحلاقة نصف وجهه ، بينما أمسك الفرشاة فى يده

« نعم ؟ » .. فهز الماجور هنتر لوحة الرسم وهو يقول : « الم تأت ركيزة لوحتى مع أمتعتنا ؟ » .. فأجاب براكل بقـوله : « لست أدرى يا سيدى ، فاننى لم أبحث عنها » .

— هلا بحثت عنها الآن ؟ يكفى أننى أحمل نفسى على العمل فى هذا الضوء ، وأننى مضطر إلى رسم هذا المشروع من جديد قبل تحبيره !

واجاب براكل : « سابحث عنهـا بمجرد فراغى من إزالة لحيتى ! » . ولكن هنتر صاح فى غضب : «إن شريط التخزين الذى ارسمه يفوق طلعتك اهميـة .. ابحث تحت الأمتعـة المتراكمة هناك عن حقيبة من المشمع تشبه فى شكلها حقيبة الجولف ! » .

* * *

واختفى « براكل » فى غرفة النوم ، بينما فتح الباب الذى يقـع إلى اليمين ، واقبـل الكابتن « لوفت » ، وهـو يابس خوذته ، ويحمل نظارة الميدان وسلاحا ، وعدة علب جلدية صغيرة إما معلقة فى ذراعيه أو مشدودة إلى عنقه . وما ان دخل حتى أخذ يتخلص من كل ما يحمل من مهمات .

ثم قال : « لا شك أن بنتيك هـذا مجنون ، فقد شاهدته يخرج إلى نوبتـه فى الطرقات بالقبعة الخفيفة التى يرتديها الجنود فى أوقات الراحة ! » .. ووضع نظارة الميـدان على المنضدة ، وخلع خوذته ثم علبة القناع الواقى من الغازات ، فما لبثت المهمـات أن تكدست على المـائدة . وإذ ذاك قال هنتر : « لا تترك هذه المهمات ، فاننى اريد أن أشتغل هنا .

ولم لا يرتدى بنتيك قبعة خفيفة؟ . . إن ارتداءه إياها لم يحدث اى اضطراب ، كما ان هذه الخوذات الفولاذية تضايقنى ، إذ انها ثقيلة وتحول دون الرؤية » .. فأجاب لوفت وهو يتكلف الجد : « إن خلع الخوذات أمر له تأثير سيىء على الناس هنا، فيجب ان نحتفظ بطابعنا العسكرى، وان نكون دائما على اهبة الاستعداد ، والا نتهـاون لحظة .. فاذا لم نفعل ، كنا كمن يدعو إلى إثارة الاضطراب ! » .

وسأله هنتر : « ما الذى يجعلك تعتقد هذا ؟ » .. فشـد لوفت قامته قليلا ، وزم شفتيه كما لو كان واثقا مما يقول . وكان الكل يتوقون إلى ان يفحموا لوفت ـ إن عاجلا أو آجلا ـ لفرط اعتداده بما كان يقول . واجـاب لوفت على سـؤال هنتر بقوله : « إنها ليست مسألة اعتقاد ، وإنما كنت أردد ما ورد فى كتاب « س ــ ١٢ » عن مسلك الجنود فى البـلاد المحتلة ، وهو كتاب بذل فيه كاتبه جهدا مشكورا ! » ، ثم شرع يقول : « يجب عليـك ان ... » ، ولـكنه ما عتم ان قال : « عليكم جميعا ان تقرأوا « س ــ ١٢ » بعناية بالغة » .

فأجابه هنتر بقوله : ترى هل زار مؤلف هذا الكتاب الأراضى المحتلة مرة ؟ إن شعب هذه البلاد شعب هادىء ، ويبدو انه شعب ممتثل طيع يتصـف بالطيبة والصـلاح ! » .. ودخل « براكل » الغرفة ، وما زال نصف وجهـه يغطيه صـابون الحلاقة . وكان يحمل حقيبة كالكيس الطويل ، داكنة اللون. وجاء فى اثره الملازم « توندر » ، فقال براكل يسـأل هنتر : « أهذه هى ؟ » .

— أجل . هل لك أن تفكها وتقيمها على سيقانها !

فانهمك براكل وتوندر فى إخراج الحامل من الحقيبة وإقامته على سيقانه الثلاث . وبعد أن استوثقا من متانته ، وضعاه بجوار هنتر ، وثبت الماجور اللوحة على الحامل ، ثم هزها إلى اليمين وإلى اليسار ، واستقر خلفها آخر الأمر وهو يهمهم ويدمدم .. وإذ ذاك قال الكابتن لوفت : « اتعرف ان الصابون على وجهك أيها الملازم ؟ » . فأجاب براكل قائلا : « نعم يا سيدى ، كنت احلق عندما طلب منى الماجور ان آتى له بالحامل » .. فقال لوفت : « إذن ، يجمل بك ان تزيله .. فقد يراك الكولونيل » .

— إنه لن يهتم للأمر ، فهو لا يأبه بمسائل كهذه !

وكان توندر يقف خلف هنتر يراقبه وهو يرسم . فقال لوفت : « إنه قد لا يحفل بمثل هذه الأمور ، ولكن المنظر لا يسر العين ! » . فأخرج براكل منديلا ومسح ما علق بخده من الصابون ، بينما اشار توندر إلى رسم صغير فى ركن لوحة الماجور ، قائلا : « هذا جسر جميل يا ماجور ، ولكن أين بالله ستقيمه ؟ » .

ونظر هنتر إلى الرسم ، ثم التفت إلى توندر الواقف خلفه ، وقال : « هه ؟ .. ليس هذا جسرا سنقيمه . إن رسم مشروعنا فى اعلى اللوحة ! » .

— إذن ما حاجتك إلى الكوبرى ؟

وبدا شىء من الحيرة على هنتر وهو يجيبه قائلا : « لقد اقمت فى الساحة الخلفية لدارى خطا مثاليا لسكة حديدية ،

وكنت أريد قنطرة على جدول ماء يعترض طريقه ، وقد اتبت بالخط حتى حافة الجدول ، ولكننى لم أتمكن بعد من بناء هذا الجسر فوقه ، ففكرت فى تصميم مشروعه وأنا هنا بعيد عن الوطن » .

واخرج الملازم براكل من جيبه صفحة مطوية مطبوعة بالروتوغرافور ، فنشرها بين يديه واخذ ينظر فيها .. وكانت صورة لفتاة ابرز ما فيها ساقاها وثوبها وأهدابها .. كانت شقراء ناضجة ، ترتدى جوربين اسودين يفضحان ما تحتهما ، وصدارا يكشف عن نحرها. وكانت الشقراء تختلس النظر من فوق مروحة من « الدانتلا » السوداء . ورفع الملازم الصورة وهو يقول : « اليست بديعة ؟ » . فتأمل الملازم توندر الصورة بنظرة الفاحص المدقق ، وقال : « إنها لا تعجبنى » .

— وما الذى لا يعجبك فيها ؟

فأجاب توندر قائلا : « لا تعجبنى وحسب . وما الذى تريده من صورتها ؟ » .. فقال براكل : « أريد صورتها لأنها تعجبنى ، وأراهن أنها تعجبك انت أيضا » .. ولكن توندر قال فى إصرار : « بل هى لا تعجبنى » . فسأله براكل قائلا : « اتعنى أنك لا تواعدها إذا استطعت إلى ذلك سبيلا ؟ » .. فقال توندر : « كلا » .

وإذ ذاك قال براكل : « إنك حقا لمجنون » . ثم سار إلى إحدى الستائر ، وأردف قائلا : « سأعلقها هنا وأتركك تتأملها برهة » . وثبت الصورة بدبوس فى الستارة .

وكان الكابتن لوفت يجمع مهماته بين ذراعيه فى تلك اللحظة ، فقال : « لا أعتقد أن منظرها هنا مما يليق أيها الملازم، فيحسن أن ترفعها ، إذ لن يكون لها تأثير حسن على الشعب هنا ! ».

ورفع هنتر عينيه عن لوحته وسأل : « من تلك التى لن يكون لها تأثير حسن ؟ » ، ثم تتبع عيونهم إلى الصورة وقال : « من هذه ؟ » .. فأجاب براكل : « إنها ممثلة » .. وتأملها هنتر بعناية وسأله : « هل تعرفها ؟ » . فقال توندر : « إنها أفاقة ! » . وهنا قال هنتر : « إذن فأنت تعرفها ؟ » .

وكان براكل يتفرس فى وجه توندر ، فقال : « كيف عرفت أنها أفاقة ؟ » . فأجاب الملازم : « إن مظهرها يدل على أنها أفاقة » .

ــ هل تعرفها ؟

ــ كلا ، ولا أريد أن أعرفها !

وشرع براكل يقول : « إذن كيف عرفت ؟ » ، ولكن لوفت قطع عليه الحديث قائلا : « يحسن بك أن ترفع الصورة من هنا . علقها فوق سريرك إذا شئت ، ولكن هذه الغرفة تعتبر رسمية ! » .

فنظر إليه براكل متمردا .. وكان على وشك الرد عليه عندما قال الكابتن لوفت : « هذا أمر أيها الملازم ! » ، فطوى براكل المسكين ورقته ووضعها فى جيبه ثانية .

* * *

وحاول براكل أن يغير مجرى الحديث ، فقال فى ابتهاج متكلف : « إن فى هذه البلدة فتيات جميلات ، وما أن نستقر وتسير أمورنا على ما نحب حتى أتعرف إلى بعضهن ! » .. فأجابه لوفت قائلا : « يحسن بك أن تقرأ « س ــ ١٢ » ، ففيه فصل يعالج الشئون الجنسية ! » .. ثم خرج يحمل نظارته ومهماته . وكان الملازم توندر ما يزال واقفا خلف الماجور هنتر يشاهد رسمه ، فقال : « من البراعة حقا أن تأتى سيارات الفحم من المناجم إلى السفينة رأسا ! » .

وخفف هنتر من تركيز ذهنه فى عمله رويدا ، ثم قال : « يجب أن نسرع فى إنجاز مهمتنا .. يجب أن ننقل الفحم سريعا ! .. إنها لمهمة كبيرة ، وكم أنا شاكر للناس هنا هدوءهم وتعقلهم ! » .. وكان لوفت قد عاد إلى الغرفة دون مهماته ، ووقف بجوار النافذة يطل على الميناء ومنجم الفحم ، فقال : « إنهم هادئون عاقلون لأننا هادئون عاقلون .. أعتقد أننا نستحق التقدير على هذا ، ولذلك ما فتئت أصر على أهمية المسلك ، وقد عالجه ذلك المؤلف فى كتابه ببراعة » .

وهنا فتح الباب ، ودخل الكولونيل لانسر وهو يخلع معطفه ، فحياه أركان حربه التحية العسكرية .. ولم تكن تحية صارمة عنيفة ، ولكنها كانت كافية .. فقال لانسر : « هل لك يا كابتن لوفت أن تنزل لتحل محل بنتيك ؟ إنه يشعر بتوعك ويقول إنه مصاب بدوار ! » .. فأجاب لوفت : « سمعا وطاعة يا سيدى ، ولكن هل لى أن أذكر لك يا سيدى أننى إنما فرغت من نوبتى توا ؟ » .. وتأمله الكولونيل بنظرة فاحصة

وقال : « ارجو ألا يكون هناك حائل يحول دون ذهابك يا كابتن » .

ـ كلا يا سيدى البتة ، وإنما ذكرت ما ذكرت حتى يدون فى صفحتى !

وتنفس لانسر الصعداء ثم ضحك قائلا : « اتحب ان يذكر اسمك فى التقارير ؟ » . فقال لوفت : « لا بأس من هذا يا سيدى ! » . واستطرد لانسر يقول : « وعندما يتكرر ذكر اسمك بما فيه الكفاية ، سيزدان صدرك بوسام صغير » .

ـ إن الأوسمة معالم الحياة العسكرية يا سيدى .

وتنهد لانسر قائلا : « أجل ، اعتقد هذا ، ولكنها لن تكون المعالم التى تخلد فى ذاكرتك يا كابتن » .. فسأله لوفت مستفسرا : « سيدى ؟ » .

ـ لعلك تدرك ما أعنى .. فيما بعد !

وعاد الكابتن يتزود بمهماته من جديد فى سرعة وعجلة ، وقال : « إننى ذاهب يا سيدى » . ثم خرج . وسمع وقع اقدامه على الدرج الخشبى ، وهو يهبط ، فراقبه براكل فى شىء من المرح ، وقال فى هدوء : « ها هو ذا جندى مطبوع !» . فرفع هنتر عينيه وتلاعب بالقلم الرصاص وهو يقول : « بل حمار مطبوع ! » .

فأجاب لانسر بقوله : « كلا ، إنه جندى يسلك فى الجندية الطريق الذى يسلكه كثيرون من الناس ليصبحوا من الساسة

.. ولن ينقضى وقت طويل حتى يكون عضوا فى هيئة أركان الحرب العليا ، وسينظر إلى الحرب من عل ، وهكذا يحبها دائما » .

وقال الملازم براكل : « متى تنتهى الحرب فيما نحسب يا سيدى ؟ » .

ـ تنتهى ؟ تنتهى ؟ ماذا تعنى ؟

واستطرد الملازم براكل يقول : « متى نحرز النصر ؟ » .. فهز لانسر رأسه قائلا : « لست ادرى ، فما زال العدو على قيد الحياة ! » .. وأردف براكل بقوله : « ولكننا سنوقع به الهزيمة » . فقال لانسر : « حقا ؟ » .

ـ الن نحرز النصر ؟

ـ بل سنحرزه ، فهذا ديدننا على الدوام !

وقال براكل فى لهجة كلها انفعال : « حسنا ، إذا احرزنا النصر فى تاريخ قريب من عيد الميلاد ، افتظن انهم يسمحون لنا ببعض الاجازات ؟ » . فأجاب لانسر قائلا : « لست ادرى ، فان مثل هذه الأوامر يجب أن تصدر من الوطن . اتريد العودة إلى الوطن لقضاء عيد الميلاد ؟» .

ـ إننى لأتوق لهذا بالفعل !

فقال لانسر : « ربما تحقق لك هذا » . وكرر قوله : « ربما تحقق لك هذا » .. فتساءل الملازم نوندر : « هل سننسحب من هذه البلاد يا سيدى بعد أن تضع الحرب أوزارها ؟ » .

وإذ ذاك أجاب الكولونيل قائلا : « لست أدرى ، ولكن غيم هذا السؤال ؟ » .. فقال توندر : « إنها بلاد ظريفة وشعبها شعب ظريف ، بل إن رجالنا ــ أقصد بعضهم ــ قد يفكرون فى الاستقرار هنا ! » .

وسأله لانسر مداعبـا : « لعلك رأيت مكانا أعجبك ؟ » . فأجاب توندر : « ثمة مزارع جميلة هنا ، ولو ان اربعـا او خمسا منها قد ضمت معا لأصبح المكان من احسن الأماكن للاستقرار فيما اعتقد ! » . فسأله لانسر : « الم ترث ارضا عن أسرتك ؟ » .

ــ لم يعد لنا ارض يا سيدى ، فقد ذهب بهـا التضخم النقدى !

وادرك لانسر التعب من محادثة هؤلاء الزمـلاء فقـال : « حسنا ، ما زالت أمامنا حرب نخوض غمارها ، وما زال هناك فحم يجب علينا استخراجه . أتعتقد اننـا نستطيع الانتظار حتى تضع الحرب اوزارها قبل ان نصلح من شـأن هـذه المزارع ؟ إن مثل هذه الأوامر يجب ان تصدر من السـلطات العليا . اسـأل فى ذلك الـكابتن لوفت ، فيحدثك الحديث الوافى ! » . ثم تغيرت ملامحه وقال : « سيصل الفولاذ إلى هنا غدا يا هنتر ، ويمكنك البدء بمد خطوطك الحديدية هـذا الأسبوع ! » .

* * *

وطـرق الباب طارق . ثم أطل راس أحـد الحراس من الباب وقال : إن المستر كوريل يريد مقابلتك يا سيدى » ، فقال الكولونيل : « أدخله ! » .. ثم تحول إلى الآخرين وقال : « إنه الرجل الذى قام بالعمل التمهيدى هنا ، وربما لاقينـا بعض المتاعب منه ! » .

وتساءل توندر : « هل أدى عملا هاما ؟ » . فقال الكولونيل : « اجل ، لقد ادى لنا مهمة كبيرة ، ولهذا لن يكون محبوبا من الشعب هنـا ، ولست أدرى هل سنحبه نحن أم لا ! » .. فقال توندر : « إنه جدير بالتقدير ولا شك » . فقال لانسر : « اجل ، ولكن .. هل تظن أنه لن يطـالب بالجـزاء قبل أن نجزيه من تلقاء أنفسنا ؟ » .

ودخل كوريل وهو يفـرك يديه ، وقد بدت عليـه روح الزمالة والنوايا الطيبـة . وكان ما يزال مرتديا زى رجـال الأعمال الأسود اللون ، وإن بدت حول راسه ضمادة بيضـاء اختلطت اطرافها بشعره ، وقد ثبتت فى وضعها بشريط لصق على شكل الصليب . وتقدم إلى وسط الغرفـة ، ثم قال : « صـباح الخير يا كولونيـل . كان من الواجب ان أزورك امس بعـد الحـوادث التى وقعت ، ولكننى قدرت كثـرة مشاغلك » . فقال الكولونيل : « عم صباحا ! » ، ثم أشار بيده إلى الحاضرين ، وقال : « هؤلاء ضباط هيئة أركان حربى يا مستر كوريل » .. فقال كوريل : « أنهم فتية بارعون ، فقد أدوا مهمة عظيمة ، عملت أنا من ناحيتى على تمهيدها لهم » .

واحنى هنتر راسه على مكتبه ، وتناول قلم حبر غمســه فى المحبره ، ثم بدأ فى تحبير اللوحه التى رسمها .. وقال لانسر لكوريل : « إنك قمت بعمل جليل ، وإن كنت قد تمنيت لو انك لم تقتل اولئك الأشخاص الســتة . ليت جنودهم لم يعودوا إلى البلده . » .. ففتح كوريل يديه وقال باستخفاف : « إن قتل ستة رجال يعد خسارة تافهة بالنسبة لبلدة بهذا الحجم . وفيها منجم للفحم كذلك ! » .. فقال لانسر بحــدة : « لست انكر القتــل إذا كان يؤدى إلى الغاية ، ولكن من الخير احيانا الا نلجأ إليه ! » .

واخذ كوريل يتفحص الضباط ، ثم قال وهو يشير بعينــه إليهم : « هل يمكننا ان نتحدث على حدة يا كولونيل ؟ » . فقال لانسر : « أجل ، إذا كنت تريد ذلك » .. ثم طلب من الملازم «براكل » والملازم « تونْدر » أن يذهبا إلى غرفتهما ، ثم قال لكوريل : « إن الماجور هنتر يعمل الآن ، وهو لا يسمع شيئا حينما يكون منهمكا فى العمل » .

ورفع هنتر راســه عن لوحته ، وابتسم بهدوء ، ثم عاود العمل . بينما ترك الضابطان الشابان الغرفة . فلما بارحاها ، قال لانسر لكوريل : « حسنا ، ها نحن قد خلونا إلى انفسنا ، فتفضل بالجلوس » .

وجلس كوريل إلى المائدة وهو يقول : « شكرا يا سيدى » . فحدق لانسر فى الضمادة التى على راس الرجل ، وقال بفتور : « اتراهم شرعوا فى اغتيالك بهذه السرعة ؟ » .

فتحسس كوريل الضمادة بأصابعه وقال : « أتقصد هذه ؟ آه ، أنها من اثر حجر سقط من ربوة صباح اليوم » .

ــ اواثق انت انه لم يلق عليك عمدا ؟

ــ ماذا تعنى بهذا ؟ .. إن الشعب هنا لا يعرف العنف ، ولم ير حربا منذ مائة عام . وقد نسى القتال وكل ما يتصل به !

ــ إنك عشت بينهم ، فخليق بك ان تكون على معرفة بهم !

ثم اقترب الكولونيل من كوريل وقال : « ولكن ، إذا كنت فى امان حقيقة فلابد ان يكون هذا الشعب مختلفــا عن غيره من شعوب العالم باسره ! إننى لا القى الكلام على عواهنه ، فقد سبق ان اشتركت فى احتلال اقطار ، فذهبت إلى بلجيكا منذ عشرين عاما ، وكذلك فرنسا » .. ثم هز راسه ، وكأنه يريد ان ينزع منه هذه الفكرة . وما لبث ان استطرد يقول : « إنك اديت مهمة طيبة تستحق عليها الشكر ، وقد اشرت إلى عملك فى تقريرى » .

ــ شكرا لك يا سيدى ، لقد بذلت ما فى وسعى .

وقال لانسر بشىء من الملل : « حسنا يا سيدى ، ماذا نفعل الآن ؟ .. هل تريد العودة إلى العاصمة ؟ يمكننــا أن ننقلك بإحــدى سفن نقل الفحم ، إذا كنت فى عجلة من أمرك ، او بمدمرة إذا أردت التريث قليلا ! » .

ــ ولكنى لا أريد العودة ، إذ إنى افضل البقاء هنا .

وفكر لانسر برهــة ثم قال : إنك تعلم أن لنسر تحت

إمرتى جنود كثيرون ، ولهذا لا يمكننى أن أوفر لك الحراسة المناسبة » .

ـ ولكننى لا اريد حرسا ، وقد قلت لك إن الناس هنا لا يعرفون العنف !

فوجه لانسر نظره إلى الضمادة ، كما رفع هنتر راسه وقال : « خير لك ان تضع خوذة على راسك ! » .. ثم عاد إلى عمله !

* * *

وانحنى كوريل قليلا فى مقعده وقال : « لقد اردت ان احدثك يا كولونيل بصفة خاصة ، إذ اظن ان فى وسعى ان اسدى يدا فى الإدارة المدنية » . فدار لانسر على عقبيه ، وسار نحو النافذة وتطلع منها ، ثم عاد وقال بهدوء : « فيم تفكر ؟ » .

ـ لابد ان هناك سلطة مدنية يمكنك إسنادها إلى .. فانى اعتقد ان هذا هو الوقت الذى قد يتخلى فيه العمدة اوردن عن منصبه و .. حسنا !.. إذا توليت انا هذا المنصب ، فسوف يصبح عمل العمدة منسجما كل الانسجام مع الإدارة العسكرية !

وبدا كأن عينى لانسر قد اتسعتا واشتد بريقهما ، ثم تقدم نحو كوريل وقال بحدة : « هل ذكرت هذا فى تقريرك ؟ » .

ـ اجل . لقد ذكرته بطبيعة الحال ، فى تحليلى للموقف !

ـ هل تحدثت مع اى شخص من اهل البلدة منذ وصولنا إليها ؟

ـ لا ، فالناس ما يزالون مشدوهين إلى حد ما ، لأنهم لم يكونوا يتوقعون ما حدث !

وغص حلقه وهو يزدرد لعابه ، ثم تابع حديثه قائلا : « لا يا سيدى ، إنهم قطعا لم يتوقعوا ان تتطور الأحوال بهذا الشكل ! » .

ـ اى أنك لا تعرف فى الواقع ما يدور فى اذهانهم !

ـ إنهم كما قلت مأخوذون .. إنهم .. إنهم فى شبه حلم !

ـ أتراك لا تعرف ما يظنونه فيك ؟

ـ إن لى اصدقاء عديدين هنا . بل إننى اعرف كل الناس !

ـ هل اشترى احد شيئا من متجرك فى هذا الصباح ؟

ـ إن الأعمال راكدة بطبيعة الحال ، وليس هناك من يشترى شيئا !

وخفت حدة لانسر فجأة ، ثم تقدم نحو مقعد وجلس ، ووضع ساقا على ساق . وقال بهدوء : « إن الخدمة التى اديتها هى فى الواقع مهمة شاقة تحتاج إلى الشجاعة ، ويجب ان تكون مكافأتك عظيمة ! » .

ـ شكرا يا سيدى .

ـ ولكنهم سوف يكرهونك على مر الأيام !

ـ استطيع احتمال هذا يا سيدى ، إنهم العدو !

وتردد لانسر برهة طويلة قبل أن يتحدث ثم قال بلطف : « إنك لن تكسب .. حتى احترامنا نحن! » .. فقفز « كوريل » عن مقعده ثائرا ، وقال : « إن هذا يناقض كلمات الزعيم الذى قال إن جميع انواع العمل مشرقة على السواء ! » .. ولكن لانسر قال فى هدوء : « وددت لو أن الزعيم يعرف ، وأن يتمكن من قراءة أفكار الجنود ! » .. ثم أضاف فى لهجة تكاد تكون مقرونة بالعطف : « يجب ان تكافأ مكافاة عظيمة ! » .

وسكت لانسر برهة ، ثم جمع نفسه وقال : « والآن يتعين أن نحدد الأمور .. فأنا المسئول عن كل شىء هنا ، ومهمتى هى استخراج الفحم من المناجم ، ولكى اصل إلى هذه الغاية ، يجب ان أحافظ على الأمن والنظام .. ولكى افعل هذا يجب ان اعرف ما يدور فى عقول هذا الشعب ، ولا معدى لى عن أن أتوقع الثورة .. هل فهمت ؟ » .

— حسنا ، إن فى وسعى ان اهتدى إلى ما تود معرفتـه يا سيدى ، وسوف أكون عظيم النفع كعمدة للبلدة !

فهز لانسر رأسه وقال : « ليس لدى أوامر بهذا الشان ، ولهذا فلا معدى لى عن ان أحكم على الأمور بنفسى ، واعتقد انك سوف لا تعرف بعد الآن شيئا عما يدور فى هذه البلدة ، وأظن انه ما من إنسان سيتحدث معك ، ولن تجد أحدا يقترب منك ، إلا الذين يعيشون على المال .. اى الذين لا يمكنهم ان يعيشوا إلا على المال وحده ! وارى انك ستكون فى خطر كبير إذا تجردت من الحراسـة ، ولسـوف يسرنى أن تعود إلى العاصمة ، لكى تكافأ أيضا على عملك الكبير ! » .

— ولكن مكانى هنا يا سـيدى ، وقـد حددت مركزى ، وكتبت عن كل هذا فى تقريرى !

فاستطرد لانسر يقول وكأنه لم يسمع كلام كوريل : « إن اوردن اكثر من عمدة هنا .. إنه الشعب ! .. وهو يعرف ما يفعله الشعب وما يفكر فيه ، دون أية حاجة للسؤال عن هذا ، لأنه يفكر فيما يفكر فيه هذا الشعب . ويكفى أن أراقبه لأعرف كل شىء عن الشعب ، ولهذا يجب أن يبقى .. هـذا هو رايى ! » .

— إن عملى يا سيدى جدير بما هو خير من الإبعاد .

— إن هذا صحيح فى الواقع ، ولكنك اصبحت اكثر ضررا للعمل الأكبر ، وإذا لم تكن مكروها الآن ، فلن تلبث أن تصبح كذلك ، وستكون اول من يقتل فى اية ثورة صغيرة ، ولهـذا اعتقد أننى سأقترح إعادتك إلى العاصمة !

فقال كوريل بحدة : « ستسمح لى طبعا بانتظار الرد على التقرير الذى أرسلته إلى العاصمة ؟ » .

— سأفعل هذا بطبيعة الحال ، ولكنى سأوصى بإعادتك حرصا على سلامتك . وإذا أردت الصراحة يا مستر كوريل، اقول لكإنه لم تعد لك قيمة هنا ! ولعله منالخير لكان ترحل الآن إلى بلدة أخرى فى قطر آخر، وربما أتيح لك هناك أن تتولى السلطة فى بلدة أكبر، وقد تسند إليك مهمة إدارة مدينة لا بلدة، وتتاح لك مسئولية أكبر ، وسلطة أعظم، وسوف تهيـأ لك

الفرصة لكتسب ثقة جديدة فى ميدان جديد ، وربما تعين على أن اقدم خير توصية بشأنك تقديرا لخدماتك الجليلة التى اديتها هنا !

وشعت عينا كوريل ببريق الامتنان ، وقال : « شكرا لك يا سيدى ، لقد قمت بمجهود شاق ، وقد تكون على حق فى اقوالك ، ولكنى ارجو أن تسمح لى بالبقاء هنا حتى اتلقى ردا من العاصمة ! » .

فقال لانسر فى حزم وقد ضاقت عيناه واخشوشن صوته : « ضع خوذة على راسك ، والتزم دارك ، ولا تخرج فى الليل . ولعل اهم الأمور جميعها هو الا تشرب شيئا من الخمر ، ولا تثق باية امراة او اى رجل . هل فهمت هذا ؟ » .

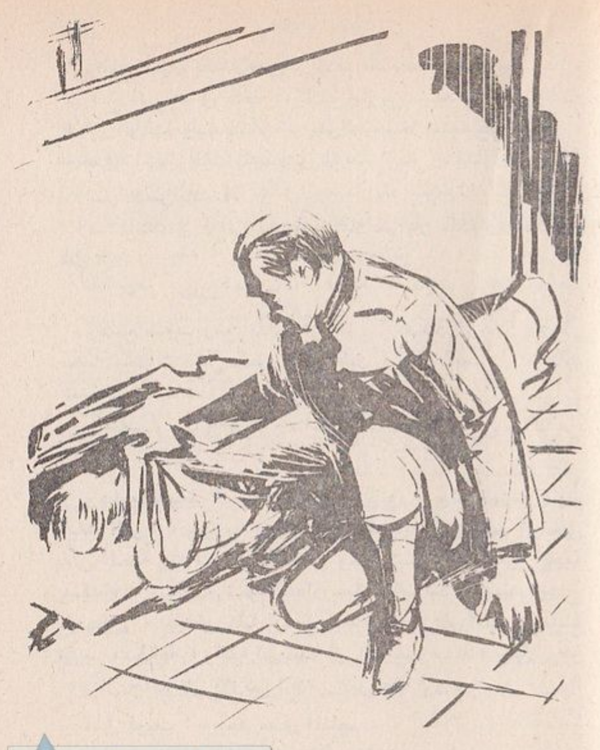
فنظر كوريل إلى الكولونيل مشفقا وقال : لا اخالك تفهم الموقف.. إن لى منزلا صغيرا تخدمنى فيه فتاة قروية لطيفة، اعتقد انها تكن لى شيئا من الود. وهؤلاء الناس قوم مسالمون. وانى لأعرف ذلك ! » .. فقال لانسر : « ليس هناك قوم مسالمون ، فمتى تراك تفهم ذلك ؟.. الا تستطيع ان تدرك أن هذا الشعب ليس صديقا لنا ؟!.. إننا غزونا هذه البلاد ، وقد هيأت لنا انت ذلك بما يعتبرونه غدرا وخيانة ! » .. واحمر وجه لانسر ، وارتفع صوته وهو يقول : « الا يمكنك أن تفهم اننا فى حرب مع هذا الشعب ؟ » .

فقال كوريل بشىء من الاستخذاء : « لقد هزمناه ! » . وإذ ذاك هب الكولونيل واقفا وطوح ذراعيه فى يأس ، فرفع هنتر رأسه عن لوحته ، ووضع يده عليها حتى لا تهتز ، ثم قال :

« مهلا يا سيدى ! إننى احبر الرسم ، ولا أود ان اعيد تحبيره من جديد ! » . فنظر إليه لانسر وقال : « آسف ! » . ثم استطرد وكأنه معلم يلقى درسا على فريق من الطلبة : « إن الهزيمة عرض وقتى لا يدوم ! وقد سبق لنا ان تذوقنا الهزيمة ، وها انتذا تجدنا الآن نغزو .. أعنى أن الهزيمة ليست ذات قيمة . الا تفهم هذا ؟ اتعرف ما يتهامسون به خلف الأبواب الموصدة ؟ » .. فقال كوريل : « او تعرفه أنت ؟ » .

ـــ لا ، ولكنى استطيع التخمين !

فقال كوريل ساخرا : « اتراك خائفا يا كولونيل ؟ هل يخاف قائد الاحتلال ؟ » .. وهنا جلس لانسر وهو يقول : « ربما كان الأمر كذلك ! » .. ثم اضاف قائلا بشىء من الاشمئزاز : « لقد سئمت اولئك الذين لم يسبق لهم ان اشتركوا فى حرب، ويدعون انهم يعرفون كل شىء عنها ! » .. وامسك ذقنه بيده ثم قال : « إننى اتذكر سيدة كانت فى بروكسل .. سيدة ضئيلة الجسم ، متقدمة السن، ذات وجه صبوح وشعر أبيض .. لم يكن طولها يزيد على متر ونصف المتر .. وكانت لها يدان رقيقتان ، تستطيع أن ترى عروقهما بارزة من تحت جلدهما فى لون يكاد يكون أسود !.. وكانت تغطى رأسها الأشيب بوشاح أسود اللون . وقد اعتادت أن تغنى لنا اناشيدنا القومية فى صوت حلو مرتعش ! » .. وأنزل الكولونيل يده من تحت ذقنه ، وخفت صوته وهو يتحدث . فبدا كما لو كان نائما : « ولم نكن نعلم أن لها ابنا نفذ فيه حكم الإعدام .. وقد اضطررنا فى النهاية إلى قتلها رميا بالرصاص،



ركع (لانسر) ورفع طرف البطانية ، ولكنه لم يلبث أن رده بسرعة ..

بعد أن قتلت اثنى عشر جنديا من رجالنا بدبوس طويل من النوع الذى يستخدم فى تثبيت القبعات على الرأس ! وما زلت أحتفظ بهذا الدبوس فى دارى .. إنه طويل مدبب السن ، تعلـوه حلية تشبه الطائر ، ذات لون احمر وأزرق » .

فقال كوريل : « ولكنكم اعدمتموها .. اليس كذلك ؟ » .

— اجل .. لقد اعدمناها رميا بالرصاص طبعا .

فسأله كوريل : « وهل توقفت حوادث الاغتيـال بعـد ذلك ؟ » .

— لا ، لم تتوقف ، وإنما ظلت مستمرة . وعندما انسحبنا عمد الناس إلى عزل المتخلفين من جنودنا ، وأحرقوا بعضهم ، وفقأوا اعين آخرين .. بل إنهم صلبوا بعضا منهم !

فصاح كوريل بصوت عال : « هذه اشياء ينبغى الا تقـال يا سيدى الكولونيل ! » .

— بل إنها أشياء يجب ذكرها !

— ما كان ينبغى أن تتولى القيادة ما دمت خائفا !

فقال لانسر بلطف : « ها انت ذا ترى أننى أعرف كيف أقاتل، وما دام المرء يعرف ذلك فليس له ان يرتكب أخطاء سخيفة !» .

— هل تتحدث بهذا الأسلوب مع صغار ضباطك ؟

فهز رأسه وقال : « لا ، لانهم لن يصدقونى ! » .

— فلم إذن تحدثنى به ؟

— لأن مهمتك قد انتهت يا مسـتر كوريل . وإنى لأذكر انه حدث ذات مرة أن ...

※ ※ ※

وقطع عليه حديثه صوت أقدام تصعد السلم مسرعة ، ثم فتح الباب فى عنف ، وظهر حارس ، اندفع من ورائه الكابتن لوفت بوجه مكتئب فى صرامة الرجل العسكرى وقال : « هناك اضطرابات يا سيدى ! » .

— اضطرابات ؟!

— آسف إذ اراني مضطرا لإبلاغكم بأن الكابتن بنتيك قد قتل !

— آه .. بنتيك !

وسمع صوت وقع اقدام على الدرج ، ثم دخل رجلان يحملان محفة عليها شخص مغطى بالبطاطين ، فقال لانسر : « أمتأكد أنت من انه مات ؟ » .

فاجاب لوفت فى جزم : « اجل يا سيدى ، إننى متأكد من ذلك كل التأكد ! » .

وجاء الضباط الآخرون من غرفة النوم ، وقد ظهرت عليهم آيات الفزع ، ووقفوا مشدوهين ينظرون إلى زميلهم المسجى على المحفة وقد فغروا أفواههم. وقال لانسر : « ضعوا المحفة هناك ! » ، واشار نحو الجدار بجانب النوافذ . وعندما خرج الحمالان — اللذان كانا يرفعان المحفة — ركع لانسر ورفع طرف البطانية ، ولكنه لم يلبث ان رده بسرعة ، وقال وهو ما يزال جاثيا على الأرض : « من فعل هذا ؟ » .

فقال لوفت : « احد عمال المناجم » .

— ولماذا ؟

— لقد كنت هناك يا سيدى وشاهدت الحادث .

— أدل إلى بتقريرك إذن ! قل ما رأيت ! .. ماذا بك يا رجل ؟.. قل وأسرع .. لعنة الله عليك !

فاستجمع لوفت أنفاسه وقال بلهجة رسمية : « لقد ذهبت لأحل محل الكابتن بنتيك كما أمرنى سيدى الكولونيل ، وعندما أوشك الكابتن بنتيك على الرحيل عائدا إلى هنا ، لاقيت بعض المتاعب من عامل عنيد اراد ترك العمل ، وصاح بأقوال معناها أنه رجل حر ، فلما أمرته بمواصلة العمل ، هاجمنى بمعول ، فحاول الكابتن بنتيك التدخل » .. ثم اشار لوفت نحو الجثة، فأحنى لانسر رأسه ببطء وهو ما يزال جاثيا على ركبتيه ، وقال : « لقد كان بنتيك رجلا غريب الأطوار ، وكان يحب الإنجليز وكل ما يمت إليهم بصلة ، ولا أعتقد أنه كان يحب القتال ! .. هل قبضت على الجانى ؟ » .. فقال لوفت : « اجل يا سيدى » . وإذ ذاك نهض لانسر فى تؤدة ، وقال وكأنه يحدث نفسه : « إذن ، فقد تجدد القتال مرة أخرى !.. سنعدم هذا الرجل ، وبهذا نخلق لنا عشرين عدوا جديدا !.. إنه الشيء الوحيد الذى نعرفه .. إنها الوسيلة الوحيدة التى نملكها ! » .

فقال براكل : « ماذا قلت يا سيدى ؟ » .. فأجاب لانسر : « لا شيء .. لا شيء على الاطلاق . إنما كنت أفكر ، وهذا كل ما فى الأمر ! » .. ثم تحول إلى لوفت وقال : « ارجو ان تبلغ العمدة أوردن تحياتى ، وتطلب إليه أن يأتى لمقابلتى فى الحال لأمر غاية فى الأهمية » .

ورفع هنتر رأسه ، ثم جفف قلمه بدقة وتؤدة ، ووضعه فى علبة مكسوة بالمخمل .

الفصل الثالث

كان النـاس يمشون فى شوارع البـلدة وعلى ملامحهم امارات الكآبة والعبوس ، وقـد اختفى من أعينهم بعض بريق الدهشة التى اعترتهم عندما باغتهم العدو بغزو بلدتهم . على أن لهيب الغضب حل محل الدهشة .. فكان العمال فى منجم الفحم يدفعون العربات أمامهم وقد تجهمت أسـاريرهم .. بينما وقف صغار التجار وراء مناضد البيع فى متاجرهم متأهبين لخدمة العملاء ، دون أن يسعى إليهم أحد .. كان كل إنسان يفكر فى الحرب ، ويفكر فى نفسه ، ويفكر فى المـاضى الذى تغير فجأة !

وفى قاعة الاستقبال بدار العمـدة اوردن ، كانت الأنوار مضاءة ، والنار مشتعلة للتدفئة ، بينمـا كان الجو فى الخارج مظلما شيئا ما ، ومثقلا بالرطوبة . وكانت القاعة نفسها قد تعرضت لبعض التغيير ، فاذا المقاعـد المكسـوة بالقماش المزركش قد دفعت إلى الوراء — لصق الجدران — وأزيحت الموائد الصغيرة من وسط الغرفة .. وعند الباب ظهر جوزيف وآنى وهما يناضلان فى إدخال مائدة كبيرة مربعة ، أمالاها على أحد جوانبها .. وكان جوزيف قد دخل القاعة ، بينما ظلت آنى — بوجهها الأحمر — خارجها .. واخذ جوزيف يحاول جاهدا أن يدخل سيقان المـائدة خلال الباب .

وكانت آنى غاضبة .. بل إنهـا كانت تبدو على الدوام غاضبة ، فلم يتحسن طبعها برغم وجود الجنود ، واحتـلال

البلدة .. فان هذا المظهر — الذى ظل أعواما يعد من العيوب والنقائص — أصبح الآن عاطفة وطنيـة ، أكسبت آنى بعض الشهرة فى الناحية القومية ، لا سيما بعد أن قذفت جنـود الاحتلال بالماء الساخن . وكانت فى الواقع خليقة بأن تلقى بهذا المـاء الساخن فى وجه اى شخص يقترب من مطبخهـا — فى الأوقات العادية — ولكنها مع هذا أصبحت بطلة ! ولما كان الغضب بداية نجاحها ، فقد مضت تزيد من مظاهر غضبها ، حتى اصبح هذا الغضب طابعها الدائم . وبهذا أخذت تخرج من نجاح لتدخل فى آخر . وقال جوزيف عندما حشرت المـائدة فى المدخل : « لا تدفعى .. تمهلى قليلا ! » .

— إننى متمهلة !

وترك جوزيف المـائدة ووقف بعيدا يدرس وضعها ، بينما وقفت آنى مكتوفة اليدين تنظر إليه فى غضـب . ثم أمسـك جوزيف بساق المـائدة ، وقال : « لا تدفعيها !.. لا تدفعيها بشدة » . وبشىء من الجهد تمكن بمفرده من إدخال المـائدة ، فتبعته آنى مكتوفة الذراعين ، حتى إذا صـارت المـائدة فى داخل الغرفة ، طلب إلى آنى أن تسـاعده فى إقامتهـا على سيقانها ونقلها إلى منتصف القـاعة ، فقالت آنى : « لو أن صاحب السعادة العمدة لم يأمرنى لما فعلت ما فعلت الآن ! أى حق لهم فى نقل الموائد ؟ » .. فقال جوزيف : « وبأى حق جاءوا إلى هنا ؟ » .

— لا حق لهم على الاطلاق !



ــ اجل ، لا حق لهم ، ولكنهم يفعلون هذا بفضل مدافعهم ومظلاتهم يا آنى !

ــ ليس لهم اى حق فى كل هذا . ولكن ماذا يريدون مع هذا من نقل مائدة إلى هنا ؟.. إن هذه ليست قاعة طعام !

ونقل جوزيف مقعدا إلى جوار المـائدة ، ثم وضعه بدقـة كبيرة فى الوضع المناسب ، وقال : « إنهم سيعقدون محاكمة، وسيحاكمون الكسندر موردن » .

ــ زوج مولى موردن ؟

ــ اجل ، زوج مولى موردن !

ــ الأنه ضرب ذلك المخلوق بالمعول ؟

ــ اجل !

ــ ولكنه رجل لطيف ، ولا حق لهم فى محاكمته !.. لقـد اهدى مولى ثوبا جميلا احمر اللون فى عيد ميلادها . قل لى ، باى حق يحاكمون الكسندر ؟

ــ لانه قتل ذلك الشخص .

ــ وهب انه فعل ذلك ، فاى وزر فى الأمر ؟.. لقـد كان ذلك المخلوق يصدر الأوامر لالكسندر بان يعمل هذا وذاك . والكسندر لا يحب ان يتلقى اوامر من احد .. فقد كان يوما ما « شيخ » البلدة ، وكذلك كان والده !.. وإن مولى موردن لتجيد صنع الفطائر اللذيذة ، وإن كانت حلاوتهـا تزيد على المالوف !.. وماذا تراهم سيفعلون بالكسندر ؟

ــ سيعدمونه رميا بالرصاص !

ــ إنهم لا يستطيعون ان يفعلوا ذلك !

ــ احضرى المقاعد يا آنى . ان فى إمكانهم أن يفعلوا ذلك، وسيفعلونه !

فلوحت آنى بأصبعها فى وجهه بعنف وهى تقول فى غضب : « تذكر كلماتى هذه ! إن الناس لن يرضوا بأن يصاب الكسندر باذى ، لانهم يحبون الكسندر ! هل سـبق له ان مس احدا باذى ؟.. اجب عن هذا ! » .

ــ لا ، لم يسبق له ان فعل شيئا كهذا !

ــ إذن فالأمر واضـح .. وإذا هم قتلوا الكسندر ، فسوف يجن الناس ، وسأجن انا ايضـا ، ولن اوافق على هذا ، ولن احتمله !

ــ وماذا ستفعلين ؟

ــ ماذا ؟ سأقتل بعضهم بنفسى !

ــ وعندئذ يعدمونك !

ــ ليفعلوا ذلك!.. اسمع يا جوزيف ، إن الأمور قد تتطور وتذهب إلى مدى بعيد .. ألا يكفيهم ان يذرعوا الشوارع فى جميع ساعات الليل وهم يقتلون الناس ؟!

ووضع جوزيف مقعدا عند راس المـائدة ، ثم تغيرت حاله نجأة ، فبدا كمن يضمر سرا خطيرا .. إذ نادى آنى بصوت يقرب من الهمس ، فتريثت قليلا ، وقد اوجست من لهجته ، ثم اقتربت ، فسألها : « هل تصونين سرا ؟ » . فحدجته بشىء من العجب ، إذ انها ما عرفته يوما يحتفظ بسر ، وقالت : « اجل . فما هو هذا السر ؟ » .

ــ لقد هرب وليم ديل ووالتر دوجل فى الليلة الماضية !

ــ هربا ؟ إلى أين ؟

ــ سافرا إلى إنجلترا فى سفينة !

وزفرت آنى بسرور وسألته : « وهل يعرف الجميع هذا ؟ » .

ــ لا ، ليس كل الناس .. أو على الأصح الجميع يعرفونه ما عدا .. وأشار بأصبعه إلى الطابق العلوى ، فقالت آنى : « ومتى سافرا ؟ ولماذا لم أسمع أنا عن هذا ؟ » .

ــ لقد كنت مشغولة .. هل تعرفين ذلك الشخص : كوريل ؟

ــ أجل ..

فاقترب منها جوزيف وقال : « ما أظنه سيعيش طويلا ! » .

ــ ماذا تعنى ؟

ــ الجميع يقولون ذلك !

فتنهدت آنى مغتبطة وقالت : « آه .. ها ! » .. وما لبث جوزيف أن عاد يقول مبديا رأيه : «إن الناس أخذوا يتقاربون . نهم لا يقبلون الهزيمة ، وسوف تقع أمور .. فافتحى عينيك يا آنى ، إذ أنك لن تلبثى أن تجدى أمورا كثيرة فى وسعك أن تؤديها ! » .

ــ وما موقف سعادة العمدة ؟ ماذا تراه فاعلا ؟

ــ لا أحد يعرف ، فهو لا يقول شيئا .

ــ لا يمكن أن يكون مناهضا لنا !

ــ إنه لم يقل شيئا من هذا .

ودار مقبض الباب القائم إلى اليسار ، ثم انفتح الباب ودخل العمدة أوردن وهو يسير بتؤدة ، وقد ظهرت عليه علامات التعب وكبر السن . ودخل وراءه الدكتور وينتر ، فقال أوردن : « هذا تنظيم حسن يا جوزيف .. أشكرك يا آنى .. إن المنظر عامة يبدو على خير ما يرام ! » .. وخرج الخادمان ، حتى إذا أصبحا خارج الغرفة ، استدار جوزيف ونظر خلال بابها برهة قبل أن يغلقه .

* * *

وسار العمدة أوردن إلى المدفأة ، فوقف وظهره إليها ، بينما سحب الدكتور وينتر المقعد الموضوع عند رأس المائدة وجلس عليه . وما لبث أوردن أن قال : « لست أدرى إلى متى يطول بقائى فى هذا المنصب ؟.. إن الشعب لا يثق بى تماما .. وهذه أيضا حال العدو . ولست أدرى إن كان فى هذا أى خير ! » .. فقال وينتر : « ولا أنا أدرى . ولكنك تثق بنفسك .. أليس كذلك ؟.. إنك لا تشعر بأى قلق إزاء مسلكك؟!» .

ــ قلق ؟ لا . إننى العمدة ، ولكنى مع هذا لا أفهم أمورا عديدة .. فلست أعرف مثلا لماذا يعقدون المحاكمة هنا ؟.. إنهم سيحاكمون ألسكندر موردن هنا بتهمة القتل .. هل تتذكر موردن ؟ .. إنه زوج تلك الفتاة الرقيقة مولى !

ــ إننى أذكرها ، فهى الفتاة التى كانت تتولى تدريس قواعد اللغة فى المدرسة . أجل إننى أذكرها جيدا ، فهى جميلة وتكره أن تضع « النظارة » على عينيها حينما تنظر إلى

استعمالها !.. أظن أن الكسندر قتل ضابطا .. حسنا ، ولكنهم لم يجروا أى تحقيق معه !

فقال أوردن بمرارة : « لم يحقق معه احد . ولكن لماذا يحاكمونه ؟ لماذا لم يعدموه رميا بالرصاص ؟ إنها ليست مسألة شك او يقين ، ولا ظلم أو عدل .. لا ، ليس الأمر كذلك هنا ، فلماذا يصرون على أن يحاكموه ، وان يحاكموه هنا فى دارى بالذات ؟ » .

ــ اظن أن الغرض هو المظهر فقط ، واعتقد أن لهم هدفا من وراء ذلك . إنك إذا بحثت فى الموضوع من الناحية الشكلية عرفت السر .. والناس يقتنعون أحيانا بالشكليات . لقد كان لدينا جيش ــ أعنى جنودا مزودين بالبنادق ــ ولكنه لم يكن جيشا بالمعنى الحقيقى ، وإنما كان مظهرا للجيش .. كذلك سيقيم الغزاة محاكمة على أمل ان يقتنعوا الناس بأنهم أمناء على العدالة .. وإنك لتعلم ان الكسندر قتل الكابتن !

ــ اجل .. إننى اعرف ذلك .

فاستطرد الدكتور وينتر قائلا : « فماذا تم ذلك فى منزلك الذى ينتظر الناس منه العدالة .. » .

وقطع حديثه ، إذ فتح الباب القائم إلى اليمين ، وولجت سيدة شابة فى نحو الثلاثين من العمر ، جميلة الطلعة ، تمسك « نظارة » فى يدها . وكان زيها بسيطا ونظيفا .. أما هى فكانت منفعلة ، مهتاجة ، بادرت إلى الحديث فى لهجة سريعة ، قائلة : « لقد ابلغتنى آنى أن فى استطاعتى الدخول رأسا يا سيدى ! » .. فقال العمدة : « لابد أنك مولى موردن ؟ » .

ــ اجل يا سيدى ، انا مولى . انهم يقولون إن الكسندر سيحاكم ويعدم !

فأحنى « أوردن » رأسه ، وثبت نظره فى الأرض برهة ، بينما تابعت مولى حديثها قائلة : « إنهم يقولون إنك انت الذى سيصدر الحكم عليه ، وأن كلماتك هى التى ستقضى عليه ! » .. فأجفل أوردن ، ورفع رأسه قائلا : ما هذا ؟.. من يقول هذا ؟ » .

ــ الناس فى البلدة !

وانتصبت قامتها ، وهى تتساءل فى رجاء مقترن بالحزم : « إنك لن تفعل هذا !.. أليس كذلك يا سيدى ؟ » .

وقال الدكتور وينتر : « إنه لسر عظيم !.. إنه سر حير الحكام فى جميع ربوع العالم .. الا وهو : كيف يعرف الناس خوافى الأمور .. وهذا ما يحير الغزاة الآن ، كما قيل لى . فقد اصبحوا لا يدرون كيف تتسرب الأنباء برغم الرقابة ، وكيف تشق حقائق الأشياء طريقها إلى الناس برغم كل شىء .. إنه لسر عظيم فى الواقع ! » .

ورفعت الفتاة نظرها وقد بدت مذعورة ــ إذ ساد الظلام القاعة فجأة ــ وقالت : « إنها سحابة .. سحابة تنذر بسقوط الجليد ، وإن كان موعده ما يزال مبكرا » .. فسار الدكتور وينتر نحو النافذة ، وتطلع إلى السماء ثم قال : « إنها سحابة كبيرة ، ولعلها تمر بسلام ! » .. واضاء العمدة أوردن مصباحا كهربائيا ، ولكن ضوءه لم يقو على الظلام ، فأطفأه مرة أخرى وقال : « إن الاضاءة فى النهار تشيع الوحشة ! » .

واقتربت مولى منه وقالت : « إن الكسندر لم يقصد اغتيال ذلك الرجل ، وإنما هو شخص حاد الطباع فقط ، ومع هذا لم يسبق له ان خرق القانون . إنه رجل محترم ! » .. فألقى اوردن يده على كتفها وقال : « إننى عرفت الكسندر مذ كان صبيا صغيرا ، وكنت أعرف والده وجده ؛ فقد كان جده يصيد الدببة فى الزمن الغابر . هل تعرفين ذلك ؟ ».

فتجاهلت مولى سؤاله هذا وقالت : « إذن فانت لن تحكم على الكسندر ؟ » .

ـ لا . كيف أستطيع الحكم عليه ؟!

ـ إن الناس يقولون إنك ستفعل هذا لمصلحة الأمن !

فوقف أوردن خلف احد المقاعد وامسك ظهره بيديه وقال : « هل يرغب الناس فى الأمن يا مولى ؟ » .

ـ لست اعلم .. إنهم يريدون الحرية !

ـ حسنا ، وهل يعرفون كيف يصلون إليها ؟.. هل يعرفون الوسيلة التى يستخدمونها ضد عدو مسلح ؟

ـ لا . لا اعتقد هذا !

ـ إنك فتاة ذكية يا مولى . اتعرفين ذلك ؟

ـ لا يا سيدى ، ولكننى أعتقد ان الناس يشعرون بأنهم سيغلبون على أمرهم إذا ظلوا متراخين ، وهم يريدون أن يظهروا لهؤلاء الجنود أنهم لا يغلبون على أمرهم !

وقال الدكتور وينتر : « إن الفرصة لم تسنح لهم كى

يقاتلوا .. وما كان قتالا أن يقفوا أمام المدافع الرشاشة » ، بينما قال اوردن : « عندما يتاح لك أن تعرفى ما يريدون عمله ، فهل تخبرينني به يا مولى ؟ » .. فتطلعت إليه الفتاة مرتابة ، وقالت : « نعم ! » .

ـ بل أنت تعنين لا .. لأنك لا تثقين بى !

ـ ولكن ما الذى سيحدث لالكسندر ؟

ـ لن أحكم عليه ، لأنه لم يرتكب جريمة ضد شعبنا !

وظهر التردد على مولى ، ثم قالت : « هل .. هل سيقتلون الكسندر ؟ » .. فرمقها اوردن متأثرا وقال : « يا طفلتى العزيزة ! يا لك من طفلة ! » .. فشدت قامتها منتصبة وقالت : « شكرا » .. واقترب اوردن منها ، فقالت فى ضعف : « لا تمسنى .. ارجوك ، لا تلمسنى ! » .. فسقطت يده إلى جواره .

ووقفت الفتاة برهة جامدة كالتمثال ، ثم استدارت بعنف واتجهت نحو الباب وخرجت . وما ان اغلقت الباب ، حتى فتح ثانية ، واقبل جوزيف قائلا : « معذرة يا سيدى .. إن الكولونيل يريد ان يقابلك . لقد قلت له إنك مشغول ، لأننى عرفت أنها كانت هنا .. وسيدتى أيضا تريد مقابلتك » .

ـ فلتدخل زوجتى .

فخرج جوزيف . واقبلت زوجة العمدة على الفور وأنشأت تقول : « إننى لا أعرف كيف سادير البيت ، فان فيه عددا من الناس فوق ما يحتمل ، وآنى تبدو غاضبة طول الوقت » ..

ولكن أوردن هتف بها : « صه ! » ، فتطلعت إليه فى دهشة وقالت : « لا أعرف ماذا ... » .

— صه ! أريد منك يا سارة أن تذهبى إلى دار الكسندر موردن .. هل تفهمين ؟.. أريد منك أن تبقى مع مولى موردن طالما كانت بحاجة إليك .. لا تتحدثى ، وإنما ابقى معها فقط !

فقالت الزوجة : « إن لدى مئات من المهام .. » .

— بل أريد منك يا سارة أن تبقى مع مولى موردن ولا تتركيها بمفردها .. واذهبى الآن !

وبدأت تفهم الموقف ، فقالت : « حسنا .. أجل ، سأذهب .. متى ستنتهى هذه المسألة ؟ » .

— لا أعلم ، وسوف أرسل لك آنى عندما يحين الوقت .

فطبعت على خده قبلة وخرجت . وإذ ذاك مشى أوردن إلى الباب ونادى جوزيف ، وقال له : «إنى مستعد الآن لمقابلة الكولونيل » .

* * *

واقبل لانسر وقد ارتدى زيا جديدا ، وتدلت من حزامه مدية صغيرة مزدانة بالنقوش . وعندما راى أوردن قال : « صباح الخير يا سيدى . هل يمكننى ان اتحدث إليك حديثا غير رسمى ؟ » .. ووجه نظره نحو الدكتور وينتر ثم أضاف : « إننى أود ان اتحدث معك على انفراد » .

فسار وينتر متجها نحو الباب ، فما ان بلغه ، حتى ناداه أوردن وقال له : « هل ستحضر هذا المساء ؟ » .

— وهل لديك عمل لى ؟

— لا ، لا .. إنما أود الا أكون وحيدا !

— إذن فسأحضر !

— بهذه المناسبة يا دكتور .. هل تظن ان مولى بخير ؟

— أعتقد ذلك ، وإن كانت حالتها قريبة من « الهستريا » ، ولكنها من سلالة قوية ، إذ انها تنحدر من أسرة كندرلى كما تعرف .

— آه . لقد نسيت ذلك . أجل ، إنها من صلب كندرلى ، أليس كذلك ؟

وخرج الدكتور وينتر واغلق الباب وراءه بلطف . وكان لانسر يقف متريثا فى أدب ، ثم أخذ يراقب الباب وهو يغلق ، والقى نظرة على المائدة والمقاعد المحيطة بها ، وقال : « لا أستطيع يا سيدى أن ابلغك مدى أسفى لهذا الأمر ، وكنت اتمنى الا يحدث » . فانحنى أوردن ، بينما استأنف لانسر حديثه قائلا : « إننى أحبك يا سيدى وأحترمك ، ولكن لدى مهمة لابد من ان اؤديها ، وأنت بالتأكيد تقدر ذلك » .

ولم يجب أوردن ، وإنما أخذ ينظر إلى عينى لانسر ويتفحصهما . واستطرد هذا قائلا : « إننا لا نعمل من تلقاء انفسنا ! » .. وكان لانسر يتوقف بين كل عبارة مترقبا ردا ، ولكنه لم يظفر بهذا الرد ، فاسترسل يقول : « إن هناك نظما وضعت لنا ، ويتعين علينا اتباعها . إنها نظم وضعت فى العاصمة .. إنك لتعرف أن هذا الرجل قتل ضابطا » .

وأخيرا جاء رد أوردن ، إذ قال : « فلمـــاذا لم تعدموه إذ ذاك .. لقد كان الوقت مناسبا لذلك ! » .. فهز لانسر راسه وقال : « لن يغير من الموقف شيئا ان أوافقك على رايك .. ولكنك تعرف مثلما اعرف أنا ان المقصود من العقاب هو ردع الناس ومنعهم عن اقتراف جرائم أخـــرى . وما دام الفرض من العقوبة هو زجر الآخرين ، لذلك وجب ان تكون علنية ، بل يجب ايضا أن تتخذ مظهرا يؤثر على النفوس ! » .

ووضع اصبعه فى حزامه ، واخذ يعبث بمديته ، فاستدار أوردن واتجه إلى النافذة ، واخـــذ يطل منهــا ، ويتطلع إلى السماء المظلمة ، ثم قال : « لسوف يتساقط الجليد الليلة » .

— أنت تعلم يا مستر أوردن أن أوامرنا قاسية ، لا هوادة فيها ، إذا لا بد لنا من أن نحصل على الفحم ، فاذا لم يحافظ شعبكم على النظام ويخضع للأوامر ، تحتم علينا ان نعيــد النظام بالقوة !

واشتد صوته وهو يقول : « ســنضطر إلى قتل النـــاس إذا اقتضانا الأمر .. فاذا شئت إنقاذ شعبك من الأذى ، وجب عليك ان تساعدنا فى حفظ الأمن ، وقد رأت حكومتى انه من الحكمة ان تصدر العقوبة من سلطة محلية ، لأن هذا يساعد على استقرار الأمن ! » .

فقال أوردن بصوت خافت : « إذن فالناس يعرفون !.. إن هذا أيضا سر من الأسرار ! » ، ثم ارتفع صوته قليلا وهو يقول : « اتريد منى ان اصـــدر حكما بالاعدام على ألكســندر موردن بعد محاكمته هنا ؟! » .

— أجل ، وبذلك تحقن دماء كثيرة قد تراق فى المستقبل .

* * *

واتجه اوردن إلى المـــائدة ، فسحب المقعد الكبير الموضوع عند رأسها وجلس عليه . وظهر فجاة بمظهر القاضى ، بينما كان لانسر يقف أمامه وكأنه المتهم ! واخذ العمـــدة ينقر على المائدة بأصابعه وهو يقول : « إنك وحكومتك لا تفهمان الناس .. إن حكومتك وشعبك هما الوحيدان فى العالم اللذان ظـــلا قرونا يمنيان بهزيمة بعد أخرى ، لأنكم لا تفهمون النـــاس ! » .. وتريث أوردن قليلا ثم تابع كلامه قائلا :

— أن هذا المبدا الذى تشير به ليس عمليا ، لأنى (أولا) عمدة ، فليس من حقى ان اصدر حكما بالإعدام ، وليس بين هذا الشعب من له هذا الحق ، ولــو أننى اصدرت حكمـــا بالإعدام لخرقت القانون كما تخرقه أنت !

— أخرق القانون ؟

— إنكم قتلتم ستة اشخاص عندما جئتم إلى هنا، وقانونكم يدينكم جميعا بالقتل !.. ولكن لمـــاذا ندخل فى حديث سخيف عن القانون يا كولونيل ؟.. ليس هناك قانون بيننا وبينـــكم ! إنها الحرب ! الا تعلم انــكم ستضطرون إلى قتلنـــا جميعا ، وإلا قتلناكم نحن فى الوقت المناسب ؟!.. إنكم قضيتم على القانون بدخولكم بلدتنا .. وقد حل محله الآن قانون آخر .. ألا تعرف ذلك ؟

فقال لانسر : « اتسمح لى بالجلوس ؟ » .



— ولماذا تسألنى ؟.. انها أكذوبة أخرى .. ففى إمكانك ان تجعلنى انهض عن هذا المقعد ، إذا انت شئت !

— لا .. إننى فى الواقع، سواء صدقت ذلك أو لم تصدقه، احترمك واحترم منصبك !

ووضع جبينه على يده برهة ثم قال : « ها أنت ذا ترى نوع تفكيرى .. إننى يا سيدى شخص فى سن معينة ، وله ذكريات معينة ، ولكن تفكيرى هذا ليس ذا قيمة . ربما اتفقت معك فى الراى ، ولكن هذا لا يغير من الأمر شيئا. إن للطراز العسكرى والسياسى الذى اعمل به اتجاهات وقواعد لا تتغير ! » .

— وقد ثبت خطأ هذه الاتجاهات والقواعد فى كل حالة فردية منذ بدء الخليقة !

فضحك لانسر بمرارة وقال : « اننى كفرد لى ذكريات معينة .. فقد اتفق معك فى الراى ، بل قد اضيف إلى رايك هذا القول : إن احد اتجاهات العقلية والطراز العسكريين هو انعدام القدرة على التعلم ، والعجز عن إدراك شئ غير القتل .. فهذه مهمة العقلية العسكرية .. ولكنى لست عبدا للذكريات !.. يجب إعدام عامل المنجم علنا ، لأن النظرية تقضى بأن الآخرين سيكفون عندئذ عن قتل جنودنا ؟ » .

فقال أوردن : « إذن ، فليست بنا حاجة إلى مزيد من الحديث فى هذا الأمر » .

— لا ، بل يجب ان نتكلم .. نريد منك ان تساعدنا ..

فجلس أوردن فى هدوء ، واخلد إلى الصمت برهة ، ثم قال : « سأرصاحك بما سوف افعله .. كم جنديا كانوا يطلقون المدافع الرشاشة التى قتلت جنودنا ؟ » .

— لم يكونوا اكثر من عشرين على ما اظن !

— حسنا ، إذا انت أعدمتهم ، فاننى سأحكم على موردن!

— ما اظنك جادا فى ذلك ؟

— بل إننى جاد كل الجد !

— هذا ما لا يمكن عمله كما تعلم ..

— إننى اعرف ذلك ، ولكن ما تطلبه منى لا يمكن تنفيذه .

فقال لانسر : « أعتقد اننى فهمت الآن » والظاهر ان كوريل سيصبح عمدة برغم كل شئ ! » .. ثم رفع راسه بسرعة وقال : « هل ستحضر المحاكمة ؟ » .

— أجل . إنها المهمة الوحيدة المستحيل اداؤها فى هذه .

ونظر لانسر إليه فى ابتسامة حزينة وقال : « أرانا قد أخذنا على عاتقنا مهمة عسيرة .. أليس كذلك ؟ » .

— اجل . إنها المهمة الوحيدة المستحيل اداؤها فى هذه الدنيا .. الشئ الوحيد الذى لا يمكن عمله !

— وما هى تلك المهمة ؟

— محاولة القضاء على روح الإنسان ومعنوياته إلى الأبد !

واحنى أوردن راسه قليلا على المائدة ، وقال دون ان يرفع بصره : « لقد بدأ الجليد يتساقط دون ان ينتظر هبوط الليل .. وإنى لأحب رائحة الجليد الحلوة الباردة ! » .

الفصل الرابع

وما ان حانت الســاعة الحــادية عشرة حتى كان الجليد يسقط بغزارة وفى ندف كبيرة رخوة ، وتعذرت رؤية السماء تماما . وأخذ الناس يسرعون الخطى وسط الجليد المتساقط . وتكدس الجليد فى مداخل الأبواب ، وعلى التمثال المقــام فى الميدان العام ، وعلى الخطوط الحديدية الممتدة من المنجم إلى الميناء . . وكذلك تكدس الجليد فأخذت العربات الصغيرة تنزلق عليه وهى تدفع باليد . وخيمت على المدينة ظلمة أشــد حلكة من الغيوم نفسها ، وغشيت المدينة كآبة شديدة وضغينــة اخذت تزداد تأججا واضطراما . ولم يكن الناس يمكثون فى الشوارع طويلا ، بل يدلفــون من الابــواب ، ثم توصــد الأبواب خلفهم . وكان يبدو ان ثمة عيونا ترقب ما يجرى من وراء الستائر . وعندما كان العسكريون يمرون فى الطريق ، او عندما كانت « الداورية » تجتاز الشارع الرئيسى ، كانت العيون التى تتطلع إلى تلك « الداورية » عيونا باردة غشيتها الكآبة والحزن . وكان الناس يؤمون المتاجر يشترون منهــا الأشياء الصغيرة اللازمة لغذائهم ، كما كانوا يطلبون السلع فيحصلون عليها ويدفعون ثمنها دون ان يبادلوا البائع تحية الصباح .

وكانت الانوار مضاءة فى غرفة الاستقبال بالقصر الصغير ، وقد اخذت تنعكس على الجليد المتساقط خارج النــافذة . . وكانت المحكمة منعقدة ! . . وجلس لانسر على راس المائدة ،

وإلى يمينه هنتر ، ثم توندر ، وفى الطرف البعيد جلس الكابتن « لوفت » وأمامه رزمة صغيرة من الاوراق ، بينما جلس العمدة « أوردن » إلى يسار الكولونيل فى الناحية المقابلة ، وإلى جواره براكل . . براكل الذى كان منهمكا فى الكتــابة فى دفتــر كان أمامه . ووقف إلى جوار المــائدة حارســان ثبت كل منهما « سنكيا » فى بندقيته ، ووضع الخوذة على راسه ، فــكانا كتمثالين صغيرين من الخشب . . وكان يقف بينهما « الكس موردن » ، وهو شاب ضخم له جبهة عريضة منخفضة وعينان غائرتان وأنف طويل حاد وذقن تنبىء بقوة العزم وفم عريض ينطق بالشهوة . . وكان عريض المنكبين صغير الردفين ، وقد أخذ يقبض يديه — المكبلتين بالحديد والمبســوطتين أمــامه — ويبسطهما ، وكان يرتدى بنطلونا أسود وقميصا أزرق فتح صدره ، وسترة سوداء لمعت من كثرة ما ارتداها !

وشرع الكابتن لوفت يقــرأ من الورقة التى أمامه : « . . وعندما صدر إليه الأمر بالعودة إلى العمل ، رفض الاذعان ، فلما تكرر صدور الأمر إليه ، هاجم الكابتن لوفت بالمعول الذى كان يحمله ، فتعرض له الكابتن بنتيك بجسمه . . . » .

وسعل العمدة أوردن ، فلما توقف لوفت عن القراءة ، قال العمدة : « اجلس يا ألكس . فليأت أحدكما أيهــا الحارسان بمقعد له » ، فالتفت الحارس وجذب إليه مقعدا دون مناقشة .

وقال لوفت : « من المعتاد أن يقف السجين » .

فأجابه العمدة قائلا : « دعه يجلس ، ولن يعرف هذا إلا نحن ، واكتب انه كان واقفا ! » .



فقال لوفت : « ليس من المعتاد ان نزور التقارير » .

فكرر اوردن قوله « اجلس يا الكس » .

وجلس الشاب الكبير . وراحت يداه المصفدتان بالأغلال تتحركان فى قلق فى حجره .

وبدا لوفت يقول : « ان هذا لمناقض لكل ... » .

وقال الكولونيل : « دعه يجلس » .

فتنحنح الكابتن لونت ، واستأنف القراءة : « .. وتعرض له الكابتن بنتيك بجسمه فتلقى ضربة على رأسه هشمت جمجمته » . ثم اردف لوفت قائلا : « وقد ارفق بهذا تقرير طبى . اتريد ان اقراه ؟ » .. فأجاب لانسر : « لا حاجة بك لذلك . أسرع على قدر إمكانك ! » .. وعاد لوفت إلى القراءة : « .. وقد شهد بهذه الوقائع بعض جنودنا ، وارفقت بهذا اقوالهم . وإن المحكمة العسكرية لتجد السجين مدانا بتهمة القتل المتعمد ، وتوصى بالحكم عليه بالموت ! » .. وتطلع لوفت إلى الكولونيل وساله : « اتريد ان اقرا اقوال الجنود ؟ » .. فتنهد لانسر وهو يقول : « كلا » ، ثم التفت إلى الكس وقال : « إنك لا تنكر انك قتلت الكابتن ! » .

وابتسم الكس ابتسامة حزينة وقال : « لقد ضربته ، ولا اعلم أننى قتلته ! » .. فقال أوردن : « أحسنت يا الكس ! » .. وتبادلا النظرات شأن الصديقين !

وقال لوفت : « اتريد القول إن احدا غيرك قتله ؟ » .. فأجاب الكس بقوله : « لست أدرى ، وإنما أنا ضربته ، ثم ضربنى شخص ما ! » .

وقال الكولونيل لانسر : « هل لديك ما تقوله فى تعليل الحادث ؟ .. لا أستطيع ان أفكر فى شيء قد يغير من الحكم ، ولكننا على استعداد لأن ننصت إليك ! » .

وقال لوفت : « اتشرف بأن اوجه النظر إلى أنه ما كان يحق للكولونيل ان يقول هذا ، فان كلامه ينطوى على ان المحكمة لم تكن نزيهة ! » .. وضحك أوردن ضحكة شاع فيها الجفاء ، فنظر إليه الكولونيل وعلى شفتيه طيف ابتسامة ، وكرر قوله المتهم : « هل لديك تعليل ؟ » .

ورفع الكس يده يريد ان يومىء بها ، فارتفعت معها يده الأخرى . وإذ ذاك بدت الحيرة عليه ، فاضطر إلى إعادة يديه حيث كانتا فى حجره ، وقال : « لقد استبد بى الغضب عندئذ ، فاننى حاد الطبع .. لقد امرنى بالعمل ، وانا رجل حر ، فجن جنونى وضربته . واعتقد ان ضربتى كانت شديدة ، ولم يكن هو الرجل الذى قصدته ! » ، ثم اشار إلى لوفت وقال : « هذا هو الرجل الذى كنت اريد ضربه ! » .

فقال لانسر : « لا يعنينا من الذى كنت تقصده بضربتك ، فان اى رجل فى محلك كان يفعل ما فعلت ، ولكن هل انت نادم على ما بدر منك ؟ » ، ثم خاطب الجالسين إلى المنضدة بقوله : « من الأفضل أن يتضمن المحضر أسفه على ما ارتكب ! » .

وساله الكس قائلا : « أسفى ؟ كلا ! لست آسفا ، فقد أمرنى بالذهاب إلى العمل .. أمرنى أنا الرجل الحر ! .. لقد كنت شيخا من شيوخ البلد ، وقد أمرنى بالذهاب إلى العمل ! » .

ــ وإذا كان الحكم بالإعدام ، أفلا تأسف عندئذ ؟

وطاطا أنكس رأسه ، وحاول جاهدا أن يستوعب الفكرة ، ثم قال : « كلا .. أتعنى أن ارتكب ما ارتكبت مرة أخرى ؟ » .

ــ هذا ما اعنيه !

ففكر الكس مليا ، ثم قال : « كلا ، لا أحسبنى آسفا ! » .

فقال لانسر : « اكتب فى المحضر ان السجين كان غاية فى الندم . إن الحكم ظاهر من تلقاء نفسه !.. اتفهمنى ؟ » ، ثم التفت إلى الكس وهو يقول : « ليس للمحكمة سبيل آخر تسلكه ، وقد تبين للمحكمة انك مذنب فقضت عليك بالإعدام رميا بالرصاص فى الحال ، ولا أجد ما يدعو لأن اطيل عليك عذابك . اثمة شيء نسيته يا كابتن لوفت ؟ » .

فقال أوردن : « لقد نسيتنى ! » ، ثم نهض ودفع كرسيه إلى الوراء وسار إلى الكس ، فانتصب الكس واقفا فى احترام ، على ما ألف منذ زمن بعيد . وقال العمدة : « أنا العمدة الذى اخترموه يا الكس ! » .

ــ اعرف هذا يا سيدى .

ــ إن هؤلاء القوم غزاة يا الكس. لقد استولوا على بلادنا بمفاجاتهم لنا ، وبالخديعة والعنف !

فقال الكابتن لوفت : « يجب الا يسمح له بأن يقول هذا القول يا سيدى » .. فأجابه لانسر : « صه ! من الأفضل ان نسمعه .. اتريد ان يهمس به من خلفنا ؟ » .

واستمر أوردن فى حديثه كأن احدا لم يقاطعه : « عندما جاءوا وقعت الحيرة بالشعب ، وبى انا ايضا .. لم نكن نعلم ماذا نفعل ، واستعصى علينا التفكير ، ثم جاء عملك فكان أول عمل علنى .. وكان غضبك الخاص بداية الغضب العام !.. اننى اعلم ما يقال عنى فى البلدة من أننى ضالع مع هؤلاء القوم ، وبوسعى أن أكشف للبلد عن الحقيقة ، ولكنك أنت .. أنت ستلقى حتفك ، ولهذا أحب ان تعلم الآن ! » .

وطاطا الكس رأسه ثم رفعها وقال : «إننى اعلم يا سيدى» .. وهنا قال لانسر لأحد ضباطه : « هل فرقة إطلاق النار مستعدة ؟ » .

ــ إنها فى الخارج يا سيدى .

ــ ومن قائدها ؟

ــ الملازم توندر يا سيدى .

فرفع توندر رأسه وقد بدت الصرامة على وجهه ، وحبس انفاسه !.. وقال أوردن فى رقة : « هل انت خائف يا الكس ؟ » .

فأجاب الكس قائلا : « أجل يا سيدى » .

ــ لا استطيع أن اوصيك بألا تخاف ، فأننى لو كنت فى موضعك لخفت أنا أيضا ، وكذلك كان يفعل هؤلاء الشبان .. آلهة الحرب !

وقال لانسر لتوندر : « استدع فرقتك » ، فانتصب توندر واقفا ، وذهب إلى الباب ، وقال : «إن الفرقة هنا يا سيدى» .

ثم فتح الباب على مصراعيه ، فظهر الرجال ذوو الخوذات .. وإذ ذاك قال أوردن : « اذهب يا الكس .. اذهب وأنت تعلم أن هؤلاء الرجال لن يجدوا الراحة .. لن يجدوا الراحة قط حتى يرحلوا أو يلقوا حتفهم !.. لسوف تكون السبب فى توحيد صفوف الشعب . إنها لحقيقة محزنة ، ولكننى اسوق إليك الخبر على انه هدية صغيرة اقدمها إليك . ولكن الأمر كما اقول .. إنهم لن يعرفوا طعم الراحة على الإطلاق ! » .

واغمض الكس عينيه بشدة ، فمال اوردن عليه وطبع قبلة على خده ، ثم قال له : « وداعا يا الكس ! » .

* * *

واخذ الحارسان بذراع الكس ، فظل الشاب مغمضا عينيه بشدة . ثم قاداه إلى الخارج ، واستدارت فرقة إطلاق النار ، وسمعت أصوات أقدامهم تخفت وهى تخرج من المنزل إلى الجليد ، ثم ستر الجليد وقع الأقدام . وخيم السكون على الرجال الذين يجلسون خلف المائدة ، ونظر اوردن صوب النافذة فراى بقعة صغيرة من الأرض تنظفها يد سريعة من الجليد . وتفرس فيها وهو شارد اللب ، ثم ما لبث أن حول عينيه عنها ، وقال للكولونيل : « ارجو ان تدرك ما انت مقدم عليه ! » .

وجمع الكابتن لوفت اوراقه ، فسأله لانسر : « هل سينفذ الاعدام فى الميدان يا كابتن ؟ » .

— أجل ، فى الميدان ، إذ يجب ان يكون علنيا .

وقال أوردن : « أرجو أن تكون مدركا ما انت فاعل » .. فأجابه الكولونيل : « يا رجل ، سواء اكنا مدركين هذا أم لم نكن ، فهو واجب لا بد لنا من القيام به » .

وخيم السكون على الغرفة ، واخذ كل من فيهما يصيخ السمع . ولم يطل الأمر بهم ، فقد سرى من بعيد صوت إطلاق النار .. وزفر لانسر زفرة قوية ، بينما وضع أوردن يده على جبهته ، وشهق شهقة عميقة . ثم اطلقت طلقة من الخارج ، فتهشم زجاج النافذة . ودار براكل حول نفسه متألما ، ورفع يده إلى كتفه وحملق فيها . وهب لانسر واقفا وهو يصرخ قائلا : « إذن فقد بدأت الحركة ؟.. هل جرحك خطير ايها الملازم ؟ » .. فقال براكل : « كتفى ! » .

وتولى لانسر القيادة فقال : « ستكون ثمة آثار فى الجليد يا كابتن لوفت ، واريد أن يفتش كل بيت بحثا عن الأسلحة ، واريد ان يؤخذ كل من عنده سلاح كرهينة ! » . ثم التفت إلى العمدة وقال : « اما انت يا سيدى فستوضع تحت الحراسة ، وارجوك ان تفهم هذا : سنقتل رميا بالرصاص خمسة أو عشرة أو مائة فى مقابل كل واحد منا ! » .. فأجابه أوردن فى هدوء : « رجل له ذكريات معينة ! » .

وتوقف لانسر فى وسط امر كان يلقيه ، والتفت فى تمهل وبطء إلى العمدة . وفى برهة وجيزة فهم كل منهما الآخر . ثم شد لانسر قامته ، وقال فى حدة : « رجل لا ذكريات له ! »

ثم أطلقت طلقة من الخارج ، فتهشم زجاج النافذة .. ودار (براكن) حول نفسه متألما ، ورفع يده إلى كتفه ..

.. وعاد يتابع أوامره قائلا : « أريد جمع كل سلاح فى البلدة . اقبضوا على كل من يقــاوم ، وأسرعوا قبل أن تختفى آثــار الأقدام على الجليد » .

وتناول أركان الحرب خوذاتهم وأعدوا مسدساتهم وشرعوا فى الخروج .. وذهب أوردن إلى النافذة التى تحطم زجاجها ، وتمتم فى لهجة غلب عليها الحزن والأسى : « رائحة الجليـد جميلة ، عليلة ! » .

الفصل الخامس

انقضت الايام والأسابيع ياخذ بعضها بخناق البعض . وكرت الشهور متثاقلة .. كان الجليد يتساقط ويذوب ، ويتساقط ويذوب ، إلى أن تساقط وظل على حاله متجمدا ، فاكتست مبانى البلدة الصغيرة الداكنة بما يشبه الاجراس والقبعات والحواجب من لباس أبيض ناصع .. وكانت ثمه خنادق عبر الجليد تصل إلى الأبواب ، أما فى الميناء فكانت سفن الفحم تاتى فارغة وتعود مشحونة الوسق ، ولكن الفحم لم يكن يستخرج من الأرض بسهولة .. فان المعدنين البارعين كانوا يخطئون ، إذ كانوا لا يتقنون حرفتهم ! اضف إلى هذا انهم كانوا يتسمون بالبطء ، وكانت الآلات تكسر وينقضى وقت طويل قبل إصلاحها !. واستقر قرار اهل البلاد المغزوة على انتقام بطىء ، صامت ، آجل . وتبين الخونة الذين ساعدوا الغزاة — وكثيرون منهم صدروا فى المساعدة عن اعتقاد بان الغزو إنما هو لتحسين شئانهم ولتحقيق الحياة المثالية لهم ! — إن الخطوة التى خطوها كانت غير مطمئنة ، وإن الناس الذين كانوا يعرفونهم ، كانوا ينظرون إليهم ببرود دون أن يوجهوا إليهم حديثا قط !

وكان الموت مخيما على الجو ، يحوم وينتظر . ووقعت الحوادث على خط السكة الحديدية الذى يشق طريقه فى الجبال والذى كان يربط البلدة الصغيرة بسائر انحاء الأمة . وكثرت الانهيارات على الطرق والخطوط الحديدية ، ولم يكن

ثمة قطار يستطيع السير دون التحقق أولا من سلامة الخطوط، وكان بعض الناس يعدمون انتقاما ولكن هذا لم يكن له أى أثر! .. واخذت جماعات من الشباب تهرب وتذهب إلى إنجلترا بين الحين والحين .. والقى الإنجليز القنابل من الجو على منجم الفحم، فأصابوه ببعض التلف ، وقتلوا عددا من اصدقائهم واعدائهم . ولم يأت هذا بنتيجة ، وإنما نما الحقد البارد بتقدم الشتاء .. ذلك الحقد الصامت الدفين المتربص !

وكانت المؤن والأطعمة تحت الرقابة ، تمنح للطيع وتمنع عن المتمرد ، حتى اضطر اهل البلدة جميعا إلى أن يكونوا طيعين، ولكنها كانت طاعة باردة .. إلا انه كانت ثمة حالة لا يمكن فيها منع الطعام ، ذلك ان الرجل الذى يموت جوعا كان ينقص من عدد القادرين على استخراج الفحم ورفعه وحمله . وكانت عيون الناس تنطق بالحقد الدفين ، يراها كل من لا يؤخذ بالظواهر !

وهكذا وجد الغازى نفسه محصورا .. فكان رجال الكتيبة معزولين وحدهم بين أعداء صامتين . ولم يكن فى استطاعة جندى منهم ان يتهاون فى حذره لحظة واحدة ، ولو انه فعل لاختفى ولألقيت جثته على ركام من الثلج . وإذا ذهب جندى وحده لأمراة ، اختفى والقيت جثته على ركام من الثلج .. وإذا شرب خمرا اختفى !.. فلم يعد رجال الكتيبة يغنون إلا معا ، ولا يرقصون إلا معا . ثم توقف الرقص رويدا رويدا ، واصبح الغناء ترديدا لعبارات تنطوى على الوحشة إلى الديار .. واخذت احاديثهم تقتصر على الأصدقاء والأقارب

الذين كانوا يحبونهم ، وعلى شوقهم إلى الدفء والحب .. فان الرجل لا يستطيع أن يكون جنديا إلا لبضع ساعات فى اليوم ، أو لبضعة أشهر فى السنة ، ثم تلح به الرغبة فى أن يعود رجلا ، يطلب النساء والشراب والموسيقى والمرح والراحة ، فاذا منعت عنه كلها استبد به الشوق إليها !

وكانت افكار الجنود تهفو دائما إلى وطنهم ، حتى انتهت الحال برجال الكتيبة إلى كراهية البلد الذى غزوه ، فكانوا يعاملون اهل البلدة معاملة جافة ، وكان أهل البلدة يبادلونهم جفاء بجفاء . ودب شىء من الخوف فى قلوب الغزاة رويدا .. خوف لا يمكن ان ينقضى او يزول .. خوف من الا تنتهى هذه الحرب قط ، ومن انهم لن يستطيعوا ان يستريحوا ويعودوا إلى بلادهم .. خوفا من أن تهن عزيمتهم يوما فيصيدهم اهل البلدة من الجبال ، وكأنهم الارانب ! ذلك أن القوم الذين قهرت بلادهم لم يخففوا من غلواء حقدهم للغزاة قط ، فكانت الدوريات ترى الأضواء ، وتسمع الضحك فتنجذب إليه — شأن الفراش تجذبه النار — ولكن ما أن يقترب افرادها ، حتى يكف الناس عن الضحك ، ويذهب الدفء ، ويعود الناس إلى برودهم وطاعتهم !.. وكان الجنود يشمون رائحة الطعام الساخن تفوح من المطاعم الصغيرة . فيدخلون ويطلبون الطعام الساخن ، ولكنهم يجدونه وقد زاد ملحه أو زاد فلفله !

ثم قرا الجنود الأنباء الواردة من بلادهم ، ومن البلاد الأخرى التى غزتها امتهم . وكانت الأنباء طيبة دائما ، وقد

صدقوها برهة من الزمن ، ولكنهم لم يلبثوا ان فقدوا الثقة فيها !.. وامتلأ قلب كل منهم رعبا ، وراح يقول لنفسه : « لو انهارت بلادنا وهزمت، فلن ينبئنا احد فى الوقت المناسب، ويسبق السيف العزل . وإذ ذاك لن يرحمنا هؤلاء القوم . بل إنهم سيفتكون بنا جميعا ! » .. وتذكروا قصص رجالهم فى تراجعهم من بلجيكا وفى تراجعهم من روسيا . وكان اكثرهم علما يذكرون التقهقر الجنونى الملىء بالمآسى .. التقهقر من موسكو ، حيث ذاقت مدرة كل فلاح روسى دماء الغزاة ، وحيث شوهت الجثث صفحة الجليد البيضاء !

وكانوا يعلمون انهم إذا وهنت منهم العزيمة ، او خف حذرهم وحرصهم . أو ناموا اكثر مما يجب عليهم النوم ، للاقوا فى هذه البلدة نفس المصير الذى لاقاه رفاقهم هناك من قبل . وشاب نومهم القلق . وقضوا أيامهم وقد توترت أعصابهم . وكانوا يوجهون الأسئلة فلا يستطيع ضباطهم الإجابة عليها ، لانهم لم يكونوا يعرفون الجواب .. فقد كانوا هم الآخرون يجهلون. شأنهم شأن جنودهم .. ولم يكونوا هم كذلك يصدقون الأنباء الواردة من الوطن !

وهكذا دب الخوف فى قلوب الغزاة ممن غزوهم !.. وتوترت أعصابهم حتى انهم كانوا يطلقون النار على الأشباح ليلا ! وكانوا يحسون دائما ذلك الصمت البارد الكئيب. ثم جن ثلاثة جنود فى أسبوع ، وأخذوا يبكون ليل نهار حتى أعادوهم إلى ديارهم . ولعل غيرهم كان موشكا أن يجن أيضا ، لولا أنهم سمعوا أن الموت ينتظر المجانين فى الوطن .. فقد كانوا يقتلون

رحمة بهم .. والموت أفظع من أن يستطيع الإنسان أن يفكـر
فيه !.. وغزا الخوف قلوب الرجال فى ثكناتهم ، فخلف على
وجوههم مسحة من الحـزن ، كما دلف إلى قلوب رجـال
الداوريات فملأها قسوة !

* * *

وانقضت الســنة ، ثم جاء الشــتاء ثانية ، وطال الليل ،
فأصبح الظلام يحل فى الساعة الثالثة بعد الظهر ، ولا يعـود
الصبح ينبلج إلا فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى ، ولم
تعد الأنوار البهجة تتسرب من النوافذ وتنعكس على الجليد ..
فقد سن قانون يوجب إظلام النوافذ كلها ، حتى لا ترى قاذفات
القنابل المغيرة الضوء . على ان ثمة ضوءا كان يظهر دائما
بقرب منجم الفحم ، كلما أقبلت قاذفات القنابل الإنجليزية !..
وكان الحراس يطلقون النار احيانا على رجل يحمل مصباحا
.. بل لقد اطلقوا الرصاص مرة على فتاة تحمـل مشـعلا
كهربائيا ، ولم يكن لهذا من اثر ، فان إطلاق النار لم يكن هو
العلاج !

وكان الضباط صورة طبق الأصـل من جنودهم ، إلا انهم
كانوا اكثر تحفظا ، لأن تدريبهم كان أتم واوفى ، وكانوا أكثر
حيـلة من جنودهم ، لأن مسئوليتهـم كانت أعظـم ، ولكن
نفس المخاوف كانت تساورهم .. بل إنها كانت تتغلغـل فى
قلوبهم اكثر من تغلغلها فى قلوب رجالهم ، وكانوا يشعـرون
بوحشة إلى الديار اشد وأقوى ، ولكنهم كانوا يطوون عليها
جوانحهم ويكتمونها حبيسة فى صدورهم !.. وكان العنـاء

المنصب على أعصابهم مزدوجا : فقد كان أهل البلاد المقهورة
يراقبونهم ويحصون عليهم اخطاءهم .. كما كان الجنود الذين
تحت إمرتهم يراقبونهم ويحصون عليهم مواطن الضعف ، حتى
لقد غدا توتر أعصابهم يهـدد بانهيارهم !.. كان الغزاة فى
حصـار ضرب على روحهم المعنوية فى غير هوادة ولا رفق ،
وكان الكل ـ الغالب والمغلوب ـ يعلم ما سوف يحدث عندما
تبدر اول بادرة .

وبدا ان أسباب الراحة التى زودت بها الغرفة العليـا فى
قصر العمدة قد اختفت .. إذا وضـع الورق الأسـود على
النوافذ بإحكام ، وكانت ثمة أكداس صغيرة من المهمات الثمينة
مبعثرة فى أركان الغرفة ـ وهى الأدوات والمهمات التى لا يمكن
تعريضها للخطر ، ونظارات الميدان ، والأقنعة والخوذات ـ
فقد كان ثمة تخفف من شدة النظام فى تلك الغرفـة ، وكأن
هؤلاء الضباط كانوا يعلمون انه لا بد من شىء من التراخى فى
مكان ما ، وإلا تطرق الخلل إلى جهازهم كله !.. وكان على
المنضدة مصباحان للداوريات يلقيان ضوءا شديدا متألقا .
وقد كان أزيز اشتعالهما هو الصـوت الوحيد الذى يعكـر
هدوء الغرفة !

ولم ينقطع الماجور هنتر عن عمله ، بل كانت لوحة رسمه
مستعدة الآن باستمرار ، إذ كانت القنابل تهدم عمله بالسرعة
التى يبنيه بها تقريبا . ولم يكن ذلك يحزنه كثيرا ، فقد كان
البناء للماجور هنتر بمثابة الحياة نفسها ، وقد أتيح له ـ فى
هذه البلدة وهذه الظروف ـ من فرص البناء ما كان يفوق

سرعته فى التصميم والإنجاز .. وكان يجلس إلى لوحة الرسم والضوء من خلفه والمسطرة « حرف ت » ترتفع وتنخفض على اللوحة ، وقلمه الرصاص لا يكف عن العمل لحظة !

اما الملازم براكل ، فكانت ذراعه ما تزال فى جبيرة شدت إلى عنقه . وكان يجلس فى مقعده منتصب الظهر ، عند المنضدة الوسطى ، يقرأ صحيفة مصورة . بينما كان الملازم توندر يجلس فى طرف المنضدة يكتب خطابا ، ويرفع قلمه عاليا من آن إلى آخر ، ويحدق فى السقف كأنه يستلهمه الوحى ويستنجد به فيما يكتب !

وقلب براكل ورقة من الصحيفة المصورة ثم قال : « يمكننى وانا مغمض العينين ان أرى كل متجر فى هذا الشارع » . فاستمر هنتر فى عمله ، وكتب توندر بضع كلمات أخرى فى خطابه !.. واسترسل براكل يقول : « ثمة مطعم خلف هذا البيت تماما ، ويمكنك أن تراه فى الصورة الماثلة امامى، واسمه مطعم بيردن » .. فقال هنتر دون أن يرفع نظره عن لوحته : « أعرف هذا المطعم ، وشرائح اللحم التى كانوا يقدمونها جيدة ! » .. بينما قال براكل : « هذا ما لا شك فيه ، فقد كان كل ما يقدمونه جيدا .. لم يكونوا يقدمون شيئا رديئا قط ، أما قهوتهم .. » .

ورفع توندر رأسه عن الخطاب الذى كان معنيا بكتابته وقال : « لن يقدموا القهوة الآن .. ولا شرائح اللحم ! » . فقال براكل : « لا علم لى بشىء من هذا . فلقد كانوا يقدمون الشرائح والقهوة .. ولسوف يستمرون فى تقديمها !.. وكانت

ثمة خادم فى هذا المطعم » .. ثم أخذ يصف شكلها مستعينا بيده — يده السليمة ! — وأردف يقول : « شقراء تقريبا » ، ثم نظر إلى المجلة « كان لها ، أقصد ما زال لها أعجب عينين، فهما دائما منديتان وكأن صاحبتهما كانت تضحك أو تبكى لتوها ! » . ثم حملق فى السقف وقال فى رفق : « لقد خرجت معها ، وكانت فاتنة .. إننى أسائل نفسى : لماذا لم أتردد على المحل اكثر مما فعلت . ترى اما زالت موجود ؟ » .

وقال توندر فى لهجة سادتها الكآبة : « ربما لا ، ولعلها تعمل الآن فى مصنع ! » .. فضحك براكل وهو يقول : « أرجو الا يكون توزيع الفتيات قد أصبح خاضعا لنظام البطاقات فى بلادنا ! » . فعقب توندر قائلا : « ولم لا ؟ » . فقال براكل يداعبه : « إنك لا تأبه كثيرا للفتيات ، أم تراك تأبه لهن ؟.. إنك لا تعبأ بهن كثيرا ! » .. وأجابه توندر قائلا : « إننى أودهن لما خلقن من أجله ، ولا أدعهن ينلن من حياتى الأخرى ! » .. فقال براكل مداعبا : « يبدو لى أنهن يتسللن إلى جميع نواحى حياتك طيلة الوقت ! » .

وحاول توندر ان يغير مجرى الحديث ، فقال : « إننى اكره هذه المصابيح الملونة .. متى ستصلح ذلك المولد الكهربائى يا ماجور ؟ » . فرفع الماجور هنتر بصره ببطء عن لوحته وقال : « كان يجب أن يتم الاصلاح الآن ، فقد عهدت به إلى بعض البارعين من رجالى ، وسأضاعف عدد الحراس على المولد الكهربائى منذ الآن » .. فسأله براكل : « هل قبضت على ذلك الذى حطمه ؟ » .

وقال هنتر عابسا متجهما : « لقد اشتبهت فى خمسة ، فألقيت القبض عليهم جميعا » .. ثم اردف يقول وقد استغرق فى التفكير : « من السهل تحطيم المولد الكهربائى إذا عرفت السبيل .. اطلق عليه النار وهو كفيل بتدمير نفسه بعد هذا ! » .. ثم قال : « لا بد أن النور سيضاء الآن فى أية لحظة ! » .

وكان براكل ما يزال ينظر فى مجلته حين قال : « ترى متى يأتون بمن يحل محلنا ؟.. ترى متى نعود إلى الوطن لنقضى فيه فترة من الزمن يا ماجور ؟.. الا تحب ان تعود إلى الوطن لتأخذ قسطا من الراحة ؟ » .. فرفع هنتر راسه عن عمله ، ووجهه ينم عن اليأس ، وقال : « اى نعم ! » ، ثم ما لبث ان عاد إلى رشده وقال : « لقد اقمت خط التخزين هذا اربع مرات ، ولست ادرى لماذا تصيب القنبلة فى كل مرة هذا الخط بالذات ؟.. لقد بدأ السأم يدركنى من هذا الجزء من الخط الحديدى ، لأننى مكره على تغيير مجراه فى كل مرة بسبب تلك الفجوات ، لا سيما وان الوقت لا يتسع لملئها . ثم ان الأرض شديدة الصلابة من فرط التجمد ، ويبدو أن العمل الذى ينتظرنى كثير جدا ! » .

وأضيئت الأنوار على حين بغتة ، فمد توندر يده آليا واطفأ المصباحين ، فتلاشى الأزيز من الغرفة .. وما لبث توندر أن قال : « خليق بك أن تحمد الله على هذا ، فان الأزيز كان ينال من أعصابى ، حتى جعلنى أظن ان ثمة همسا يدور حولى » ، ثم طوى الخطاب الذى كان يكتبه وقال : من العجيب، انه لم تعد تصلنا خطابات ، إذ اننى لم اتلق إلا خطابا واحدا

منذ أسبوعين » .. فقال براكل : « لعل أحدا لا يكتب إليك » . فعقب توندر قائلا : « ربما » ، والتفت إلى الماجور يقول : « إذا حدث حادث — أقصد فى الوطن — فهل تظن انهم ينقلون إلينا نبأه ؟.. أقصد اى حادث سيىء ، كالوفاة أو ما إليها ؟ » .. فأجاب هنتر بقوله : « لست أدرى ! » .. واستطرد توندر قائلا : « حسنا .. لكم اود الرحيل عن هذا الجحر المهجور ! » .

وقاطعه براكل قائلا : « كنت أظنك تعتزم الإقامة هنا بعد الحرب ! » .. واخذ يقلد صوت توندر قائلا : « أجمع بين أربع أو خمس مزارع معا ، وأجعل منها مكانا بديعا ، ومقرا لأسرتى » .. ثم التفت إليه متسائلا : « الم تقل هذا ؟.. كنت تريد ان تصبح سيدا صغيرا من سادة الوادى . أليس كذلك ؟ قوم ظرفاء ذوو كياسة ، ومروج جميلة وغزلان وأطفال صغار .. الم يكن هذا عين ما قلت يا توندر ؟ » .

واسترخت يد توندر ، بينما كان براكل يسترسل فى حديثه ، ثم أمسك صدغيه بين يديه وقال بانفعال : « صه ! لا تتحدث هكذا !.. هؤلاء القوم ! هؤلاء القوم البشعون !.. هؤلاء القوم الباردون ! .. إنهم لا ينظرون إليك قط ! » . وتمشت الرعدة فى جسمه وهو يستطرد : « إنهم لا يتكلمون قط . ويجيبونك كأنهم موتى .. ويطيعونك دون ما شعور أو روح .. يا لهم من فظاع !.. اما فتياتهم فجامدات كالثلج ! » .

وسمعت طرقة خفيفة على الباب ، ثم دخل جوزيف وفى يده وعاء ملىء بالفحم . وأخذ يتحرك فى صمت وسكون فى

الفرفة ، فوضع الوعاء فى رفق على الأرض دون أن يحدث أى ضوضاء ، واستدار وهو لا ينظـر إلى أحد ، فسار صـوب الباب ثانية. وإذ ذاك ناداه براكل بصوت عال : «جوزيف!». فالتفت جوزيف دون أن يجيب ودون أن يرفع بصره ، وانحنى انحناءة خفيفة . وقال براكل بالصوت العالى نفسه : « هل ثمة نبيذ أو براندى هنا يا جوزيف ؟ » ، فهز جوزيف رأسه . وهنا نهض توندر عن المـائدة وقد ارتسمت على وجهه علائم الغضب الشديد ، وصرخ يقول : « اجبنى ايها الخنزير ! اجبنى بكلمات ! » .

ولم يرفع جوزيف بصره ، ولكنه قال بلهجة تجـردت من الحياة : « كلا يا سيدى ، كلا يا سيدى ، لا يوجد نبيذ ! » .

فصاح توندر وهو يتميز غيظا : « ولا براندى ؟ » .. فغض جوزيف بصره ، وعاد يقول بلهجتـه الخالية من الحيـاة : « لا يوجد براندى يا سيدى » .. وكان يقف ساكنا تماما !

وساله توندر : « ماذا تريد ؟ » .

ـــ اريد ان انصرف يا سيدى .

ـــ إذن اذهب .. لعنة الله عليك !

ودار جوزيف على عقبيه وخرج فى سكون من الفـرفة ، فأخرج توندر منديلا من جيبه ، واخذ يمسح وجهه ، بينمـا رفع هنتر إليه بصره وقال : « ما كان يجب ان تتركـه ينغلب عليك بهذه السهولة ! » .

وجلس توندر على مقعده ، ووضع يديه على صدغيه ، ثم قال فى عبارات متقطعة : « أريد فتاة !.. أريد العـودة إلى الوطن !.. أريد فتاة . ثمة فتاة فى هذه البلدة ، فتاة جميلة ، أراها فى كل وقت .. شعرها أشـقر ، وتقيم بجوار محـل الحديد الخردة ، أريد تلك الفتاة ! » .. فقال براكل : « راقب نفسك ، وراقب اعصابك ! » .

وانطفأ الضوء مرة أخرى فى تلك اللحظة ، فخيم الظـلام على الفرفة . وتحدث هنتر بينما كانت اعواد الثقاب تشعل ، والمحاولات تبذل لإضاءة المصباحين الصغيرين : « ظننت اننى تبضت عليهم جميعا ، ولكن .. ولا بد أنه قد فاتنى القبض على واحد . بيد اننى لا استطيع البقاء هناك طول الوقت ولى رجال بارعون يقيمون فى ذلك الموضع ! » .

واشعل توندر المصباح الأول ، ثم اشعل المصباح الثانى . وقال هنتر فى لهجة صارمة موجها كلامه إليه : « كلمنا نحن إذا كان لابد لك من أن تتكلم أيها المـلازم ، ولا تدع العـدو يسمعك تتحدث بهذا الشكل ، فان احب شىء إلى هؤلاء الناس هو ان يعرفوا ان اعصابك قد بدأت تخونك .. لا تدع العدو يسمعك ! » .

وجلس توندر ثانية ، فسقط ضوء المصباح على وجهه . وملأ الأزيز الفرفة ، فقال : « لقد اصبت ! إن العـدو فى كل مكان ! .. كل رجـل وكل امراة ، بل حتى الأطفال ! .. إن العدو فى كل مكان ، تطل عليك وجوههم من الأبواب .. ووجوه بيضاء خلف الستائر تصيخ السمع ! .. لقد علمناهم على

امرهم وفزنا فى كل مكان ، وهم ينتظرون ويطيعون .. إنهم ينتظرون !.. نصف العالم ملكنا ، فهل الحال فى الأماكن الأخرى كما هى هنا ايها الماجور ؟ ».. فقال هنتر : « لست أدرى ! ».

وعاد توندر يقول : « أصبت ! فنحن لا ندرى ، إذ أن التقارير تقول إننا قابضون على ناصية الحال ، والبلاد التى غزوناها تحيى جنودنا وتحيى النظام الجديد ! » .. وتغير صوته ، واخذت الرقة تشيع شيئا فشيئا فى حديثه : « وماذا تقول التقارير عنا ؟ اتقول إن الناس هنا يحيوننا ويحبوننا ويلقون بالزهور فى طريقنا ؟.. آه من أولئك القوم البشعين الذين ينتظروننا فى الجليد ! » . فسأله هنتر : « الآن وقد نفثت ما فى صدرك ، أتشعر بانك روحت عن نفسك ؟ » .

وكان براكل يربت بخفة على المائدة بقبضته السليمة ، فقال : « يجب الا يتحدث هكذا ، بل ينبغى ان يحتفظ بآرائه لنفسه . اليس هو جنديا ؟ إذن يجب أن يسلك مسلك الجنود ! » .

وفتح الباب بهدوء ، ثم دخل الكابتن لوفت ، والجليد يغطى خوذته وكتفيه . وكان أنفه قد التهب من البرد ، بينما رفع ياقة معطفه حتى غطت أذنيه . وخلع خوذته فسقط الجليد على الأرض ، ثم نفض عن كتفيه ما علق بهما من ثلج ، وقال : « يا لها من مهمة ! » .

وسأله هنتر : « هل هناك اضطرابات جديدة ؟ » .

— هناك اضطرابات دائما !.. ارى أنهم قد عطلوا المولد الكهربائى ثانية ، أما المنجم فاظن أننى عملت على إقرار النظام به فترة من الزمن .

وسأله هنتر : « وماذا صادفك من المتاعب هناك ؟ » .

— نفس المتاعب التى تصادفنى عادة .. البطء فى العمل ، وتحطيم سيارة نقل . على اننى رأيت الذى حطمها فاطلقت عليه النار . اعتقد أننى وجدت حلا لهذه المشكلة الآن يا ماجور . سأجعل كل رجل يستخرج قدرا معينا من الفحم . إننى لا استطيع ان اعاقب الرجال بحرمانهم من القوت وإلا تعذر عليهم العمل ، ولكننى توصلت إلى حل فيه العلاج الناجع . إذا امتنع خروج الفحم امتنع انا عن تزويد العائلات بالطعام . وسنجعل الرجال يأكلون عند المنجم لكى لا يقاسموا أسراتهم طعامهم . هذا هو العلاج الشافى ولا شك . فاذا لم يعملوا حرم اطفالهم من الطعام . ولقد قلت لهم هذا لتوى !

— وماذا قالوا ؟

فضاقت عينا لوفت فى قسوة وهو يجيبه : » قالوا ؟.. وماذا يقولون دائما ؟.. لا شىء !.. لا شىء البتة ! ولكننا سنرى ما إذا كان الفحم يخرج الآن من باطن الأرض ! » .. وخلع معطفه ونفضه . ثم وقع نظره على الباب المفضى من الحديقة إلى البهو فوجده منفرجا قليلا ، فتسلل فى خفة إليه وفتحه فجأة ثم عاد واغلقه ، وقال : « ظننت اننى أحكمت إغلاق هذا الباب ! » .. فقال هنتر : « اجل .. إنك اغلقته فعلا ! » .

* * *



وكان براكل ماضيا فى تقليب صفحات مجلته المصورة ، فقال وقد عاد صوته طبيعيا كما كان : « إننا نستعمل فى الشرق مدافع ضخمة .. ولكنى لم أر مدفعا منها . هل رايتها انت يا كابتن ؟ » .. فأجاب الكابتن لوفت : « اجل . بل رايتها تنطلق . إنها لمدهشة ، فلا شىء يستطيع ان يصمد امامها! » .

وقال توندر : « هل تصلك انباء كثيرة من الوطن يا كابتن ؟ » ، فأجاب لوفت : « تصلنى بقدر محدود ! » .

— اكل شىء على ما يرام هناك ؟

فقال لوفت : « بل كل شىء رائع ، فالجيش يتقدم فى كل مكان ! » .

— الم تقع الهزيمة بعد بالبريطانيين ؟

— إنهم يهزمون فى كل موقعة !

— ولكنهم ما زالوا يقاتلون ؟

— إن قتالهم لا يعدو أن يكون بضع غارات جوية !

— والروس ؟

— لقد انتهى امرهم !

فسأله توندر فى إصرار : « ولكنهم ما يزالون يقاتلون ؟ » .

— ليس اكثر من بعض المناوشات !

فقال توندر : « إذن فقد انتصرنا تقريبا يا كابتن ؟ » .

— اجل انتصرنا !

ونظر إليه توندر نظرة الفاحص المدقق وقال : « وأنت تصدق هذا .. أليس كذلك يا كابتن ؟ » . فقطع براكل الحديث قائلا:

« لا تدعه يبدأ هذا من جديد ! » .. وقال لوفت لتوندر فى لهجة تنطوى على اللوم والتعنيف : « لست ادرى ماذا تعنى » .. فأجاب توندر بقوله : « أقصد هذا : هل سنعود إلى ديارنا قريبا ؟ » .. فقال هنتر « إن إعادة التنظيم تستغرق بعض الوقت ، ولا يمكن تنفيذ النظام الجديد فى يوم .. اليس كذلك ؟» .. فقال توندر : « بل قد لا يمكن تنفيذه فى حياتنا كلها ! » .

وقال براكل : « لا تدعه يبدأ هذا من جديد ! » .. فسار لوفت حتى اقترب كثيرا من توندر وقال له : « إن لهجتك فى السؤال لا تروق لى ايها الملازم ، فلست استطيب لهجة تنم عن الشك والريبة ! » .

فنظر إليه هنتر وقال : « لا تقسو عليه يا لوفت ، فهو متعب ، وقد نال الارهاق منا جميعا » .

فأجاب لوفت بقوله : « وأنا ايضا متعب ، ولكننى لا ادع لشكوك الخيانة سبيلا إلى نفسى ! » . فقال هنتر : « قلت لك لا تدفعه إلى الجنون !.. هل تعرف اين ذهب الكولونيل ؟ » ، فقال لوفت : « إنه يكتب تقريره ، ويطلب النجدات .. إنها لمهمة اكبر مما كنا نظن ! » . فتساءل براكل فى لهفة : « هل سيفلح فى الحصول عليها .. تلك النجدات ؟ » .

— وكيف لى أن اعرف ؟

وابتسم توندر قائلا : « النجدات ! » .. ثم اردف يقول فى رقة : « أو لعله يطلب من يحل محلنا ، فنستطيع عندئذ العودة إلى الوطن وقضاء بعض الوقت فيه » .. ثم قال

وما زالت الابتسامة على شفتيه : « ولعلنى أستطيع السير فى الشارع فيرحب بى الناس ويقولون هاكم جندى ، ويستخفهم الطرب من أجلى ، وأدخل أنا الفرح والسرور إلى قلوبهم .. وسيلتف حولى الأصدقاء ، وسيكون فى استطاعتى أن أدير ظهرى لكل شخص دون أن أخشى شيئا ! » .

فقال براكل : « لا تبدأ هذا من جديد !.. لا تدعـه يفلت زمام أعصابه ثانية ! » .. وقال لوفت فى اشمئزاز : « كفانا المتاعب التى نلاقيها الآن ، فلا تزيدها بدفع أركان الحرب إلى الجنون ! » .

ولكن توندر استطرد يقول : « أتظن أنه سيأتى من يحل محلنا يا كابتن ؟ » .

— ولكنك قلت إن ذلك ممكن !

— قلت إننى لا أعلم !

— لقد غزونا نصف العالم ، ويجب أن نسيطر على النظام فيه فترة من الوقت .. إنك تعلم هذا !

فتساءل توندر : « والنصف الآخر ؟ » .. فأجاب لوفت قائلا : « سيقاتل فى استماتة فترة من الزمن » .

— إذن يجب أن ينتشر جنودنا فى أرجاء الأرض كلها !!

فأجاب لوفت : « لفترة وجيزة من الزمن ! » .. وهنا قال براكل فى انفعال : « ليتك تحمله على السكوت .. ليتك تستطيع إسكاته . دعه يسكت » .

وأخرج توندر منديله وتمخط ، ثم أخذ يتحدث كما يتحدث المخبول ، وضحك ضحكة تنم عن الحيرة والارتباك ، ثم قال : « لقد رأيت حلما عجيبا .. أعتقد أنه كان حلما ، وربما كان فكرة .. أجل ، قد يكون حلما ، وقد يكون فكرة ! » .. نهتف براكل : « أسكته يا كابتن ! » . ولكن توندر قال متسـائلا : « هل تم لنا غزو هذه البلاد يا كابتن ؟ » .. فقـال لوفت « طبعا ! » .

وشابت ضحكة توندر مسحة من الخبل ، وقال : « غزوناها ونخاف ؟.. غزونـاها ونحـن محاصرون ؟ » .. وارتفعت ضحكته مجلجلة وهو يقول : « لقـد رأيت حلما ، أو لعـله فكرة .. رأيت فى مثل ما يرى النـائم أننى فى ذلك الجليد مع الأشباح السوداء والوجـوه التى وراء الأبواب .. الوجوه الباردة التى خلف الستائر .. لعلها فكرة أو قد يكون حلما ! » .. فصرخ براكل : « اسـكتوه ! » . ولكن توندر استرسل قائلا : « حلمت بأن الزعيم مجنون ! » .

وأطلق لوفت وهنتر ضحكة مشتركة ، وقال لوفت : « لقد تبين الأعداء مدى جنونه .. سأكتب هذا الخبر إلى الوطن ، وستنشره الصحف . لقد علم الأعداء مدى جنون الزعيم ! » .

واستمر توندر فى ضحكه وهو يقول : « غزو فى إثر غزو ، وتوغل فى العسل الأسود ! » ، وغص حلقه بالضحك ، فسعل فى منديله وهو يقول : ربمـا كان الزعيم مجنونـا ، فالذباب يتغلب على ورق صيد الذباب !.. لقد استولى الذباب على مائتى ميل من ورق صيد الذباب الجديد ! .. وأخـذت

الهستيريا تطغى على ضحكته ، فمال براكل عليه وهزه بيده السليمة قائلا : « كفى ! ليس هذا من حقك ! » .

واخذ لوفت يدرك رويدا ان الضحكة باتت لونا من الهياج والخبل ، فاقترب من توندر وصفعه ، ثم قال : « كفى ايها الملازم ! » .. ولكن توندر مضى فى الضحك ، فصفعه ثانية وقال : « كف عن الضحك ايها الملازم ! اتسمعنى ؟ » .

وكف توندر عن الضحك ، وسكنت الحركة فى الغرفة ، فيما عدا أزيز المصباحين . ونظر توندر فى دهشة إلى يده ، وتحسس بها الخدوش التى أصابت وجهه ، ثم عاد ينظر إلى يده .. وطأطأ برأسه صوب المائدة وهو يقول : « أريد العودة إلى الوطن ! » .

الفصل السادس

وكان ثمة شارع صغير قريب من ميدان البلدة ، اختلطت فيه البيوت ذات السقوف المحدودبة بالمتاجر والحوانيت الصغيرة . وكان الجليد قد ازيل عن الشارع والرصيفين ، ولكنه ظل مكدسا على الأسوار وأسطح البيوت ، وقد اخذت الرياح تدفعه على نوافذ البيوت الصغيرة المغلقة المصاريع . كما شقت الطرق فى أفنية البيوت . وكانت الليلة ظلمة باردة ، وقد حجب الضوء حتى لا يتسرب من النوافذ فتراه قاذفات القنابل وتهتدى به .. كما كانت الشوارع مقفرة من المارة ، إذ ان أوامر حظر التجول كانت تنفذ تنفيذا صارما . وبدت البيوت كأنها كتل سوداء تقوم على الجليد . واخذت الداورية المؤلفة من ستة رجال تقطع الشارع بين الحين والحين متلصصة ، تختلس النظر ، وقد حمل كل رجل من افرادها مشعلا كهربائيا طويلا ، فكان لوقع اقدامهم صدى يتردد فى الشارع برغم حرصهم ، ولأحذيتهم صريف يسمع على الجليد الجامد .. وكانوا يبدون مجرد اجسام غاصت فى المعاطف السميكة ، كما كانت تحت خوذاتهم قلنسوات من الصوف نسجت باليد ، وانسدلت على الآذان ثم انسابت فغطت الذقون والأفواه . وسقط فى تلك الليلة قليل من الجليد .. مجرد كمية بسيطة ، تناثرت كحبات الأرز !

وكان رجال الداورية يتحدثون وهم يسيرون .. يتحدثون فى أمور طال بهم الشوق إليها ، كاللحم والمرق الساخن ودسم

الزبد وجمال الفتيات وإشراق ابتساماتهن وشفاههن وعيونهن
.. كانوا يتحدثون فى هذه الأمور ، وكانوا يتكلمون احيانا عن
مقتهم لما كانوا يؤدون من أعمال ، وما كان يكتنفهم من الوحدة !

وكان ثمة منزل صغير محدودب السقف يقع إلى جوار
متجر الحديد ، ويشبه المنازل الأخرى ، كما كان يعلوه الجليد
مثلها . ولم يكن ينبعث اى ضوء من نوافذه المغلقة ، كما ان
أبوابه المتينة ، المنيعة ، كانت مغلقة غلقا محكما .. اما فى
الداخل فكان ثمة مصباح مضاء فى غرفة الجلوس الصغيرة .
وكان الباب المؤدى إلى غرفة النوم مفتوحا ، والباب المؤدى
إلى المطبخ مفتوحا ، بينما استقرت فى الجدار الخلفى مدفأة من
الحديد تشتمل على فحم انبعثت منه نار صغيرة .. وكانت
الغرفة دافئة ، بادية الفقر ، ولكنها مريحة ، تغطى أرضيتها
سجادة بالية ، ويكسو جدرانها ورق بنى ضارب إلى الحمرة ،
طبعت عليه زهرة الزنبق العتيقة بلون ذهبى . وعلى الجدار
الخلفى كانت ثمة صورتان ، إحداهما لسمكة ميتة على طبق
من الأعشاب ، والأخرى لطائر ميت على فرع من شجر
الشربين . أما الجدار الأيمن فكان يحمل صورة للسيد المسيح
وهو يسير على الأمواج صوب الصيادين الذين تملكهم اليأس!
وكان فى الغرفة مقعدان مستقيما الظهر ، واريكة تغطيها ملاءة
ناصعة البياض ، بينما استقرت فى وسط الغرفة منضدة
مستديرة صغيرة وضع عليها مصباح يشتعل بالكيروسين ،
عليه مظلة مستديرة رسمت عليها زهور .. وكان الضوء فى
الغرفة دافئا ناعما . وإلى جانب المدفأة ، قام الباب الداخلى

الذى كان يفضى من الباب الخارجى المنيع إلى الغرفة ، عبر
الدهليز !

* * *

وكانت مولى موردن تجلس وحيدة فى مقعد متأرجح
مبطن بالوسائد ، بجوار المنضدة فى الغرفة ، وقد راحت تفك
الصوف من صديرية زرقاء قديمة وتلفه على بكرة ، حتى
اصبح كرة كبيرة ضخمة . وعلى المنضدة استقر الغزل الذى
كانت تنسجه ، وقد غرست فيه الابرتان ، وإلى جانبه مقص
كبير .. كذلك كانت نظارتها على المنضدة بجوارها ، فلم تكن
بها حاجة إليها فى شغلها . وكان شعر مولى الذهبى مرفوعا
إلى قمة رأسها ، وقد رشقت فيه شريطا بشكل (فيونكة) ..
كانت شابة أنيقة جميلة ، ذات خفة وسرعة فى فك خيوط
الصوف . وكانت ترمق الباب المؤدى إلى الدهليز — من حين
إلى آخر — وهى تشتغل ، بينما مضت الرياح تصفر فى المدخنة
صفيرا هادئا لطيفا . بيد أنها كانت ليلة هادئة على وجه عام ،
طواها الجليد فى طياته !

وتوقفت مولى فجأة عن عملها ، وسكنت يداها ، ونظرت
إلى الباب وهى تصيخ السمع ، فإذا بوقع اقدام رجال الداورية
يمر بالبيت ، واصواتهم تصل إلى أذنيها خافتة ، ثم ما لبثت
ان اضمحلت وتلاشت . وفكت مولى خيوطا جديدة لفتها حول
البكرة ، ثم عادت فتوقفت ، إذ سمعت حفيفا عند الباب ثم
تلته ثلاث طرقات قصار .. وضعت مولى شغلها ، وقصدت
الباب ، وقالت : « نعم ؟ » .

واعملت المفتاح فى القفل ، وفتحت الباب ، فدلف إلى الداخل شخص تدثر بعباءة ثقيلة .. وإذا بها آنى الطاهية .. وكانت حمراء العينين ، وقد التفت بكثير من الوشاحات . ومرت من الباب بسرعة كأنها قد تمرست على المروق من الأبواب ، وألفت إغلاقها خلفها .. ووقفت حمراء الأنف ، تخن وتتنفس بعناء ، وهى تلقى نظرات سريعة على الغرفة . وما لبثت مولى أن قالت : « طاب مساؤك يا آنى ، لم اكن اتوقع حضورك الليلة . اخلعى ملابسك الخارجية ، وتعالى خذى قسطا من الدفء ، فالطقس بارد فى الخارج ! » . فقالت آنى : « لقد جاء الجنود بالشتاء مبكرا .. كان ابى يقول دائما ان الحرب تأتى معهـا بالطقس الردىء ، او ان الطقس الردىء يأتى معه بالحرب ، لا اذكر ايهما ! » .

ــ اخلعى ملابسك الخارجية وتعالى إلى المدفأة .

فقالت آنى فى لهجة حملتها اهمية ما ستقول : « لا استطيع هـذا ، فانهم قادمـون » .. وسـألتها مولى : « من هم القادمون ؟ » .. فأجابت آنى : « صاحب السعادة والطبيب والاخوان أندرس » .

وتساءلت مولى قائلة : « هنا ؟ ولمـاذا ؟ » .. فمدت آنى إليها يدها ، وقد انقبضت على لفة صغيرة ، وقالت : « إليك هذه ، فقد سرقتها من طبق الكولونيل . إنه لحم ! » .

ونزعت مولى الغلاف عن قطعة اللحم ووضعتها فى فمها ، ثم قالت وهى تلوكها : « هل تناولت شيئا من هذا اللحم ؟ »

.. فأجابت آنى بقولها : « ألست أنا التى اطهيـه ؟ إننى اتناول بعض ما اطهى دائما ! » .

ــ ومتى يأتون ؟

فجذبت « آنى » الهواء خلال أنفهـا « المزكـوم » وهى تقول : « إن الأخوين اندرس سيبحران إلى إنجلترا ، فانهما مكرهان على الرحيـل ، وهما مختبئان الآن » .. فتساءلت مولى : « حقا ؟ ولم ؟ » .

ــ لقد قتل اخوهما جاك اليوم جزاء تحطيمه تلك السيارة الصغيرة ، والجنود يبحثون الآن عن بقية أفراد الأسرة .. وانت تعلمين ما قد يفعلون بهم !

واجابت مولى قائلة : « اجل ، إننى اعلم ماذا يفعلون .. اجلسى يا آنى ! » .. فقالت الطاهية : « إن وقتى ضيق ، إذ يجب على ان أعود لأطمئن صاحب السعادة إلى ان كل شىء بخير هنا ! » .. فسألتها مولى : « هل رآك احد قادمة » .. وإذ ذاك ابتسمت آنى فى زهو وخيلاء ، وقالت : « كلا ، فانى اجيد التسلل تماما » .

ــ وكيف سيخرج العمدة ؟

وضـحكت آنى وهى تقـول : « سيحتل جوزيف فراش العمدة خشية أن يسعوا للتحقق من وجوده .. بل سيرتدى قميص نوم العمدة ، ويتمدد إلى جوار السيدة ! » ، ثم اطلقت ضحكة أخرى وقالت : « يجدر بجوزيف أن يلتزم أقصى درجات السكون فى رقاده ! » .

وقالت مولى : « إنه لمن البلاء الإقلاع فى البحر فى مثل هذه الليلة ! » .

ـــ ولكنه أفضل من الإعدام رميا بالرصاص !

ـــ اجل ، إنك على حق .. ولماذا يأتى العمدة إلى هنا ؟

ـــ لست أدرى .. لعله يريد محادثة الأخوين اندرس !.. يجب أن انصرف الآن ، فما جئت إلا لأخبرك !

وسألتها مولى : « ومتى يأتون ؟ » .. فأجابت آنى قائلة : « بعد نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة.. وسآتى أنا أولا ، إذ ليس هناك من يهتم بالطاهيات المسنات ! » .. ودلفت إلى الباب ثم التفتت فى منتصف الطريق ، وكأنها تؤاخذ مولى ، كما لو كانت هى التى نطقت بالعبارة الأخيرة . وقالت : « لم تتقدم بى السن إلى هذا الحد ! » ، ثم انفلتت من الباب وأغلقته خلفها .

* * *

واستمرت مولى تشتغل بالإبرة برهة ، ثم نهضت وذهبت إلى الموقد ، فرفعت عنه الغطاء .. واضاء وهج النار وجهها ، بينما حركت الفتاة النار وأضافت إليها بعض قطع الفحم ثم أغلقت الموقد كما كان . وقبل أن تصل إلى مقعدها سمعت طرقا على الباب الخارجى ، فعبرت الغرفة وقالت تحدث نفسها : « ترى ماذا نسيت آنى ؟ » . وقطعت الدهليز وهى تقول : « ماذا تريدين ؟ » .. وأجابها صوت رجل ، ففتحت الباب ، وإذا بها تسمع رجلا يقول : « إننى لا أقصد

بك شرا ، إننى لا أقصد بك شرا » .. فتراجعت مولى إلى الغرفة ، بينما تبعها الملازم توندر . فقالت مولى : « من أنت؟ وماذا تريد ؟ ليس لك حق الدخول إلى هنا . ماذا تريد ؟ » .

وكان الملازم توندر يرتدى معطفه الرمادى الكبير . ودخل الغرفة ، وخلع خوذته ، ثم قال متوسلا : « لا أقصد بك شرا ، أرجوك السماح لى بالدخول ! » .. فقالت مولى : « وماذا تبغى ؟ » .. واغلقت الباب خلفه ، فقال : « إنما أريد أن أتكلم يا آنستى ، أريد أن أسمعك وأنت تتكلمين ، هذا كل ما أبغيه ! ».. فهبت مولى تسأله : « أتفرض نفسك على ؟ » .

ـــ كلا يا آنستى ، وإنما دعينى أبقى برهة ، وسأنصرف من تلقاء نفسى !

ـــ ما الذى تريده ؟

وحاول توندر أن يشرح لها الأمر: « ايمكنك أن تفهمى هذا ؟ أيمكنك أن تؤمنى به ؟.. الا يمكننا أن ننسى هذه الحرب برهة؟ برهة وجيزة !.. الا يمكننا أن نتحدث كما يتحدث غيرنا من الناس برهة وجيزة .. معا ؟! » .

ونظرت إليه مولى طويلا ، ثم افتر ثغرها عن ابتسامة وقالت : « إنك لا تعرفنى ، أم تراك تعرفنى ؟ » .. فأجاب : « لقد شاهدتك فى البلدة ، وأعرف أنك جميلة ، وأعرف أننى أتوق إلى محادثتك ! » .. فقالت مولى فى لهجة رقيقة ، والابتسامة ما تزال تداعب شفتيها : « إنك لا تعلم من أنا » ، ثم جلست فى مقعدها بينما وقف توندر كأنه الطفل تبدو عليه الحيرة والارتباك . وأردفت مولى تقول فى هدوء: «إنك تشعر بالوحدة ، هو هذا .. أليس كذلك ؟ »

ولعق توندر شفتيه ، واخذ يقول فى جد : « اجل هو هذا . . إنك تدركين ! كنت اعلم انك ستدركين ، بل كنت احس انك ستدفعين إلى هذا دفعا ! » ، وانطلقت الكلمات من فمه يزاحم بعضها بعضا : « إننى وحيد حتى لأشعر بالمرض من الوحدة . . إننى وحيد فى هذا الهدوء الشامل وهذا الحقد الجامح ! » . . واسترسل فى توسل وابتهال : « الا نستطيع ان نتحدث برهة وجيزة ؟ » .

والتقطت مولى شغلها ، والقت نظرة عاجلة على البـاب الأمامى ، ثم قالت : « يمكنك ان تبقى ربع ساعة على الأكثر . . اجلس قليلا ايها الملازم ! » . . وعادت تلقى نظرة اخرى على الباب ، فسرى إلى آذانهما صـوت صريف بعض أخشـاب البيت ، وإذا بأعصـاب توندر تتوتر وهو يسألها : « ايوجد احد فى المنزل ؟ » .

ــ كلا ، ولكن الجليد قد ثقل على السقف ، ولم يعـد لى رجل يدفعه إلى اسفل !

فقال توندر فى رقة : « ومن الذى حرمك منـه ؟ اهو عمل من صنعنا ؟ » . . واومأت مولى براسها ، وقالت وهى تنظر بعيدا : « نعم » . فقال وهو يجلس : « إننى آسـف » ، ثم استطرد بعد لحظة يقول : « ليتنى استطيع شيئا . سأعمل على دفـع الجليـد عن السـقف ! » . . فقـالت مولى : « كلا ، كلا ! » .

ــ ولم لا ؟

ــ لئلا يعتقد الناس اننى انضـممت إليكم فيطردوننى ، وانا لا اريد ان اطرد !

وقال توندر : « اجل . . إننى لأدرك تاثير هـذا ، فانكم جميعا تكرهوننا ، ولكننى سأسهر عليك إذا سمحت بذلك ! » .

* * *

وادركت مولى انها استعادت السيطرة على نفسها فى تلك الأثناء ، فضاقت عيناها فى شىء من القسوة وقالت : « لمـاذا تسألنى ؟ إنك الغـازى ، ورجالك لا يسـألون بل يأخذون ما يريدون ! » . . فقال توندر : « ليس هذا ما اريد ، ولا هذا هو السبيل الذى اسلكه لأنال ما اريد ! » .

وضحكت مولى وما زالت لهجتها تنبىء بالقسوة : « تريدنى ان اعجب بك . . اليس كذلك ايها الملازم ؟ » . . فقال ببسـاطة: «اجل» . . ورفع راسه ثم اردف يقول : «إنك لشديدة الفتنة، شديدة الدفء ، وشعرك لامع متالق ! إننى لم ار عطفا يفيض من وجه امراة منذ امد بعيد ! » .

فسألته : « وهل ترى عطفا فى وجهى ؟ » . . فحدق فيها ثم قال : « اريد ان اراه » . . وخفضت بصرها آخـر الأمر وقالت : « إنك تطارحنى الغرام . . اليس كذلك ايها الملازم؟» . . فاجابها وهو لا يدرى ما يقول : « اريدك ان تعجبى بى ! . . لا شك فى اننى اريد ان تعجبى بى . . بل لا جدال فى اننى اريد

مشاهدة هذا فى عينيك !.. لقد رايتك فى الطرق ، وراقبتك وانت تمرين بى ، واصدرت الأوامر بألا يعاكسك احد ، فهل ثمة من عاكسك ؟ » .

واجابته مولى فى هدوء وسكينة : « شكرا لك ، كلا لم يعاكسنى أحد » .. فتدفقت الكلمات من فمه وهو يقول : « بل إننى كتبت قصيدة لك ! أتحبين ان تطلعى على قصيدتى ؟ » .. فسالته متهكمة : « اهى قصيدة طويلة؟ إن عليك ان ترحل بعد فترة وجيزة » .. فاجاب : « كلا ، إنها قصيدة صغيرة جدا .. قصيدة غاية فى الإيجاز » . ودس يده فى جيب سترته فأخرج ورقة قدمها إليها ، فمالت بقرب المصباح ، ووضعت نظارتها على عينيها ، وشرعت تقرا فى هدوء :

إن عينيك وهما فى زرقتهما العميقة
قد استولتا على ، ولن تفارقانى !
منهما انبثق نبع من الأفكار السماوية
يندفع ويتدفق على قلبى !

وطوت الورقة ووضعتها فى حجرها ، ثم سالته : « هل كتبت انت هذه القصيدة ايها الملازم ؟ » .

— أجل !

فسألته ، وقد شاب لهجتها شيء من التقريع : « وكتبتها إلى ؟ » .. فأجابها توندر وقد اخذ القلق يتملكه : « أجل ! » .. فحدقت فيه ثم ابتسمت وقالت: «إنك لم تكتب هذه القصيدة

ايها الملازم .. اليس كذلك ؟ » ، فابتسم ابتسامة الطفل الذى افتضح كذبه وقال : « كلا » .

وسالته مولى : « أتعرف ناظمها ؟ » ، فقال توندر : « أجل ، فهو هيلينى .. لقد احببت هذه القصيدة دائما ! » .. وضحك وقد اعتراه الخجل ، فضحكت مولى معه ، ووجدا نفسيهما على حين بغتة يضحكان معا ، ثم كف توندر عن الضحك على حين فجاة ايضا ، وخيم الحزن على عينيه وهو يقول : « لم اضحك هكذا منذ وقت لا تعيه ذاكرتى! » ، ثم استرسل يقول : « لقد اخبرونا بان الناس سيحبوننا ، وسيعجبون بنا ، ولكن الحال ليست كما اخبرونا ، فالناس يكرهوننا ! » ، ثم غير الموضوع كانه يقاوم الزمن : « إنك لفاتنة ، بل إنك فى جمال الابتسامة المشرقة ! » .

وقالت مولى : « لقد بدات تطارحنى الغرام أيها الملازم ، ويجب ان تنصرف بعد لحظة ! » .. فقال توندر : « لعلنى أريد ان اطارحك الغرام فعلا ، إذ ليس للرجال غنى عن الحب ، وإذا حرم الحب مات ، إذ تذبل احشاؤه ويصبح صدره وكأنه الشظية الجافة .. إننى وحيد ! » .. ونهضت مولى عن مقعدها ونظرات بعصبية إلى الباب ، ثم سارت إلى الموقد ، ولما عادت كانت ملامحها قد اكتسبت قسوة وصرامة ، ولاحت الرغبة فى الانتقام فى عينيها ، وقالت له : « اتريد أن تشاركنى فراشى ايها الملازم ؟ » .

— لم اقل هذا !.. لماذا تتكلمين بهذه اللهجة ؟

واجابت مولى بلهجة انطوت على القسوة : « لعلنى أحاول

أن احملك على الاشمئزاز منى ، فلقـد تزوجت مرة ، ومات زوجى ، فها انت ترى أننى لست بكرا ! » .. وشاعت المرارة فى صوتها . فقال توندر : « إنما اريد ان تولينى ودك ! » .. فقالت مولى : «إننى لأدرك هذا، فأنت رجل متمدين، وتعرف أن مطارحة الحب لا تكون اتم واوفى وابهج إلا إذا اقترنت بالود ايضا ! » .

وهتف توندر يقـول : « لا تتحدثى هكذا ! ارجـوك الا تتحدثى هكذا ! » .. فرمقت مولى الباب بنظرة سريعة وقالت : « نحن قوم غلبنا على امرنا ايها الملازم . لقد منعتم عنا الطعام، وانا جائعـة ، وسأودك اكثر إذا انت اطعمتنى » .. فهتف توندر : « ما الذى تقولين ؟ » .

ـ هل ابعث فى نفسك الاشمئزاز منى ؟ ربما كنت أحاول هذا .. إن اجرى سجقتان !

وصرخ توندر قائلا : « لا تسترسلى فى هذا الحديث » .

ـ وماذا كانت عليه حال فتياتكم بعد الحرب الأخيرة ؟ كان بوسع الرجل ان يختار من بينهن من تروق له لقاء بيضة او كسرة خبز .. افتريد أن تنالنى دون مقابل ايهـا الملازم ؟! اترى أن الأجر جد مرتفع ؟

فأجابها قائلا : « لقد خدعتنى لحظـة ، ولكنك تكرهيننى انت الأخرى .. اليس كذلك ؟ كان يخالجنى الشك فى هذا » . فقالت : « كلا ، إننى لا اكـرهك ، ولكننى جائعـة و .. وأكرهك ! » .

وأجابها توندر بقوله : « سأعطيك كل ما تحتاجين إليـه ، ولكن .. » .

فقاطعته قائلة : « أتريد أن تطلق على اسما آخـر ؟ أنت لا تريد مومسا .. أهذا ما تعنى ؟ » .

فأجابها توندر : « لا ادرى ما الذى أعنى .. فقد جعلت الشىء الذى أبغيه يبدو مثقلا بالكراهية ! » .

فضحكت مولى وقالت : « ليس الجوع بالشىء المستحب . إن سجقتين ، سجقتين كبيرتين دسمتين قد تصبحان ـ مع الجوع ـ اغلى ما فى هذا العالم ! » .

فقال لها : « لا تتفوهى بهـذه العبارات .. أرجـوك الا تفعلى ! » .

ـ لم لا ، إنها لحقيقة صادقة !

ـ لا ، إنها ليست صادقة !.. لا يمكن أن تكون صادقة !

وتطلعت إليه لحظة ، ثم جلست واخذت تحدق فى حجرها ، وقالت : « كلا .. إنها ليست صادقة .. فأنا لا اكرهك ، بل إننى اشعر بالوحـدة انا الأخـرى .. والجليد يثقـل على السقف ! » .

فنهض توندر واقترب منها ، وضم إحـدى يديها بين يديه وقال فى رفق : « ارجوك الا تكرهينى ، فما انا إلا ملازم .. إننى لم اطلب المجىء إلى هنـا .. ولا اخترت انت أن تكونى من اعدائى .. إنما انا رجل ، ولست غازيا ! » .



وطوقت أصابع (مولى) يديه لحظة ، ثم قالت فى رقة :
« أعرف هذا ، أجل أعرفه ! » .

وطوقت أصابع مولى يديه لحظة ، ثم قالت فى رقة : « أعرف هذا ، أجل اعرفه ! » .. فقال توندر : « إن لنا بعض الحق فى الحياة وسط كل هذا الموت ! » .. فرفعت يدها إلى خده لحظة ، ثم قالت : « أجل ! » .. وقال : « لسوف أسهر عليك ، فان لنا بعض الحق فى الحياة وسط كل هذا الاغتيال » .. واستقرت يده على كتفها .. وعلى حين غرة ، تصلبت أطرافها واتسعت عيناها وحملقتا كأنهما رأتا شبحا ، فتراخت يده عن كتفها ، ثم سألها : « ما الخبر ؟ ماذا جرى ؟ » ، وكانت عيناها تحدقان إلى الأمام ، فكرر قوله : « ما الخبر؟ » .

وتحدثت مولى وكأنها انتقلت إلى عالم آخر بسحر غريب : « لقد عاونته على ارتداء ملابسه كأنه طفل يذهب إلى المدرسة لأول مرة .. وكان خائفا ، فزررت له قميصه ، وحاولت أن أسرى عنه ، ولكنه كان فى حال يتعذر معها التسرية .. كان خائفا ! » .. فهتف توندر : « ماذا تقولين ؟ » .

وبدا على مولى أنها تصف منظرا بدا لعينيها ، فاستطردت تقول : « لست أدرى لماذا تركوه يعود إلى الدار .. وكان حائرا مرتبكا .. لم يكن يعلم ماذا يجرى ، بل إنه لم يقبلنى عندما رحل ، فقد كان خائفا .. وكان شجاعا جدا !.. كأنه طفل يذهب إلى المدرسة لأول مرة ! » .

فنهض توندر وقال : « هل كان هذا زوجك ؟ » .. فأجابت مولى : « أجل ، كان هو زوجى !.. وذهبت إلى العمدة ، ولكنه كان عاجزا ، لا حول له ولا قوة .. ثم سار زوجى فى خطى بطيئة مهتزة .. وأخذتموه وأطلقتم عليه الرصاص

فقتلتموه . كانت غرابة الأمر وقتئذ تفوق فظاعته ، وكدت الا اصدقه فى ذلك الحين ! » .. فعاد توندر يتساءل : « زوجك ؟! » .

ـــ اجل !.. على اننى أصبحت الآن أصدق ما حدث ، إذ يخيم السكون على المنزل . إننى اصدق الآن ما حدث ، إذ يتراكم الجليد على السقف .. بل واعرف انه حقيقة ، فى الوحدة التى الاقيها فى الفراش الذى لا يكمل دفؤه قبل ان ينبلج الصبح !

ووقف توندر امامها وقد لاحت امارات التعاسة على وجهه ، وقال : « طابت ليلتك ، فليحفظك الله ، هل اعود ؟ » .. فتطلعت مولى إلى الجدار واستعادت ذكرياتها ثم قالت : « لست أدرى » .

ـــ ساعود !

ـــ لست أدرى .

فنظر إليها ثم دلف إلى الخارج فى هدوء ، وما زالت مولى تحملق فى الجدار ، وتتمتم : « فليحفظنى الله ! » .

* * *

وظلت مولى برهة تحملق فى الحائط ، ثم فتح الباب فى هدوء ودخلت « آنى » .. ولم تشعر بها مولى ، بل إنها لم ترها !.. وقالت آنى تؤنبها : « لقد كان الباب مفتوحا » .. فأدارت مولى نظراتها إليها وما زالت عيناها على اتساعهما ، وقالت : « اجل ، اجل يا آنى ! » .

ـــ كان الباب مفتوحا ، وقد خرج منه رجل . لقد رأيته .. كان يبدو كالجندى !

وقالت مولى : « اجل يا آنى » .

ـــ أكان الذى هنا جنديا ؟

ـــ اجل ، كان جنديا !

وسألتها آنى وقد ثارت شكوكها : « ماذا جاء يفعل هنا ؟ » .

ـــ جاء يطارحنى الغرام !

وقالت آنى : « ماذا تفعلين يا سيدتى ؟ .. أتراك انضممت إلى صفوفهم ؟ هل انت معهم مثل كوريل ؟ » .

ـــ كلا ، لست معهم يا آنى .

وقالت آنى : « إذا عادوا والعمدة هنا ، فسيقع عليك وزر أى مكروه يحدث .. سيكون الذنب ذنبك ! » .

ـــ لن يعود .. لن ادعه يعود !

ولكن الشكوك لم تزايل آنى ، فقالت : « هل اخبرهم ان ياتوا الآن ؟ . اتظنين ان المكان مأمون ؟ » .

ـــ اجل ، إنه مأمون . اين هم ؟

فقالت : « إنهم فى الخارج ، خلف السياج » .

ـــ دعيهم يدخلون !

وخرجت آنى ، فنهضت مولى ونسقت شعرها ، وهزت رأسها محاولة أن توقظ نفسها من سباتها .. وسمع صوت ضئيل فى الدهليز ، ثم دخل شابان طويلان أشقران ، يرتديان

سترتين فى لون الحمص ، وصديرتين سوداويتين ، وقبعتين مصنوعتين من الجوارب استقرتا على رأسيهما .. وكانت القوة بادية عليهما ، وقد لوحتهما الرياح .. وكان الناظر إليهما يحسبهما توأمين . ذانك هما : ويل اندرس ، وتوم أندرس ، صيادا السمك .

ـ طاب مساؤك يا مولى . هل سمعت الخبر ؟

ـ لقد نقلته آنى إلى .. إن الرحيل فى ليلة كهذه لأمر شاق !

فقال توم : « إنها لأفضل من الليلة الصافية ، فالطائرات ترى الشخص فى الليلة الصافية .. ماذا يريد العمدة يا مولى ؟ » .

ـ لست ادرى ، ولقد نمى إلى ما وقع لأخيك ، وإننى لآسفة !

وساد الصمت بين الاثنين ، وتملكتهما الحيرة ، ثم قال توم : « إنك أدرى من الكثيرين بوقع هذا الأمر ! » .

ـ أجل ، إننى أعرف وقعه !

وجاءت آنى إلى الباب ثانية ، وقالت تهمس فى صوت أجش : « لقد جاءا ! » .. ودخل العمدة أوردن والدكتور وينتر ، فخلعا معطفيهما وقبعتيهما ووضعاها على الأريكة . وذهب أوردن إلى مولى وطبع قبلة على جبينها ، وهو يقول : « طاب مساؤك يا عزيزتى » .. ثم التفت إلى آنى وقال :

« قفى فى الدهليز يا آنى ، واطرقى الباب طرقة عند مرور الداورية ، واخرى عند انصرافها ، ثم طرقتين فى حالة الخطر ، ويمكنك أن تتركى الباب الخارجى مفتوحا قليلا حتى إذا قدم أحد سمعته » .

فأجابت آنى قائلة : « سمعا وطاعة يا سيدى » . وذهبت إلى الدهليز بعد أن أغلقت باب الغرفة خلفها .

وكان الدكتور وينتر عند المدفأة ، يلتمس الدفء ، فقال : « بلغنى أنكما راحلان الليلة يا بنى » .. فقال توم : « إننا مكرهان على الرحيل » .. وأومأ أوردن وهو يقول : « أجل ، أعرف هذا ، وقد علمنا أنكما ستأخذان المستر كوريل معكما » . وضحك توم ضحكة مريرة وهو يقول : « لقد خيل إلينا أن هذا هو الصواب ، فاننا سنأخذ قاربه ، ولا نستطيع ان نتركه هو هنا ، إذ ليس من الخير مشاهدته يمرح فى الشوارع ! » .. فقال أوردن فى لهجة تنم عن الحزن والأسى : « ليته رحل !.. ولكن من الخطر عليكما أن تأخذاه معكما » .. فردد ويل قول أخيه : « ليس من الخير مشاهدته فى الشوارع .. ليس من الخير للناس أن يروه هنا » .

وسألهما وينتر قائلا : « هل يمكنكما أخذه ؟ أليس هو على شىء من الحرص ؟ » .

ـ بل إنه حريص بعض الشىء . على انه ألف العودة إلى منزله فى الساعة الثانية عشرة وسنكون خلف السور ، وأعتقد أننا نستطيع نقله من حديقته إلى الماء ، فان قاربه يرسو هناك ، وقد ذهبنا إلى القارب اليوم وأعددناه للرحيل .

وعاد أوردن يقول : « كنت أتمنى لو أن الظروف لم تكرهكما على هذا ، فان فيه مزيدا من الخطر ، إذ ان الداورية قد تشعر بكما لو انه اثار اية ضجة » .. فقال توم : « إنه لن يثير ضجة ، ومن الخير أن يختفى فى البحر ، فان بعض أهل البلدة قد يقضون عليه ، فتقع حوادث قتل كثيرة .. كلا ! من الأفضل أن يخرج إلى البحر ! » .

والتقطت مولى شغلها وقالت : « هل ستلقيان به إلى البحر ؟ » .. فسرت حمرة الخجل فى وجه ويل وهو يقول : « سيخرج إلى البحر يا سيدتى ! » .. ثم التفت إلى العمدة متسائلا : « أكنت تريد مقابلتنا يا سيدى ؟ » .

— أجل ، أريد محادثتكما .. لقد حاولت أنا والدكتور وينتر أن نفكر .. فقد كثر الحديث عن العدل والظلم والغزو . لقد تعرض شعبنا للغزو ، ولكننى لا اعتقد انه غلب على أمره ! » .

* * *

وسمعت طرقة حادة على الباب ، فخيم السكون على الغرفة . وتوقفت ابرتا مولى عن عملهما ، وظلت يد العمدة ممدودة فى الهواء ! وكان توم يحك أذنه ، فترك يده حيث هى ، وكف عن الحك !.. وظل كل من فى الغرفة بلا حراك ، وتحولت الأعين كلها صوب الباب . وجاء صوت وقع أقدام الداورية خافتا ، ثم أخذ يشتد شيئا فشيئا . وسمعوا صريف احذية رجالها على الجليد ، وصوت حديثهم وهم يمرون .. وما لبثوا

ان جاوزوا الباب ، ثم أخذ وقع اقدام الرجال يخف رويدا وهم يبتعدون .. وسمعت طرقة أخرى على الباب ، فتنفس كل من فى الغرفة الصعداء !

وقال أوردن : « لابد أن الطقس بارد فى الخارج لا تقوى عليه آنى » ، ثم أخذ معطفه من فوق الأريكة وفتح الباب الداخلى ، ومد يده بالمعطف قائلا : « ضعى هذا حول كتفيك يا آنى ! » .. ثم اغلق الباب وهو يقول : « لست ادرى ماذا كنت افعل بدونها ، فانها تذهب إلى كل مكان ، وترى وتسمع كل شىء ! » .

وقال توم : « يجب ان نرحل فى الحال يا سيدى » .. فقال وينتر : « ليتكما لا تفكران فى كوريل » .. فقال الشاب : « لا نستطيع هذا ، فليس من الخير مشاهدته فى الشوارع! » ، ونظر متسائلا إلى العمدة أوردن ، فشرع هذا يقول ببطء : « أريد ان يكون حديثى معكما بسيطا واضحا .. هذه بلده صغيرة ، والعدل والظلم فيهما يتمثلان فى أمور بسيطة .. فلقد أعدم أخوكما وأعدم الكس موردن أيضا .. وكان هذا الإعدام وذاك باسم الانتقام من خائن . وقد ثارت ثائرة الناس غضبا وحقدا ، ولا سبيل لهم إلى رد العدوان ، ولكن كل هذا على قدر محدود .. إنه شعب ضد شعب ، وليست فكرة ضد فكرة ! » .

وقال وينتر : « من الغريب أن يفكر طبيب فى الإبادة والإفناء ، ولكننى اعتقد ان كل من غزيت أرضه تستبد به الرغبة فى المقاومة .. إننا قوم عزل ، ولا تكفى روحنا المعنوية

ولا أجسامنا .. فان الروح المعنوية لرجل أعـزل سرعـان ما يدركها الضعف ويتطرق إليها الوهن ! » .

وتساءل ويل أندرس قائلا : « نعم كل هـذا يا سيدى ؟ ماذا تريد منا ؟ » .. فقال أوردن : « نريد قتالهم ولا نستطيع إلى هذا سبيلا .. إنهم يحاربون الناس بالجوع الآن ، والجوع يورث الضعف . انكما ستبحـران إلى إنجلترا ، ولعلكما لن تجدا اذنا صاغية ، ولكن انقلا إليهم عنـا — نحن أهل هـذه البلدة الصغيرة — أننا فى حاجة إلى السلاح ! » .

وسأل توم : « اتريدون بنادق ؟ » .

وسمعت طرقة سريعة على الباب ، فجمد كل من كان فى الغرفة حيث هو . وجاء من الخارج صوت وقع أقدام الداورية مرة أخرى ، ولكنهم كانوا يسرعون الخطى فى هذه المرة ، بل يركضون . وأسرع ويل صـوب البـاب .. وحاذت خطى الرجال المسرعين باب البيت ، وسمعت أوامر مبهمـة ، ثم هرعت الخطى فى طريقها ، وطرق الباب طرقة أخرى .

وقالت مولى : « لابد أنهم يطاردون شخصا ، ترى من يكون هذه المرة ؟ » .. فقال توم فى قلق : « لقد حان موعد رحيلنا . اتريدون بنادق يا سيدى ؟ هل نطلب البنادق ؟ » .

— كلا ، بل اشرح لهم الموقف كما هو عليه الآن . قل لهم إننا مراقبون ، وان اية حركة نقوم بها تقابل بالانتقام ، وأن بودنا الحصول على أسلحة بسيطة .. اسلحة سرية تستخدم

خفية ، كالمفرقعات والديناميت ، لنسف السكة الحديدية .. والقنابل اليدوية إذا أمكن .. بل والسم ايضا !. ثم أردف يقول والغضب يتملكه : « ليست هذه حربا شريفة ، بل هى حرب خداع وقتل ، فلنحارب بالوسائل التى حوربنا بها .. فلتلق قاذفات القنابل البريطانية قنابلها على المصانع ، ولكن فلتلق إلينا نحن ايضا بقنابل صغيرة نستعملها ونخفيها ونضعها سرا تحت الخطوط الحديدية وتحت الصهاريج ، وبذلك يتم تسليحنا .. تسليحنا خفية ، ولن يعلم الغازى قط من منـا المسلح ! فلتأت لنا قاذفات القنابل بأسلحة بسيطة ، وسنعرف كيف نستخدمها » .

وهتف وينتـر يقـول : « لن يعـرفوا من اين تنـزل بهم الضربات .. لن يعرف الجنود ولا الداوريات مطلقا من منـا المسلح » .. فمسح توم جبهته وقال : « سننقل إليهم هـذا يا سيدى ، إذا افلحنا فى الهـرب . ولكننى سمعت أن الذين يتولون الحكم فى إنجلترا رجال لا يهتمون بتسليح عامة الشعب» .. فحملق أوردن فيه وقال : « لم افكر فى هذا ، وليس لنا إلا ان ننتظر ما سوف يقولون.. ولو أن مثل هؤلاء القوم ما يزالون يحكمون إنجلترا وأمريكا ، فقل على العـالم السـلام !.. انقل إليهم ما قلنا إذا استمعوا إليك !.. يجب ان نحصل على معاونة ، وما ان تصلنا .. » ، ثم قست ملامح وجهه وأردف يقول : « إذا وصلتنا فسنعاون انفسنا ! » .

وقال وينتر : « ليتهم يعطوننا حتى الديناميت لنخفيه .. لندفنه فى الأرض حتى يكون فى متناول ايدينا عند الحاجة ..

ولن يعرف الغازى الراحة بعد هذا قط !.. سننسف مخازن مؤنه وذخائره » .

❊ ❊ ❊

وطغت على الغرفة موجة من الحمية والحماس ، فقالت مولى فى شــدة وعنف : « أجــل ، نســتطيع بذلك ان نقض مضاجعه ، وان نتلف اعصــابه ، ونجعل من يقينــه شــكا وريبة ! » .

وسأل ويل فى هدوء : « اهذا كل ما تطلب يا سيدى ؟ » .. فأومأ اوردن براسه وقال: « نعم ، هذا هو لب الموضوع ».

ــ وإذا ابوا الاستماع إلينا ؟

ــ ما عليك إلا المحاولة ، كما ستحاول عبور البحر الليلة !

ــ الا تريد شيئا آخر يا سيدى ؟

وفتح الباب ودخلت آنى فى هدوء ، بينما مضى أوردن يقول : « هذا كل ما فى الأمر ، فاذا كان موعد رحيلكما قد حل فلأرسل آنى إلى الخارج لتطمئن إلى سلامة الطــريق » .. ثم نظــر فراى ان آنى قد جاءت من الخارج . وقالت آنى : « هنــاك جندى قادم ، وهو يشبه الجندى الذى كان هنا من قبل .. فقد كان هنا جندى مع مولى قبل الآن » .

ونظر الآخرون إلى مولى ، بينما قالت آنى : « لقد اغلقت الباب » .. فتساءلت مولى : ماذا يريد ؟ ما الذى يدعوه إلى العودة ؟ » .

وسمع صوت طرق رقيق على البــاب الخارجى ، فذهب أوردن إلى مولى وسألها قائلا : « ما هذا يا مولى ؟ هل أنت فى مأزق ؟ » .. فأجابته : « كلا ، كلا ! أخرجوا من الباب الخلفى .. يمكنكم الخروج من الباب الخلفى . وأسرعوا ! اسرعوا إلى الخارج ! » .

واستمر الطرق على الباب الأمامى ، وكان صــوت رجل ينادى فى رقة ولطف . وفتحت مولى الباب المؤدى إلى المطبخ وقالت : « أسرعوا ! أسرعوا » .. فوقف العمدة أمامها وقال: « هل انت فى مأزق يا مولى ؟ ما اظنك ارتكبت ذنبا ؟ » . فقالت آنى فى لهجة شابها البرود : « يبدو انه هو نفس الجندى ، فلقد زارها جندى من قبل ! » . وقالت مولى موجهة الحديث إلى العمدة : « اجل ، لقــد زارنى هنا جنــدى من قبل » .. فسألها العمدة قائلا : « وماذا كان يريد ؟ » .

ــ كان يريد مطارحتى الغرام !

فقال أوردن : « ولكنــه لم يتمكن منــك ؟ » .. فأجابت : « كلا ، لم يتمكن منى .. والآن اذهبــوا ، ولا تخشــوا على بأسا » .

وقال موردن : « إذا كنت فى مأزق يا مولى فدعينا نساعدك» .. فأجابت قائلة : « لا يستطيع أحد معاونتى فى المأزق الذى انا فيه .. انصرفوا الآن » .. ودفعتهم خارج الباب . ولكن آنى تخلفت عن الجماعة ، ونظرت إلى مولى ثم قالت : « ماذا يريد هذا الجندى يا سيدتى ؟ » .

— لست اعلم ما الذى يريده :

— هل ستقولين له شيئا ؟

فقالت مولى : « كلا » ، ثم عادت فكررت فى ذهول : «كلا» .. وانثنت تقول فى لهجة حادة : « كلا يا آنى ، لن أقـول له شيئا ! » .. وعبست آنى فى وجهها وهى تقول : « يحسن بك الا تقولى له شيئا ! » ، ثم خرجت واغلقت الباب خلفها .

واستمر الطرق على الباب الأمامى ، وكان من الممكن سماع صوت رجل من خلال البـاب ، فذهبت مولى إلى المصباح الملقى على المنضدة ، وقد اثقلها الهم والحيرة . ونظرت إلى المصباح ، ثم إلى المنضدة ، فرأت المقص الكبير الذى كان بجانب شغلها .. وامسكته من نصليه — فى شرود وذهول — فانفلت النصلان من اصابعها حتى أضحت تمسك بالمقص نفسه كأنه السكين ، وقد بدا الرعب فى عينيها . وعادت تنظر إلى المصباح وقد غمر الضوء وجهها ، ثم رفعت المقص ببطء ودسته فى طيات ثوبها .

واستمر الطرق على الباب ، وسمعت صوتا يناديها ، فمالت على المصباح لحظة ثم أطفأته فجأة . وغشى الغرفة ظلام دامس ، لا يتخلله سوى بقعة حمراء من الوهج كانت تشع من مدفأة الفحم .. ثم فتحت الباب . وكان صوتها متوترا ، عذبا ، رخيما ، وهى تهتف قائلة : « إننى قادمة ايها الملازم .. إننى قادمة ! » .

الفصل السابع

لم يكن القمر الأبيض ، المضمحل ، يرسل من الضوء ما يكفى لتبديد ظلمة الليل . وكانت الرياح تهمهم على سطح الجليد .. رياح هادئة تصب بانتظام وبدرجة متساوية من مركز القطب البارد ، وقد تساقط الجليد فى غزارة على الأرض ، فنشأت عنه طبقة كثيفة جافة هى والرمل سواء بسواء .. واستكنت البيوت فى تجاويف الجليد المتراكم . وكانت النوافذ معتمة ، مغلقة ، وقاية لأهلها من البرد . وما كان ينبعث عن نيران تلك البيوت إلا القليل من الدخان ..

وجمد الجليد فى دروب البلدة وتصلب .. وكانت الشوارع مقفرة من المارة ، يخيم عليها سكون لا يعكره إلا مرور الداورية التعسة المقرورة .. وساد الظلام المنازل فى تلك الليلة ، وقد تخلف فيها شىء من دفء الصباح . وكان الحراس المعينون عند مدخل المنجم يرقبون السماء ، ويوجهون آلاتهم صوبها ، ويتسمعون الأصوات . إذ كانت تلك الليلة صافية تصلح لإلقاء القنابل . ففى مثل هذه الليلة ، كانت تلقى الأسطوانات الفولاذية ذات الزوائد المجنحة ، فتنقض على من كانت تلقى عليهم فى صفير مزعج ، وتنفجر مخلفة الشظايا .. فلقد كانت الأرض تبدو واضحة لمن فى السماء ، ولو أن ضوء القمر كان خافتا باهتا !

وفى أحد طرفى البلدة — بين المنازل الصغيرة — كان ثمة كلب يعوى متأثرا بالبرد والوحدة . واخذ يرفع انفه إلى ربه يشكو

إليه ، بعوائه الطويل المرير ، ما آلت إليه حال الدنيا ، وما عاد عليه من جراء ذلك .. وكان مغنيا مدربا له حنجرة كالجرس تعلو فيها الطبقات وتنخفض !.. وسمع الرجال الستة الذين يؤلفون الداورية ـ وهم يذرعـون الشوارع فاتـرى العزم ثابطى الهمة ـ « غناء » هذا الكلب ، فقال أحد الجنـود : « يبدو لى ان هذا الكلب يزداد سوءا ليلة بعد ليلة ، واعتقد ان من واجبنا قتله ! » .

واجابه واحد منهم: « ولماذا ؟ دعه يعوى ، فانه لا يزعجنى . لقد كان لى فى الوطن كلب يعوى، ولم استطع ترويضه مطلقا ، إذ كانت تغلب عليه الكآبة . إن العواء لا يزعجنى . وقد أخذوا كلبى فيما اخذوا من الكلاب ! » .. وكان الحزن يسود لهجته ، فقال الملازم : « ما كان لك ان تقتنى كلابا ، فان الحاجة ماسة إلى الطعام الذى قد تغذيها عليه ! » .

ـ لست اشكو ، فاننى اعلم ان للضرورة احكاما ! . ليس بوسعى أن أنحو فى تفكيرى نحو الزعماء ، ولكننى لا املك إلا العجب من ان بعض الناس هنـا يقتنون الكـلاب ، مع ان ما عندهم من الطعام يقل عمـا عندنا .. ومع ذلك فالنـاس والكلاب هنا غاية فى النحافة والهزال !

فقال الملازم : « إنهم لبلهاء ، ولذلك خسروا المعركة بهـذه السرعة .. إن تفكيرهم لا يرقى إلى مسـتوى تفكيرنا » .. وقال الجندى : « ترى ايكون لنا كلاب ثانيـة بعد أن تضـع الحرب أوزارها ؟.. اعتقد اننا مستطيعون الحصول عليها من

أمريكا أو من بلد آخر ، لنبدأ انسالها من جديد !.. أى نوع من الكلاب فى أمريكا فيما تحسب ؟ » .

فأجاب الملازم قائلا : « لست أدرى .. لعلها كلاب مجنونة ككل شيء عندهم هناك ! » ، ثم اردف يقول : « وعلى كل فقد لا يكون للكلاب اى نفع ، فحرى بنا الا نفكر فيهـا إلا بقدر ما يلزمنا منها لأعمـال البوليس » .. فقال الجندى : « قـد يكون الأمر كما تقول ، فقد علمت أن الزعيم لا يحب الكلاب ، وقد سمعت أنه يصاب بالسـعال والعطاس إذا اقتـربت منه ! » .. فقال المـلازم : « إنك تسـمع اشـياء كثيرة ! انصتوا ! » .

وتوقفت الداورية فى سيرها .. وطرق آذانهم صوت أزيز الطائرات قادما من بعيد ، فقـال المـلازم : « ها هى قـد جاءت !.. حسنا ، لا يوجد اى ضوء .. الم ينقض أسبوعان منذ جاءت الطائرات آخر مرة ؟ » .. فأجاب الجندى : « بل اثنا عشر يوما » .

وسمع الحراس الذين كانوا فى المنجم أزيز الطـائرات العالية ، فقال جاويش : « إنها تطير على ارتفاع شاهق ! » .. فطوح الكابتن لوفت راسه إلى الوراء حتى يسـتطيع أن يرى من تحت حافة خوذته ، ثم قال : « أعتقد أنها تطير على ارتفاع يزيد على ٢٠٫٠٠٠ قدم ، وربمـا كانت تحلق فـوق رؤوسنا الآن ! » .. فأنصت الجاويش قليلا ثم قال : « ليس عددها كبيرا جدا ، ولا أعتقد أن عددها يزيد على ثلاثة . هل أخطر المدفعية ؟ » .

— كلا ، بل اطمئن إلى أن رجالها ساهرون ، ثم استدع الكولونيل لانسر . بل .. لا ، لا تستدعه ، فقد لا تأتى الطائرات إلى هنا .. إنها فوقنا تقريبا ولم تبدأ فى الانقضاض بعد !

— يبدو لى أنها تدور فى دوائر ، ولا اعتقد ان عددها يزيد على اثنتين .

وسمع الناس وهم فى أسرتهم أصوات الطائرات ، فغرقوا فى أطواء الأسرة يصيخون السمع . وايقظ الصوت الضئيل الكولونيل لانسر فى قصر العمدة ، فانقلب على ظهره ينظر إلى السقف المظلم بعينين مفتوحتين ، وقد حبس أنفاسه ليسمع جيدا ، ولكن قلبه أخذ ينبض بقوة حتى أستحال عليه السمع جيدا .. وسمع العمدة أوردن أزيز الطائرات فى نومه ، فنسج خياله منها حلما ، وأخذ يتحرك ويهمس فى نومه !

وكانت قاذفتا القنابل فى لون الطين ، وقد راحتا تحومان وتدوران على ارتفاع كبير ، وقد أغلقتا صمام النفس فى محركاتهما ، وأخذتا تحلقان فى الجو وهما تحومان فى دوائر .. وتساقطت من بطن كل منهما أشياء صغيرة جدا .. مئات من هذه الأشياء ، الواحد منها فى اثر الآخر .. وقد سبحت الأشياء فى الجو بضعة أقدام ، ثم انفتحت مظلات صغيرة متصلة بها ، اخذت تتهادى فى هبوطها فى سكون، حاملة طرودا صغيرة إلى الأرض التى تحتها . ثم فتحت الطائرتان صمام النفس مرة أخرى ، فارتفعتا فى الجو ، وما لبثتا ان اغلقتا

باب النفس وعادتا لتحويمهما فألقتا مزيدا من تلك الطرود الصغيرة ، ثم استدارتا وعادتا من حيث جاءتا !

* * *

وسبحت المظلات الصغيرة فى الفضاء كأنها زغب الحسك ، تحملها الريح وتكفل بتوزيعها .. وظلت تسبح ببطء حتى استقرت آخر الأمر على الأرض فى رفق وهوادة ، حتى أن طرود الديناميت التى يبلغ طولها عشر بوصات كانت تقف مستقيمة أحيانا فى الجليد ، تحيط بها مظلاتها الصغيرة .. وكانت تبدو سمراء اللون بالنسبة للجليد ، وقد هبطت فى الحقول البيضاء وفى غابات الجبال وفى الأشجار ، وتدلت من فروعها . واستقر بعضها على سقوف منازل البلدة الصغيرة ، والبعض فى أفنية البيوت الامامية الصغيرة .. بل إن طردا منها استقر على قمة رأس تمثال القرية الذى يمثل القديس « البرت » الرسول .

وهبطت مظلة صغيرة من هذه المظلات فى الشارع امام الداورية ، فقال الجاويش : « حذار ! إنها قنبلة زمنية ! » ..

فقال أحد الجنود : « إنها ليست كبيرة ! » .

— حسنا ، لا تقترب منها !

وأخرج الجاويش مشعله الكهربائى وسلطه على هذا الشىء ، فاذا به مظلة صغيرة لا يزيد حجمها على حجم المنديل ، ذات لون أزرق فاتح ، يتدلى منها طرد لف بورق ازرق .. وقال الجاويش : «حذار ان يلمسها أحدكم ! .. اذهب انت يا هارى

إلى المنجم وادع الكابتن ، بينما نرقب نحن هذا الشيء اللعين ! » .

وبزغ الفجر المتأخر ، وخرج الناس من بيوتهم فى الريف ، فشاهدوا البقع الزرقاء على الجليد . . وذهبوا إليها والتقطوها ، ثم فكوا الورق الذى لفت به وقرأوا الكلمات المطبوعة . . وراوا الهدية . وسرعان ما اصبح كل من وجد طردا من هذا القبيل كتوما ، يحرص على سره حرصه على نفسه ، فيخفى الأنبوبة الطويلة تحت سترته ، ويذهب إلى مكان سرى فيخفيها فيه . وسمع الأطفال نبأ الهدية ، فأخذوا ينقبون عنها تنقيبهم عن بيض عيد الفصح ، فاذا وفق طفل إلى المظلة الزرقاء ، اندفع إلى الهدية وفتحها ثم اخفى الأنبوبة وحدث والديه بأمرها . . وتملك الخوف بعض الناس ، فسلموا الأنابيب الى السلطات العسكرية ، ولكنهم لم يكونوا كثيرين . . وهرع الجنود هم الآخرون إلى البلدة ينقبون عن هذه المظلات الصغيرة تنقيب الأطفال عن بيض عيد الفصح ، بيد أنهم لم يوفقوا توفيق الأطفال !

أما فى غرفة الاستقبال بقصر العمدة ، فقد ظلت مائدة الطعام — وحولها المقاعد — كما كانت يوم اعدم « الكس موردن » . بيد أن الغرفة لم تعد تحتفظ بالفتنة التى كانت لها عندما كان القصر قصر العمدة ، وقد بدت الجدران جرداء ، إذ حرمت من المقاعد التى كانت مسندة إليها . . وخلعت المائدة على الغرفة بالأوراق المبعثرة عليها ، منظر المكتب التجارى ! ودقت الساعة التى على رف المدفأة التاسعة .

وكان اليوم مظلما ، تخيم عليه الغيوم . . فقد جاء الفجر معه بغيوم الجليد الثقيلة !

وخرجت آنى من غرفة العمدة ، وهرعت إلى المائدة فرمقت الأوراق التى كانت عليها . ودخل الكابتن لوفت ، فوقف فى مدخل الباب عندما رأى آنى ، وسألها قائلا : « ماذا تفعلين هنا ؟ » . . فأجابت آنى عابسة متجهمة : « نعم يا سيدى » .

— اقول ماذا تفعلين هنا ؟

— فكرت فى أن أنظف هذه الغرفة يا سيدى !

— دعك من هذا الآن ، وانصرفى إلى حال سبيلك !

فقالت آنى : « سمعا وطاعة يا سيدى » . وانتظرت حتى أفسح لها ، ثم انطلقت خارجة لا تلوى على شىء . . وإذ ذاك استدار الكابتن لوفت فى مدخل الباب وقال : « حسنا ، ائت بها » . فخف جندى من خلال الباب القائم خلفه ، وقد علق بندقيته على كتفه ، وحمل بين يديه عددا من الطرود الزرقاء ، وقد تدلت من اطرافها قطع الدوبارة الصغيرة والقماش الأزرق .

وقال لوفت : « ضعها على المائدة » . فصدع الجندى بما أمر به ، ووضعها على المائدة فى حرص وحذر . فقال لوفت « والآن ، اذهب إلى الكولونيل لانسر فى الطابق الأعلى ، وقل له إننى جئت ومعى . . الأشياء ! » ، فدار الجندى على عقبيه وبارح الغرفة .

وذهب لوفت إلى المائدة فالتقط طردا من هذه الطرود . وارتسمت على وجهه علائم النفور والكراهية ! . . وامسك بالمظلة الزرقاء الصغيرة ، ورفعها فوق رأسه ، ثم ألقى بها ، فانفتحت وسبحت فى الجو حتى استقرت على الأرض . ثم

التقط الطرد ثانية وشرع يفحصه . وما لبث الكولونيل ان جاء مسرعا إلى الغرفة ، وفى اعقابه الماجور هنتر .. وكان يحمل فى يده قطعة مربعة من الورق الأصفر . وقال لانسر : « طاب صباحك يا كابتن ! » .. وذهب إلى رأس المائدة وجلس ، واخذ ينظر برهة إلى الكومة الصغيرة من الأنابيب ، ثم التقط إحداها وامسك بها فى يده ، وقال : « اجلس يا هنتر . هل فحصت هذه ؟ » .

وجذب هنتر مقعدا جلس عليه ، ثم نظر فى الورقة الصفراء التى فى يده ، وقال : « لم افحصها جيدا . لقد نسف خط السكة الحديدية فى ثلاثة مواضع ، كلها فى مسافة عشرة أميال » .

.. فقال لانسر : « انظر إليها وحاول أن تكون رايا عنها ! » .

فمد هنتر يده واخذ أنبوبة نزع عنها غلافها الخارجى ، فوجد طردا صغيرا إلى جوار الأنبوبة . واخرج هنتر سكينا وأحدث شقا فى الأنبوبة — وكان الكابتن لوفت يقف وراءه يشاهده — وتشمم الشق ، ثم دعك اصابعه معا وقال : « ان هذا لسخف ، فانه لديناميت تجارى ، ولا اعلم نسبة ما فيه من نيتروجليسرين حتى اختبره » . ثم نظر إلى طرف الأنبوبة واسترسل يقول : « إن لها غطاء الديناميت المعتاد ، وفلمينات الزئبق — وهى الفضة المتفجرة — ثم فتيل يستغرق إشعاله نحو الدقيقة فيما اظن » .. والقى بالأنبوبة على المائدة ثانية وهو يقول : « إنها لغاية فى الرخص والبساطة ! » .

ونظر الكولونيل إلى لوفت وقال : « كم تظن القى من هذه الأنابيب ؟ » .. فأجاب لوفت بقوله : لست ادرى يا سيدى . فقد جمعنا منها نحو الخمسين ، ونحو تسعين مظلة مما تلقى به الأنابيب . والناس — لبعض الأسباب — يأخذون الأنابيب ويتركون المظلات .. ولعل هناك عددا كبيرا لم نعثر عليه بعد ! » .

ولوح لانسر بيده وهو يقول : « ليس للأمر اية اهمية فى الواقع ، فليلقوا ما يشاءون من الأنابيب ، فليس فى استطاعتنا أن نحول دونهم ودون إلقائها ، ولا نستطيع استعمالها ضدهم أيضا .. وهم بهذا لا يكونون قد هزموا احدا ! » . فقال لوفت فى قسوة وعنف : « نستطيع ان نمحوهم من على وجه الأرض ! » .

وكان هنتر ينتزع الغطاء النحاسى لإحدى هذه الأنابيب . وقال لانسر : « اجل ، نستطيع أن نفعل هذا . هل نظرت إلى هذا الغلاف يا هنتر ؟ » .

— كلا ، فلم يتسع لى الوقت بعد .

فقال الكولونيل لانسر : «إنه لعمل شيطانى، فالغلاف أزرق كى تسهل رؤيته ، فاذا نزعت الغلاف الخارجى وجدت.. » ، والتقط الطرد الصغير ، واستأنف يقول : « قطعة من الشيكولاته ، سيبحث عنها الكل .. أراهن ان جنودنا يسرقون الشيكولاتة ، بل سيبحث عنها الأطفال بحثهم عن بيض عيد الفصح ! » .

* * *

ودخل جندى ووضع قطعة مربعة من الورق الأصفر أمام الكولونيل وانسحب . ورمقها لانسر ، ثم ضحك ضحكة أجشة وهو يقول : « هذا لك يا هنتر .. إنهما كسران آخران فى خطك الحديدى » .

ورفع هنتر رأسه عن الغطاء النحاسى الذى كان مكبا على فحصه ، وسأل الكولونيل قائلا : « هل كان إلقاء هذه الأنابيب عاما ؟.. هل ألقوها فى كل مكان ؟ » .. وظهرت الدهشة على وجه لانسر وهو يجيب قائلا : « هذا هو الشىء الغريب .. فقد اتصلت بالعاصمة فعلمت أنهم لم يلقوا هذه الأنابيب إلا هنا » .

وسأله هنتر : « وما رأيك فى هذا ؟ » .. فقال : « يتعذر على أن أبدى رأيا .. لقد اختاروا هذا المكان للتجربة ، فاذا نجحوا هنا استخدموا هذه الوسيلة فى كل مكان آخر ، وإذا لم تفلح هنا ، عدلوا عنها ! » .. فسأله هنتر : « وماذا أنت فاعل ؟ » .

ـ لقد امرتنى العاصمة بأن أقاوم هذه الحركة بغير رحمة حتى لا يعودوا لإلقاء هذه الأنابيب فى اى مكان آخر !

وقال هنتر وقد شاب لهجته الحزن : « كيف سأصلح خمسة كسور فى الخط الحديدى ؟.. ليس عندى الآن قضبان لخمسة كسور » .. فأجاب لانسر : « أعتقد أن عليك أن تنزع بعض قضبان خطوط التخزين القديمة ! » .

والقى الماجور هنتر الأنبوبة التى مزقها على كومة الأنابيب ، بينما قال لوفت : « يجب أن نتخذ إجراء سريعا يا سيدى ..

يجب أن نقبض على الناس الذين يلتقطون هذه الأشياء ، وأن نعاقبهم قبل أن يقدموا على استعمالها .. ويجب أن نسرع حتى لا يظن هؤلاء الناس أننا ضعفاء ! » .

وكان لانسر يبتسم ، فقال : « على رسلك يا كابتن ، فلنفحص ما أمامنا أولا ثم نفكر فى أنواع العلاج » .. وأخذ طردا جديدا من الكومة وفض غلافه ، ثم تناول قطعة الشيكولاتة الصغيرة وذاقها ، وقال : « إن هذا لعمل شيطانى ، والشيكولاتة من النوع الجيد ، حتى اننى لا استطيع مقاومة إغرائها .. إنها لدى بمثابة اللقية التى تسوقها المصادفات ! » . ثم تناول الديناميت وقال : « ما رأيك فى هذا حقا يا هنتر ؟ » .

ـ عين ما قلته لك ، وهو ان الديناميت ذا الغطاء والفتيل الذى يستغرق دقيقة واحدة ، رخيص جدا .. وفعال جدا للمهام الصغيرة . وهو جيد إذا عرفت كيف تستعمله ، ردىء إذا لم تعرف ! » . واخذ لانسر يدرس الكلمات المكتوبة داخل الغلاف ، ثم سأل هنتر قائلا : « هل قرأت هذا ؟ » .. فأجاب هنتر : « القيت عليه نظرة فقط ! » . وإذ ذاك قال لانسر : « لقد قراته انا ، واريد منك ان تنصت إلى جيدا » . ثم اخذ يقرأ من الورقة : « إلى القوم الذين لا يقهرون : « أخفوا هذا ولا تفضحوا انفسكم ، فستحتاجون إليه فيما بعد !.. إنها هدية من اصدقائكم إليكم ، ومنكم إلى غازى بلادكم !.. لا تحاولوا أن تستخدموها فى الأعمال الكبيرة » .. وتحول يقرأ بعد ذلك فقرات من المنشور : « إليك بيان الأعمال :

خطوط السكة الحديدية الممتدة فى الريف .. والعمل ليلا .. وتعطيل وسائل النقل !.. وإليك هذا الآن : تعليمات بشأن الخطوط الحديدية .. ضع أنيوبة تحت الخط بقرب التوصيلة تماما ، وأحكم شدها برباط ، ثم غطها بالطين او بالجليد الجامد حتى تثبت مكانها . فاذا اشعلت الفتيل ، فان الديناميت ينفجر بعد أن تعد إلى الستين .. عدا بطيئا ! » .

ثم رفع لانسر رأسه إلى هنتر ، فقال هذا ببساطة : « إنها لطريقة فعالة » . وعاد لانسر ينظر فى ورقته ويقرا منها بعض الفقرات : « الجسور : اضعفها ولا تدمرها !.. وهاك أيضا أعمدة التلغراف ، وكذلك « البرابخ » .. وعربات الشحن ! » .. ووضع لانسر ورقة التعليمات الزرقاء على المائدة وقال : « هاك كل ما يهمنا من الأمر ! » .. فقال لوفت وقد شاب لهجته الغيظ : « يجب أن نفعل شيئا .. لا بد ان هناك طريقة لعلاج هذه الحال .. ماذا تقول القيادة ؟ » .. فزم لانسر شفتيه ، وعبثت أصابعه بإحدى الأنابيب ، ثم قال : « كنت أستطيع أن اخبرك بما عساهم أن يقولوه قبل أن ينطقوا به .. ستصدر إلى الأوامر بوضع الفخاخ المزيفة ، ووضع السم فى الشيكولاتة ! » .. ثم سكت لحظة وأردف يقول : « إننى رجل أمين ومخلص يا هنتر ، ولكننى عندما اسمع احيانا الأفكار النيرة التى تصدر عن القيادة ، اتمنى لو اننى كنت مدنيا .. بل مدنيا مسنا ، كسيحا !.. إنهم يعتقدون دائما انهم يتعاملون مع قوم اغبياء .. لست اقول إن هذا مقياس ذكائهم .. الا ترى ذلك ؟ » .

وبدا المرح على هنتر وهو يقول : « أهذا رأيك ؟ » .

فأجاب لانسر بحدة : « كلا ، ولكن ما الذى سيحدث ؟.. سيلتقط رجل أحد هذه الفخاخ فينسف ويتمزق إربا .. وقد يأكل طفل الشيكولاتة فيموت متسمما بالزرنيخ ، ثم ماذا ؟ » .. ونظر إلى يديه وأضاف قائلا : « سيحركونها بالعصى الطويلة او بالحبال قبل أن يلمسوها ، وسيلقون بقطع الشيكولاتة إلى القطط أولا ليعرفوا تأثيرها عليها . الحق أن هؤلاء قوم اذكياء يا ماجور ، ولن يلدغوا من الفخاخ الزائفة مرتين ! » .

وتنحنح لوفت وقال : « إن هذا حديث داعية من دعاة الهزيمة يا سيدى .. يجب أن نفعل شيئا ! ولماذا تفترض أن هذه الانابيب لم تلق إلا هنا يا سيدى ؟ » . فأجاب لانسر بقوله : « لأحد سببين : إما ان هذه البلدة قد اختيرت جزافا، أو ان ثمة اتصالا بين هذه البلدة والخارج .. فنحن نعلم أن بعض الشبان قد تمكنوا من الفرار » .

وكرر لوفت يقول فى لهجة تنم عن الكآبة والملل : « يجب أن نفعل شيئا يا سيدى ! » .. فالتفت إليه لانسر قائلا : « أعتقد اننى سأوصى باختيارك فى هيئة اركان الحرب العليا ، فأنت تتوق للعمل حتى قبل أن تعرف كنه المشكلة !.. إن هذا نوع جديد من الغزو ، فقد كان من الممكن قبلا تجريد السكان من السلاح وتركهم فى جهالتهم ، أما اليوم فهم يسمعون الاذاعات ، ونحن لا نستطيع منعهم ، بل إننا لا نعثر لمذياعاتهم على أثر ! » .

* * *

واطل جندى براسه من البـاب قائلا : « المستر كوربل يريد مقابلتك يا سيدى » .

فاجاب لانسر بقوله : « قل له أن ينتظر ! » .. واستمر فى حديثه مع لوفت : « إنهم يقراون المنشورات، وهم يزودون بالأسلحة من الجو ، اليوم بالديناميت يا كابتن ، وربما زودوا بالقنابل اليدويــة ثم بالسم ، قريبا ! » فقال لوفت فى قلق : « إنهم لم يلقوا بالسم بعد ! » .

— كلا ، ولكنهم سيفعلون . ايمكنك ان تتخيل مدى ما ينال من الروح المعنوية لرجالنا ، بل مـدى ما ينـال من روحك المعنوية انت ، لو ان الناس كانوا مزودين بتلك الالعاب من السهام الصغيرة .. تلك الأشياء الصغيرة التافهة التى تلقيها على هدف معين ، وقد تكون اطرافها مغمورة فى السيانور .. إنها لعب صغيرة ، قاتلة ، صـامتة ، لا تسمع صوتها وهى مصوبة إليك ، وتخترق البذة العسكرية دون ان تحدث صوتا .. ثم ماذا تكون عليـه الحال إذا عرف رجالنا أن الزرنيخ موجود بوفرة ؟.. أيمكنهم ، بل ايمكنك انت ان تاكل وتشرب وانت مستريح لما تاكل أو تشرب ؟

فقال هنتر بجفـاء : « هل تضـع اسس حملة الأعـداء يا كولونيل ؟ » .

— كلا ، وإنما انا احاول التكهن بها !

وقال لوفت : « نحن نجلس هنا يا سيدى لا نحرك ساكنا ، فى حين يقتضـينا واجبنا ان نبحث عن هـذا الديناميت ..

وإذا كانت ثمة منظمة ربطت بين هؤلاء القوم ، فيجب ان نجد فى البحث عنها وان نعمل على القضـاء عليها ! » .. فاجاب لانسر قائلا : « اجل ، يجب أن نقضى عليها ، وبشدة وعنف فيما أحسب . خذ انت سرية يا لوفت ، وليأخذ براكل سرية اخرى .. كنت اتمنى لو ان عندنا مزيدا من الضباط الصغار . إن توندر لم يكن يرجى منه اقل نفع لنـا .. لست ادرى لم لم يغض عن النسـاء ؟ » . وهنـا قال لوفت : «إننى لست مطمئنا لتصرفات الملازم براكل يا سيدى » .

— ماذا يفعل ؟

— إنه لا يفعل شيئا ، ولكن اعصابه متوترة .. وهو إلى هذا كثير الحزن ، كثير الكآبة !

فاجاب لانسر بقوله : « اجل ، اعـرف هـذا ، وهو أمر تحدثت عنه كثيرا ، ولو لم اكثر الحديث عنه لاصبحت لواء ! .. لقد دربنا شبابنا على الفور ، ولا بد لك من الاعتراف بانهم غاية فى الروعة فى استخلاص الفوز ، ولكنهم لا يعرفون ماذا يعملون عند الهزيمة .. لقد قلنا لهم إنهم اذكى واشجع من غيرهم من الشبان ، فصدموا عندما عرفوا انهم ليسوا أشجع ولا اذكى فى شىء من غيرهم من الشبان ! » .

وقال لوفت فى صوت اجش : « ماذا تعنى بالهزيمة ؟ إننا لم نهزم ! » . فتطلع إليه لانسر ببرود لحظة ولم ينبس ببنت شفة . واخيرا تذبذبت عينا لوفت وقال : « سيدى » .. فقال لانسر : « شكرا لك » .

ــ إنك لا تطلب هذا من غيرى يا سيدى !

ــ إنهم لا يفكرون فى الأمر ، فلا يعـد عدم مصارحتى لهم بالحقيقة إهانة . اما إذا اخفيت الحقيقة عمن يعلمها فان هذا الإخفاء يعتبر إهانة !

فاجاب لوفت بقوله : « اجل يا سيدى » .

ــ هلم الآن ، وحـاول ان تملك زمـام براكل .. إبداوا البحث ، ولا احب ان تطلقوا النار إلا فى الأحوال العلنية .. أتفهمنى ؟

فقال لوفت : « اجل يا سيدى » . ثم ادى التحية العسكرية وبارح الغرفة . فنظر هنتر إلى الكولونيل لانسر وقال مداعبا : « ألم تكن قاسيا عليه ؟ » .

ــ لقد اضطررت لهذا ، فان الخوف يمـلأ قلبـه ! ومن الواجب تأديبه عندما يستبد به الخوف وإلا انهارت اعصابه . إن قوام حياته التاديب والنظام ، كمـا ان قوام حيـاة غيره العاطفة والحنان !.. اعتقد انه يحسن بك الذهاب لإصلاح خطوطك الحديدية ، إذ يجدر بك ان تتوقع ان تكون الليلة هى الموعد الذى ينسفونها فيها !

ونهض هنتر وهو يقول : « اجل ، واعتقد أن القيادة توشك ان تصدر الأوامر من العاصمة » .

ــ اجل .

ــ وهل هم ...

فقاطعه لانسر بقوله : « أنت تعرفهم على حقيقتهم .. أنت تعلم كيف يريدون أن يكونوا .. اقبضوا على الزعماء ، اقتلوا الزعماء .. خذوا الرهائن ، اقتلوا الرهائن !.. خذوا المزيد من الرهائن ، واقتلوهم ! » ، وكان صوته قد ارتفع ، ولكنه لم يلبث ان انخفض ثانية حتى أصـبح همسـا وهو يقول : « والحقد يتزايد والوقيعة بيننا تزداد تأصلا ! » . فقال هنتر فى تردد : « هل حكمـوا بالمـوت على واحـد ممن تضمنتهم القائمة ؟ » .. وأومأ إيماءة خفيفة صوب مخدع العمدة . ولكن لانسر هز رأسه قائلا : « كلا ، لم يصدر عليهم الحكم بعـد ، وهم حتى الآن مقبوض عليهم فقط ! » .

فقال هنتر بهـدوء : « أتريد منى ان اوصى يا كولونيل... لعلك مرهق يا كولونيل ، اتسمح لى أن ابلغ السلطات بأنك مرهق ، منهوك القوى ؟ » .. وغطى لانسر عينيه لحظة بيده ، ثم شد كتفيه ، وبدت الصرامة على اسارير وجهه وهو يقول : « لست مدنيا يا هنتر . إن الضباط ينقصوننا وانت تعلم هذا .. اذهب إلى عملك يا ماجور ، إذ يجب ان اقابل كوريل » . وابتسم هنتر ، وذهب إلى الباب وفتحـه ، ثم قال من خارج الباب : « اجـل هو هنـا » ، ثم التفت وقال للانسر : « إنه براكل ، وهو يريد مقابلتك » .

فأجابه لانسر قائلا : « دعه يدخل » .

* * *

ودخل براكل ، وقد ارتسمت الكآبة على وجهـه ، وقال فى لهجة انطـوت على العداء : « سيدى الكولونيل لانسر ، بودى لو .. » ، فقطع عليه لانسر الحديث قائلا : « اجلس ، اجلس واسترح قليلا . كن جنديا مطيعا ايها الملازم » .

وسرعان ما زايلت الصلابة براكل ، فتهاوى على مقعـد بجوار المـائدة ، واستند بمرفقيه عليهـا وقال : « بودى لو ... » . فقال لانسر : « لا تتحدث لحظـة . إننى أدرك حقيقة شعورك . لم تكن تظن أن الأمر سينتهى إلى هـذه الحال ، أليس كذلك ؟ كنت تظن أن الأمر سيسير على أحسن حال » .

فقال براكل : « إنهم يكرهوننـا .. إنهم يكرهوننـا أشد الكره وأعظمه ! » .

فابتسم لانسر وهو يقـول : « اترانى اصيب الحقيقة إذا قلت إن الشبان هم الذين يصبحون جنودا بواسل . والشبان فى حاجة إلى الشابات .. اترانى أصبت كبد الحقيقة ؟ » .

— اجل ، هذه هى الحقيقة !

فقال لانسر فى عطف : « حسـنا ، أهى تكرهك ؟ » .. فنظر إليه براكل فى دهشـة وهو يقـول : « لسـت أدرى يا سيدى ، ويخيل إلى أحيانا أن شعورها لا يجاوز الأسف » .

— وأنت تشعر بتعاسة كبيرة ؟

— إن البلدة لا تروق لى يا سيدى !

— كلا ، ولكنك كنت تظن أن الأمر لا يعدو أن يكون لهواً . أليس كذلك ؟ .. لقد انهارت أعصاب الملازم توندر ، وخرج ، فطعنوه بسكين ! .. إننى استطيع ان اعيدك إلى الوطن ، فهل تود أن تعود إلى الوطن وأنت تعلم حاجتنا اليك هنا ؟

فقال براكل والقلق يستبد به : « كلا يا سيدى ، فهذا ما لا أوده » .

— حسنا ، سأصارحك الآن . وأرجو أن تدرك ما أقول : إنك لم تعد رجلا .. لم تعد إنسانا ، وإنما انت جنـدى ، فلا أهمية لراحتك .. بل ليست لحياتك أهمية كبيرة ايها الملازم! وإذا امتد بك الأجل ، عشت على ذكرياتك .. وهذه هى كل ما ستخرج به تقريبا من الحرب ! وفى الوقت نفسه يجب أن تصدع بالأوامر الصادرة اليـك وأن تنفذها ! .. ستبدو لك معظم الأوامر مقيتة بغيضة ، ولكن ليس هذا من شأنك . لن أكذب عليك أيها الملازم .. كان يجب أن يدربوك على هذا ، لا على الشوارع المفروشة بالزهور والرياحين ! .. كان يجب أن يدعموا روحك بالحقـائق لا أن يضللوها بالأكاذيب ! .. وأخذ صوته يشتد صرامة وهو يقول : « ولكنك قبلت المهمة أيها الملازم ، فهل أنت مؤديها أم ستتخلى عنها ؟ .. ليس فى وسعنا أن نعنى بروحك ونتعهدها بالتهذيب ! » .

فنهض براكل وقال : « شكرا لك يا سيدى » .. واسترسل لانسر يقول : « أما الفتاة ، أيها الملازم ، فلك أن تغتصبها أو تفرض عليها حمايتك أو تتزوجها ، كل هذا لا أهمية له طالمـا

انك تقتلها عندما تؤمر بذلك ! » .. وقــال براكل فى ضيق وملل : « اجل يا سيدى . شكرا لك يا سيدى » .

ــ أؤكد لك ان من الخير لك ان تعلم .. اؤكد لك هـذا . من الخير لك ان تعلم !.. انصرف الآن ايها الملازم ، وإذا كان كوريل ما زال منتظرا فدعه يدخل .

واخذ لانسر يراقب الملازم براكل وهو يغـادر الغرفة ، وما لبث ان اقبل المستر كوريل وقد بدا عليه التغير الشامل ، إذ كانت ذراعه موضوعه فى قالب من الجبس ، كما انه لم يعد كوريل المرح الودود الضاحك ، وإنما لاح صارم الملامح ، تعلو وجهه سمات الحزن والالم ، وقد احولت عيناه كأنهما عينـا خنزير صغير نفق !

وقال كوريل : « كان يجب ان احضر قبل الآن يا كولونيل ، ولكن عدم معاونتك جعلتنى اتردد » .

فأجاب لانسر : « كنت تنتظر جوابـا على تقريرك فيمـا اذكر » .

ــ بل كنت انتظر شيئا اكثر من هذا بكثير ، فقـد ابيت على مركزا من مراكز السلطان، وقلت عنى إننى غير ذى قيمة، ولم تدرك اننى كنت فى هـذه البلدة قبلك بزمن طويل .. ثم انك ابقيت العمدة فى منصبه على عكس ما نصحتك به !

واجاب لانسر بقـوله : « لولاه لكان من الأرجح ان تزيد الاضطرابات على ما هى عليه ! » .. فقــال كوريل : « لكل

رايه . ان هذا الرجل زعيم لقوم متمردين ! » .. فاجاب لانسر : « هراء ! إن هو إلا رجل بسيط ! » . وإذ ذاك اخرج كوريل بيده السليمة دفترا أسود من جيبه الأيمن ، وفتحه بأصابعه ، وقال : « لقد نسيت يا كولونيل ان لى مصادرى ، واننى فى هذه البـلدة قبلك بزمن طويل .. ومن ثم فاننى اود ان ابلغك ان العمدة اوردن كان على اتصال وثيق بكل ما وقع فى هذه البلدة من حوادث . وفى الليلة التى قتل فيهـا الملازم توندر ، كان العمدة فى المنزل الذى ارتكبت فيه جريمة القتل ، فلما هربت الفتاة التى قتلت توندر إلى الجبال ، اقامت عند احد اقاربه . لقد تعقبتها إلى هناك ، ولكنها كانت قد لاذت بالفرار . وكان اوردن على علم دائما بهرب من يغـادر البلاد من الرجال ، بل إنه مد يد المساعدة إليهم ، وإننى لقوى الاشتباه فى ان له ضلعا فى قصة تلك المظلات الصغيرة ! » .

فأجاب لانسر فى حميـة : « ولكنك لا تستطيع إقامة الدليل على هذا » .

فقال كوريل : « كـلا ، لا استطيع إقامة الدليل عليـه . والموضوع الأول اعرفه عن يقين ، اما الثانى فمجرد اشتباه .. فلعلك الآن مستعد ان تنصـت إلى » .. واجاب لانسر بهدوء : « وما الذى تقترحه ؟ » .

ــ إن اقتراحاتى يا كولونيل اقوى قليلا من ان تكون مجرد اقتراحات .. إن اوردن يجب ان يحتفظ به رهينة الآن ، وان تتوقف حياته على استتباب السلام فى هذه البلدة ، يجب ان

تتوقف حياته على إشعال فتيلة واحدة لعود واحد من أعواد الديناميت !

ودب يده فى جيبه مرة أخرى ، وأخرج دفترا آخر مطويا ، ففتحه ووضعه أمام الكولونيل قائلا : « هذا هو يا سيدى الرد الذى ورد إلى من القيادة عن تقريرى . ولعلك تلاحظ أنه خولنى بعض السلطان » .

ونظر لانسر إلى الدفتر الصغير وأجاب فى هدوء : « إذن ، فقد التجأت إلى القيادة من وراء ظهرى ؟ » ، وتطلع إلى كوريل والكره واضح فى عينيه قائلا : « سمعت أنك جرحت ، فكيف وقع الحادث ؟ » .. فقال كوريل : « فى الليلة التى قتل فيها الملازم توندر كان قد نصب كمين لخطفى ، وقد أنقدتنى الداورية .. وكان بعض أهل البلدة قد هرب فى قاربى فى تلك الليلة . والآن يا كولونيل .. هل ألح أكثر مما ألححت فى وجوب أخذ العمدة أوردن رهينة ؟ » .

فأجاب لانسر بقوله : « إنه هنا ولم يهرب ، فكيف نحتفظ به رهينة أكثر مما فعلنا ؟ » .

وفجأة طرق أذن الرجلين صوت انفجار ، فالتفتا إلى مصدر الصوت ، وقال كوريل : « هاك يا كولونيل ، وانت تعلم جيدا أنه إذا نجحت التجربة فسيكون الديناميت فى كل بلد محتل ! » .

وكرر لانسر فى هدوء قوله : « وما اقتراحك ؟ » .

— ما قلته لتوى ، وهو أن تكون حياة أوردن رهينة ضد اندلاع نيران الثورة !



وإذ ذاك أخرج (كوريل) بيده السليمة دفتر أسود من جيبه الأيمن ، وفتحه بأصبعه ..

— وإذا ثاروا وقتلنا اوردن ؟

— يأتى إذن دور ذلك الطبيب .. فمع انه لا يتولى منصبا ، إلا انه يتلو العمدة فى السلطان .

— ولكنه ليس من اصحاب المناصب فى البلدة ؟

— إنه ينعم بثقة الناس .

— وإذا قتلناه ، فماذا تكون الخطوة التالية ؟

— يؤول السلطان الينا ونخمد الثورة . فان التمرد يتحطم إذا قتلنا الزعماء !

وسأله لانسر مداعبا : « اتعتقد هذا حقا ؟ » .

— يجب ان يكون الأمر كذلك .

وهز لانسر راسه ببطء ثم نادى يقول : « ايها الحارس! » . وفتح الباب وظهر جندى على عتبته ، فقال له لانسر : « ايها الحارس ، لقد قبضت على العمدة اوردن وقبضت على الدكتور وينتر ، فعليك الاطمئنان إلى قيام الحراسة على اوردن ، وعليك ان تأتى بوينتر إلى هنا فى الحال ! » .

واجاب الحارس بقوله : « سمعا وطاعة يا سيدى ! » .

ونظر لانسر إلى كوريل وقال : « ارجو ان تكون واثقا مما انت مقدم عليه .. ارجو ان تكون واثقا مما انت مقدم عليه ! » .

الفصل الثامن

كانت الأنباء تنتشر فى البلدة الصغيرة انتشار النار فى الهشيم .. فقد كانت تنقلها الهمسات فى مداخل البيوت ، والنظرات السريعة ذات المغزى : « لقد القى القبض على العمدة » .. وسرت فى البلدة موجة صغيرة هادئة من الابتهاج .. موجة صغيرة فيها قسوة وفيها عنف ، واخذ الناس يتحدثون سويا فى هدوء ثم يفترقون ، وكان الذين يدخلون منهم المتاجر لشراء حاجتهم من الطعام يميلون لحظة على اصحاب المتاجر ، فيتبادلون وإياهم الهمسات !

وكان الناس يؤمون الريف ، ويتوغلون فى الغابات ، بحثا عن الديناميت . وكان الأطفال يعثرون على الديناميت وهم يلعبون فى الجليد ، وكانوا قد تلقوا التعليمات التى يجب عليهم اتباعها ، فكانوا يفتحون الطرود ويأكلون الشيكولاته ، ثم يدفنون الديناميت فى الجليد ويخبرون اهلهم بمكانه !

وفى مكان ناء من الريف ، التقط رجل انبوبة وقرأ التعليمات ، فقال محدثا نفسه : « ترى اهذه صالحة ؟ » ، وأوقف الأنبوبة على الجليد واشعل الفتيل ، واسرع يبتعد عنها ، ثم شرع فى العد ، ولكن عده كان مسرعا ، فقد وصل إلى ثمانية وستين قبل ان ينفجر الديناميت ، فقال : « إنها صالحة فعلا ! » ، واسرع يبحث عن انابيب اخرى !.. وكان الناس يهرعون إلى بيوتهم فى اوقات معينة ، وكانهم تلقوا إشارة بذلك ، فتغلق الأبواب من خلفهم ، وتقفر الشوارع ،

ويخيم عليها السكون . وكان الجنود عند المنجم يفتشون كل عامل فيه تفتيشا دقيقا عنـد دخوله .. يفتشونه ويعيدون تفتيشه وقـد توترت أعصابهم وخشـنت لهجتهم واتسمت حركاتهم بالغلظة والقسوة !.. وكان العمـال ينظرون إليهم ببرود ، وقـد أومض فى عيونهم لون من الابتهاج الذى يصوبه الغل والحقد .

وفى غرفة الاستقبال بقصر العمدة ، كانت المـائدة قـد نظفت مما عليها ، ووقف جندى يحرس غرفة نوم العمـدة أوردن .. وجثت آنى أمام شباك المدفأة الحديدى تغذى النار بقطع صغيرة من الفحم ، ثم رفعت بصرها إلى الحارس الذى كان يقف على باب العمـدة أوردن ، وقالت فى لهجة عنيفـة صـارمة : « ما الذى ستفعلون به ؟ » .. فلم يحر الجندى جوابا !.. وما لبث الباب الخارجى ان فتح ، ودخل جندى آخر يقود الدكتور وينتر من ذراعـه . واغلق البـاب خلف الطبيب ، فوقف هـذا مستندا إلى البـاب داخل الغرفـة . وقال : « هالو آنى ، كيف حال صاحب السعادة ؟ » .

واشـارت آنى إلى غرفة النـوم وقالت : « إنه هنا » . فسألها : « أليس مريضا ؟ » .. فأجابت آنى بقولها : « كلا . لم يكن يبدو عليه المرض. سأحاول ان انقل إليه نبأ حضورك» . وذهبت إلى الحارس وخاطبته فى لهجة عاتية مستبدة : « قل لصاحب السعادة إن الدكتور وينتر هنا .. اتسمعنى ؟ » .

ولم يجب الحارس ، بل ولم يتحرك ، ولكن الباب فتح من خلفه واقبل العمـدة أوردن فوقف على عتبتـه ، ثم تجاهل

الحارس وانفلت من جانبه ودلف إلى الغرفة . وفكر الحارس لحظة فى أن يعيده إلى غرفته ، ولكنه تراجع ولزم مكانه بجوار الباب . وقال أوردن : « شكرا يا آنى ، ارجوك الا تبتعدى ، فقد احتاج إليك » .. فأجابت آنى قائلة : « كلا يا سيدى ، لن ابتعد . وهل سيدتى بخير ؟ » .

— إنها تصفف شعرها ، هل تودين مقابلتها يا آنى ؟

فقالت آنى : « اجل يا سيدى » ، وانفلتت هى الأخرى من جانب الحارس ، ودخلت الغرفة واغلقت الباب. وقال أوردن: « أتريد شيئا يا دكتور ؟ » .. فابتسم وينتر فى تهكم وسخرية ، وأشار من فوق كتفه إلى حارسه ، وقال : « أعتقد انى مقبوض على ، فلقد جاء بى صديقى هذا إلى هنا » .. فقال أوردن : « أعتقد أن هذا كان مقدرا أن يحدث ، تـرى ما عساهم أن يفعلوا الآن ؟ » .

ونظر الرجلان أحدهما إلى الآخر نظرة طويلة .. كان كل منهما يعرف ما يدور فى خلد الآخـر . وقـال أوردن ، وكأنه يستأنف حديثا بداه : « أنت تعلم أنه ما كان فى استطاعتى أن أحول دون هذا لو أردت » .

فأجاب وينتر : « أعلم هذا ، ولكنهم هم لا يعلمون ! » ، وأردف يعرب عن فكرة كانت تدور فى مخيلته : « إنهم قوم فى دقة الساعة ، وقد حانت ساعتهم .. إنهم يظنون أننا مثلهم : لنا زعيم واحد ، ورأس واحد .. إنهم يعلمون أن الإطاحة بعشرة رؤوس تقضى عليهم القضاء المبرم ، ولكننا قوم أحرار ، لنا من الرؤوس قدر ما لنا من الناس ، وفى وقت الشدة ينبت

بيننا الزعماء كأنهم النباتات الفطرية السريعة النمـو ! » .. ووضع أوردن يده على ذراع وينتر وقال : « شكرا لك . كنت أعلم هذا ، ولكن كان من الخير أن أسمعه منك . أتظن أن عزائم الناس ستخور ؟ » .. وأخذ يفحص وجه وينتر فى قلق ، بينما قال الطبيب مطمئنا : « كلا ، لن تهون عزيمتهم ، بل إنهم سيزدادون قوة على قوتهم ، بالمعاونة الخارجية ! » .

* * *

وساد الصمت فى الغـرفة لحظـة ، وتحرك الحارس من مكانه قليلا فأصابت بندقيته زرا من أزرار سترته ..

وقال اوردن : « إننى احدثك يا دكتور ، وقـد لا أستطيع محادثتك مرة أخرى ، ففى ذهنى بعض الأشياء المخجلة ! » .. ثم سعل والقى نظرة على الجندى الذى كان يقف جامدا ، فلما لم يبد عليه انه سمع شيئا ، أردف يقول : « لقد كنت أفـكر فى موتى ، فانهم إذا اتبعوا الإجراء المعتاد ، لوجب أن يقتلونى، ثم لوجب أن يقتلوك ! » .. فلما سكت وينتر سأله العمـدة قائلا : « أليس هـذا صحيحا ؟ » .. فأجاب وينتر بقوله : « نعم ، اعتقد هذا » ، وسار إلى أحد المقاعد المذهبة ، وشرع يجلس عليه ، ولكنـه لاحظ أن كسـاء المقعد ممزق ، فربت بأصبعه عليه كأن هذا يصلح من امره ، ثم جلس فى رفق عليه.

واستطرد اوردن يقول : « إننى خائف، وانت تعلم هذا ! .. وقد فكرت فى بعض الوسائل للهرب حتى أخرج من هذا المأزق ..لقـد فكرت فى الفرار ، وفكرت فى أن التمس الإبقـاء على

حياتى ! وإن الخجل ليتولانى وأنا أذكر كل هذا » .. فقـال وينتر وهو ينظر إليه : « ولكنك لم تفعل شيئا من هذا ؟ » .

ـــ كلا لم أفعل .

ـــ ولن تفعل ؟

فتردد اوردن وهو يجيب : « كلا، لن افعله، ولكننى فكرت فيـه » .

وأجاب وينتر فى لطف ورقة : « انى لك أن تعلم أن الناس جميعا لا يفكرون تفكيرك ؟ أنى لك أن تعلم أننى لم أفكر فيمـا فكرت فيه أنت ؟ » .

وتساءل أوردن : « ترى لماذا قبضوا عليك أنت أيضا ؟ .. لابد لهم من قتلك كذلك فيما أعتقد ! » .. فأجاب وينتر بقوله : « أعتقد هذا » ، ثم أخذ يلف ابهاميه الواحـد حول الآخـر ، ويرقبهما وهما يدوران ويدوران !

وقال أوردن : « أنت تعرف هذا » .. وسكت برهة ثم أردف يقول : « أنت تعلم يا دكتور أننى رجل قليل الشأن ، وهـذه بلـدة قليلة الشـأن ، ولكن الشرارة التى تنبعث من امر تافه الشان قد تشعل حريقا ! .. إننى خائف، ويكاد الخوف يقتلنى! وفكرت فى كل وسيلة يمكن ان اتوسل بها لإنقاذ حياتى .. ثم انقضى كل هذا ، واصبحت أشعر أحيانا بشىء من الابتهاج ، كما لو كنت قد أصبحت أكبر وأفضل مما كنت !.. أو تعرف فيم كنت أفكر يا دكتور ؟ » .. وافتر ثغره عن ابتسامة ، وقد تواردت على خاطره الذكريات ، وراح يقول :

« أتذكر درس « الاعتذار » فى المدرسة ؟.. أتذكر سقراط وهو يقول : « سيقول البعض : أو لست خجلا يا سقراط من مجرى حياة قد تؤدى بك إلى نهاية مبكرة ؟ » .. إن لدى ردا طيبا يصلح له ، إلا وهو : « انكم مخطئون ، فان الرجل الذى يصلح لأي شيء ، يجب الا يحسب حساب حظه فى الحياة أو الموت ، بل يجب ان ينحصر تفكيره فيما إذا كان على حق أو على خطأ فيما يفعل ! » .

ثم توقف أوردن محاولا ان يتذكر ، بينما جلس الدكتور وينتر وهو يميل إلى الأمام وقد اهاجته الذكرى ، واخذ يتم ما نقص من حديث أوردن عن سقراط : « وهو يؤدى دور الرجل الصالح أو الرجل الشرير ! ».. لا أعتقد انك تحفظه ، فما كنت قط طالب علم مجد ، ثم إنك اخطأت فى الحكم عليه كذلك !

فضحك أوردن وهو يقول : « أو تذكر هذا ايضا ؟ » .

فقال وينتر فى حمية : « اجل ، اذكره جيدا .. واذكر أنك نسيت سطرا او لفظا ، فى يوم الاحتفال بالتخرج .. بل انك نسيت أن تدخل أطراف قميصك فى « البنطلون » ، فظل القميص مطلا من الخلف .. وكنت تعجب من ضحكهم » .. فابتسم أوردن لنفسه ، وامتدت يده خفية خلفه ليطمئن إلى ان أطراف قيمصه ليست متهدلة ، ثم قال : « لقد جعلت من نفسى « سقراط » آخر ، فحملت على مجلس إدارة المدرسة . وما كان أشد حملتى عليهم !.. لقد كنت أجأر بالتشهير فى وجوههم التى اصطبغت بحمرة قانية !

وقال وينتر : « كانوا يحبسون انفاسهم حتى لا يستغرقوا فى الضحك ، فقد كان ذيل قميصك خارجا » ، فضحك العمدة أوردن وقال : « كم انقضى على هذا الحادث ؟ أربعون عاما ؟! » .

— بل ستة وأربعون !

* * *

وانتقل الحارس المعين على غرفة النوم فى هدوء إلى الحارس القائم على الباب الخارجى ، فاخذ الاثنان يتحدثان خلسة فى صوت خافت ، وكأنهما طفلان يتحدثان فى مدرسة . قال أحدهما : « منذ متى توليت نوبتك هذه ؟ »

— قضيت الليل بطوله فى النوبة ، ولا اكاد أستطيع فتح عينى !

— وأنا كذلك . هل اتصلت بزوجتك على الباخرة أمس ؟

— اجل ! وهى ترسل إليك تحياتها ، وقد قالت إنها علمت أنك جريح .. وهى تعتذر لأنها لا تكتب كثيرا .

— قل لها إننى بخير .

— سأفعل ، عندما اكتب إليها !

ورفع العمدة رأسه ونظر إلى السقف ، ثم تمتم يقول : « هم — م — م !.. ترى أستطيع ان أتذكر باقى القطعة ؟ ». فأسعفه وينتر بقوله : « والآن أيها الرجال .. » فقال أوردن فى رقة : « والآن أيها الرجال الذين حكمتم على .. ».

وفى تلك اللحظة دلف الكولونيل لانسر إلى الغرفة بهدوء ، فشد الحارسان من قامتيهما . وسمع لانسر كلمات العمدة ، فوقف مكانه وأخذ ينصت ، بينما تطلع أوردن إلى السقف وقد استغرق فى التفكير ، محاولا أن يتذكر هـذا النص القديم ، ثم قال : « والآن ، أيها الرجال الذين حكمتم على : إن الرغبة لتتملكنى فى أن أتنبأ لكم .. ذلك أننى على وشك الموت ، وفى ساعة الموت يوهب الناس ملكة التنبؤ .. إننى لأتنبأ لكم ، أنتم يا قتلتى ، بأنكم بعد موتى مباشرة .. » .

ونهض وينتر وهو يقول : « رحيلى » ، فنظر إليه أوردن وقال : « ماذا ؟ » .

فأجاب وينتر : « إن النص هو « رحيلى » لا « موتى » .. لقد وقعت فى هذا الخطأ قبلا .. لقد ارتكبت هذه الغلطة منذ ستة وأربعين عاما » .

ــ كلا ، بل النص « موتى » ، أجل ، النص هو : «موتى».
ثم التفت فوجد الكولونيل لانسر يراقبه ، فقال : « أليس اللفظ هو موتى ؟ » .. وأجاب الكولونيل لانسر بقوله : « بل « رحيلى » ، ونص العبارة هو : بعد رحيلى مباشرة ! » .

وقال الدكتور وينتر مصرا : « أرأيت ؟.. اثنان ضد واحد ! اللفظ هو « رحيلى » ، إنها نفس الغلطة التى ارتكبتها قبلا » .

وحدق أوردن النظر أمامه ، وبدا كأنه ينقب فى ذاكرته يستوحيها باقى القطعة ، وكأنه لا يرى شيئا مما كان حوله

وما عتم أن أردف يقول : «إننى لأتنبأ لكم ، أنتم يا قتلتى ، بأنكم بعد رحيلى مباشرة ستتلقون من غير بد عقابا أشد هولا من العقاب الذى أنزلتموه بى ! » .

وأومأ وينتر برأسه مشجعا ، كما أومأ الكولونيل لانسر ، وكأنهما يحاولان أن يعيناه على التذكر .. بينما استرسل أوردن يقول : « لقد قتلتمونى أنا لأنكم أردتم أن تهربوا ممن يتهمكم ، وألا تقدموا حسابا عن حياتكم ! » .

وهنا اقتحم الملازم براكل الغرفة ثائرا يقول : « كولونيل لانسر ! » .. فقال الكولونيل : « صه ! » ، ورفع يده ليحول دون استمراره فى الحديث !

واستطرد أوردن يقول فى صوت خافت : « ولكن الأمر لن يكون كما ظننتم ، بل إنه على النقيض » .

ثم اشتد صوته : « لأننى أقول لكم إن عدد من يتهمونكم سيزداد عما هو عليه الآن ! » .. وأشار بيده كالخطيب وهو يسترسل قائلا : « لسوف يتهمكم أولئك الذين كنت أصدهم عنكم حتى اليوم .. وبما أنهم أصغر منى سنا ، فسوف يكونون أكثر تهورا فى معاملتكم ، وسوف يشتد استياؤكم منهم ! » .. ثم قطب حاجبيه وهو يحاول أن يتذكر مزيدا من مرافعة « سقراط » أمام الذين حاكموه !

وقال الملازم براكل : « لقد وجدنا الديناميت فى حوزة بعض الرجال يا كولونيل » .. فأجابه لانسر بقوله : « صه ! » .. بينما استرسل أوردن فى التلاوة : « إذا ظننتم أنكم بقتلكم الناس

تستطيعون منع شخص من انتقاد حياتكم الشريرة ، فانكم تخطئون ! » ، ثم قطب حاجبيه ، وفكر قليلا . ورفع بصره إلى السقف ، وابتسم فى حيرة وهو يقول : « هذا كل ما استطيع أن اتذكره ، لقد غاب عنى الباقى ! » .

وقال الدكتور وينتر : « هذا قدر طيب جدا بعد ستة واربعين عاما .. بل إنك لم تكن تحسنه إلى هذا الحد منذ ستة وأربعين عاما ! » .

وقطع عليه الملازم براكل حديثه قائلا : « وجدنا الديناميت مع بعض الرجال يا كولونيل لانسر » .

ـــ هل قبضت عليهم ؟

ـــ أجل يا سيدى ، فان الكابتن لوفت ..

وقال لانسر : « قل للوفت أن يشدد الحراسة عليهم » ، ثم استعاد وعيه وتقدم فى الغرفة قائلا : « إن هذه الحوادث يجب ان تمتنع يا اوردن » .. فابتسم العمدة فى عجز وهو يقول : « لا يمكن أن تمتنع يا سيدى » .

وقال الكولونيل لانسر فى صوت شابه العنف : « لقد قبضت عليك رهينة لحسن سلوك الشعب ، وقد أصدرت انا هذا الأمر ! » .. فأجاب أوردن ببساطة : « ولكن هذا لن يحقق امتناع الحوادث .. إنك لا تدرك الحقيقة .. إننى إذا أصبحت حائلا دون إرادة الشعب فلن يتردد الشعب فى التصرف دون الرجوع إلى ! » .

فقال لانسر : « حدثنى صراحة عما تعتقد .. إذا علم الناس أننا سنقتلك لو أنهم أشعلوا فتيلا آخر ، فماذا تراهم يفعلون ؟ » .. فنظر العمدة إلى الدكتور فى حيرة !

***

وإذ ذاك فتح باب غرفة النوم ، وخرجت زوجة العمدة تحمل قلادة العمودية وشارة منصبه فى يدها ، وقالت : « لقد نسيت هاتين ! » .

فقال أوردن : « ماذا ؟ أى نعم » .. وطأطأ رأسه ، فرفعت السيدة القلادة فوق رأسه وألبسته إياها ، فقال : « شكرا لك يا عزيزتى » .

وأخذت السيدة تشكو قائلة : « إنك تنساها دائما ! إنك لا تذكرها قط ! » .. فنظر العمدة إلى طرف القلادة التى يمسكها فى يده ـــ الوسام الذهبى ـــ وقد نقشت عليه شارة منصبه .. والح عليه لانسر فى السؤال وهو يردد : « ماذا تراهم يفعلون ؟ » .

واجاب العمدة : « لست ادرى! أظنهم يشعلون الفتيل !» .

ـــ هب أنك طلبت منهم الا يفعلوا ؟

فقال وينتر : « شاهدت هذا الصباح يا كولونيل صبيا صغيرا يبنى من الجليد هيئة رجل ، فى حين وقف ثلاثة من جنودكم البالغين يراقبونه حتى لا يقلد صورة زعيمكم ، ومع ذلك فانه أتقن الشبه فى الوجه الذى رسمه قبل أن يعمد الجنود إلى إتلاف الشكل الذى بناه ! » .

وتجاهل لانسر الطبيب ، وعاد يردد قائلا للعمدة : « هب انك طلبت إليهم الا يفعلوا » .. وبدا كأن أوردن يقاوم النوم ، وحاول ان يفكر ، ثم ما لبث أن قال : « لست رجلا شجاعا جدا يا سيدى ، ولكننى أعتقد أنهم يشعلون الفتيل على كل حال ! » .. وبدا كأنه ينتزع الكلمات انتزاعا وهو يردف: « أرجو أن يفعلوا . على أنهم سيستاءون إذا طلبت منهم غير ذلك ! » .

وتساءلت زوجة العمدة : « فيم كل هذا ؟ » .

فأجاب العمدة : « الزمى الهدوء قليلا يا عزيزتى » .

والح لانسر فى سؤاله قائلا : « ولكن هل تظن انهم سيشعلونه ؟ » .

فأجاب العمدة فى زهو وكبرياء : « أجل ، سيشعلونه . ليس لى الخيار فى الحياة أو الموت يا سيدى ، ولكن لى الخيار فى الوسيلة التى اسعى بها إلى إحدى هاتين الغايتين ! وإذا انا قلت لهم لا تقاتلوا ، فسيشتد بهم الأسف ، ولكنهم سيقاتلون. أما إذا قلت لهم قاتلوا ، فسيستفزهم الطرب ، وأكون أنا — الذى لم أوت قدرا كبيرا من الشجاعة — قد زدت من شجاعتهم قليلا ! » ، وابتسم وكأنه يعتذر عما يقول ثم استطرد : فأنت ترى أن الأمر سهل على ما دامت نهايتى لن تتغير فى الحالين ! » .

فأجاب لانسر بقوله : « إذا قلت نعم فسنقول لهم إنك قلت لا ، وسنخبرهم انك التمست الإبقاء على حياتك ! » ، فقاطعه وينتر وقد تملكه الغضب : « سيعرفون الحقيقة ، فانكم قوم

لا تحافظون على الأسرار ! لقد خانت احد رجالكم أعصابه ذات ليلة ، وقال إن الذباب قد غلب ورق صيد الذباب على امره ، فتسربت هذه العبارة إلى الأمة جمعاء .. بل إن الناس جعلوا منها اغنية . لقد غلب الذباب ورق صيد الذباب على امره !.. إنكم لا تحافظون على الأسرار يا كولونيل ! » .

ورن فى آذانهم صفير مدو من ناحية المنجم ، وهبت لفحة سريعة من الرياح حملت معها الجليد والقت به على النوافذ .. واخذ اوردن يعبث بوسامه الذهبى ، ثم قال فى هدوء : « ارأيت يا سيدى ؟ لا شىء يمكن أن يغير من مجرى الأحوال. ستوردون مورد التهلكة ، وستطردون من البلاد ! » .. ثم قال فى لهجة رقيقة : « إن الشعب لا يحب ان يقهر يا سيدى ، وهكذا لن تستطيعوا ان تغلبوه على أمره . إن الأحرار لا يمكن ان يبدأوا حربا ، ولكن ما إن تبدأ الحرب حتى يقاتلوا ولو وقعت بهم الهزيمة . أما قطعان الناس الذين ينساقون لزعيم واحد ، فلا يمكن أن يفعلوا هذا .. ومن ثم فان القطعان هم الذين يفوزون دائما فى المعارك والاشتباكات .. أما الأحرار فهم الذين يفوزون فى نهاية الحروب !.. ستجد الأمر كما اقول يا سيدى ! » .

وكان لانسر منتصب القامة ، وقد جمدت أطرافه ، فقال : « إن اوامرى صريحة ، وقد حددت الساعة الحادية عشرة لتنفيذها ، واخذت الرهائن ، فاذا وقع شىء من حوادث العنف أعدمت الرهائن » .

وسأل الدكتور وينتر الكولونيل قائلا ، « هل ستنفذ الأوامر وانت تعلم أن مآلها إلى الفشل ؟ » .

وكست مسحة من الصرامة وجـه لانسر وهو يقـول : « سأنفذ أوامرى مهما تكن قسوتها ، ولكننى أعتقد يا سيدى أن تصريحا منك قد ينقـذ أرواحا كثيرة » .. وهنـا تدخلت السيدة فى الحديث ، وقالت لزوجهـا فى لهجة استعطاف : « بالله خبرنى فيم كل هذا الهراء » .

ــ إنه هراء يا عزيزتى !

واخذت تجادله قائلة : «ولكن لا يمكنهم القبض على العمدة» .. فابتسم أوردن لها وهو يقول : « كلا ، لا يمكنهم القبض على العمدة ، فالعمدة فكرة تتمثل للأحـرار .. وستفلت من الاعتقال ! » .

وسمع من بعيد صوت انفجار رددت صداه الجبال . ومـا لبث أن ارتد ثانية ، فأطلقت صافرة المنجم إنذارا حادا مدويا . ووقف أوردن وقد توترت أعصابه لحظة ، ثم ابتسم .. ودوى صوت انفجار ثان ، أقوى فى هذه المرة دويا وأقرب موقعا ، فنظر العمدة إلى سـاعته ، ثم تنـاول السـاعة وسلسلتها ووضعهـما فى يد الدكتـور وينتر ، وسـأله : «ماذا فعـل الذباب ؟ » .

فأجابه وينتر قائلا : « لقد غلب الذباب ورق صيد الذباب على أمره ! » .

ونادى أوردن قائلا : « آنى » ، ففتح باب غرفة النوم فى الحال . وقال العمـدة : « اكنت تتسمعين الحديث ؟ » .. فأجابت آنى وقد غلبها الخجل : « أجل يا سيدى ! » .

ثم دوى صوت انفجار ثالث قريب ، وسمع صـوت تكسر الخشب والزجاج . وانفتح البـاب القائم خلف الحارسين ، وقال أوردن : « أحب يا آنى أن تبقى مع سيدتك طالمـا هى فى حاجة اليك ، ولا تتركيها وحدها » . ووضع ذراعه حول السيدة ، وطبع قبلة على جبينها ، ثم سار ببطء نحو البـاب حيث كان الملازم براكل ينتظره . والتفت وهو على عتبة الباب إلى الدكتور وينتر ، وردد ما قاله سـقراط فى الزمن الغابر لصديقه كريتو : «إننى مدين لاسكلبيوس[١] بديك يا كريتو[٢]، فهل لك ان تذكر وفاء دينى ! » .. وكانت عبارته مصوغة فى لهجة رقيقة ناعمة .

وأغلق وينتر عينيه لحظة قبل أن يجيبه قائلا : « سـأوفى دينك ! » .

وضحك أوردن عندئذ وهو يقول : « لقـد تذكرت هـذا الدين ، ولم أنسـه ! » ، ووضع يده على ذراع براكل ، فجذب الملازم ذراعه بعيدا عن ملمسـه . وإذ ذاك اومأ وينتر برأسـه فى بطء وقال : « اجل ، إنك تذكرته ، وسأوفيه أنا ! » .

انتهت

---

(١) كان اسكلبيوس اله الطب والشفاء فى الأساطير الاغريقية ، وتضحى له الديكة .

(٢) كان كريتو صديق سقراط ، وقد حاول أن يمهـد له سـبيل الفرار

البائسان

(عن «تورتيلا فلات»)

TORTILLA FLAT

طريقة جديدة ٠٠ فى تاليف القصص !

ابتكر ((جون شتاينبيك)) طريقة طريفـة فى تاليف الروايات ٠٠ فهو يجعل من كل فصل فى الرواية قصة قائمة بذاتها ، وفى الوقت ذاته تؤلف الفصول معا قصة كبيرة متماسكة٠ وفى الصفحات التالية ، نقدم لك فصلين من رواية ((تورتيلا فلات)) ، التى تعتبر بداية مجـد ((شتاينبيك)) ٠٠ وستلمس ان كل فصـل منهما يكون قصة تصويرية فكهة ، وان الفصلين معا يكونان قصـة كاملة ذات مغزى وحبكة !

ونردف هذين الفصلين باحدى القصص القلائل التى كتبها ((شتاينبيك)) ونشرها على انها قصص قصيرة مستقلة ٠٠ وستلمس فى تلك القصة ـ عبد زوجته او ((سرج الحصان)) ! ـ روعة أسلوب ((شتاينبيك)) ، وجمال الفكرة !

(١) دانى

كيف عاد دانى إلى وطنه بعد الحرب ليجد نفسه وارثا ، وكيف آلى على نفسه أن يكون حاميـا للضـعفاء !

علم دانى ـ حين عاد إلى الوطن ، بعد ان سرح من الجيش ـ أنه صار وارثا ، ومالكا عقاريا ٠ فان جده الشيخ قد مات ، وخلف له البيتين الصغيرين القائمين على هضبة (تورتيلا) ٠

وعندما علم دانى بهذا الميراث ، وأثقل الشعور بالمسئولية — كمالك — قلبه .. فابتاع جالونا من النبيذ الأحمر ، وتجرع معظمه قبل أن يذهب ليتفقد عقاره . وإذ ذاك فارقه هم المسئولية ، وطفت على سطح شخصيته أسوأ معالم فطرته ، فراح يصيح ، وحطم بعض المقاعد فى حانة بشارع (الفارادو) ، وخاض غمار مشاجرتين قصيرتين ، ولكنهما مظفرتان .. ومع ذلك فان أحدا لم يول دانى كثير اهتمام ، فما لبثت ساقاه المقوستان ، المترنحتان ، أن حملتاه صوب الميناء ، حيث كان صيادو السمك الإيطاليون يتوافدون فى هذه الساعة المبكرة من الصباح — وقد ارتدوا أحذية خفيفة من المطاط — لينطلقوا إلى عرض البحر ..

وتغلب التحمس العنصرى على تعقل دانى ، فراح يتوعد الصيادين ، ويرميهم بأقذع النعوت ، صائحا : « أيها الصقليون .. يا أولاد السفاح ! » .. و « أيها الطغام الوافدون من جزيرة السجن ! » ، و « يا كلاب ، يا سلالة الكلاب ! » .. وراح يضع اصبعه على انفه ويهز ما تحت وسطه فى حركات وقحة مستهجنة ! ولكن الصيادين لم يجيبوه بأكثر من ابتسامات راثية ، ثم حركوا مجاديفهم وهم يقولون : « اهلا بك يا دانى .. متى عدت إلى الوطن ؟.. تعال الليلة ، فلدينا نبيذ جديد ! » .

ولم يزد هذا دانى إلا هياجا ، فصاح بأعلى صوته يسبهم .. ولكنهم أجابوه قائلين : « مع السلامة يا دانى .. تعال الليلة ! » ، ثم حركوا مجاديفهم حتى خرجت زوارقهم من المياه

الضحلة ، وإذ ذاك اداروا محركاتها ، وابتعدوا فى عرض البحر !

ورأى دانى فى مسلكهم إساءة له ، فكر راجعا إلى شارع (الفارادو)، وحطم زجاج نافذتين فى طريقه، حتى إذا بلغ الصف الثانى من بيوت ذلك الشارع ، تلقفه رجل البوليس . ولما كان دانى يحترم القانون احتراما بالغا ، فقد بادر إلى الهدوء . ولولا انه كان قد سرح لتوه من الجيش — بعد الانتصار على المانيا ! — لقضى عليه بالسجن ستة أشهر . اما والحال هذه ، فان القاضى اكتفى بأن حكم عليه بالسجن لثلاثين يوما فقط !

ومن ثم ، جلس دانى على فراشه فى سجن مدينة (مونتيرى) شهرا . وكان يرسم احيانا على الجدران صورا مستهجنة ، بينما يسترجع — فى احيان أخرى — ذكرى خدمته فى الجيش . وثقلت عليه وطأة الوقت وهو يمر متباطئا أثناء وجوده فى سجن المدينة . وكان يزج فى السجن بسكير بين آن وآخر ، ولكن إقامته لم تكن تزيد على ليلة واحدة . وفيما عدا ذلك كانت حرفة الإجرام راكدة السوق فى (مونتيرى) ، فكان دانى وحيدا فى سجنه اغلب الوقت . ولقد اقض البق مضجعه بعض الشىء فى البداية ، ولكنه لم يلبث أن انسجم معه بعد أن اعتاد مذاق دمه ، وبعد أن ألف دانى لدغاته !

* * *

وبدأ يمارس لعبة ساخرة ، فأمسك ببقة وسحقها فى الجدار ، ثم رسم حولها دائرة بالقلم الرصاص ، وأسماها

« العمـدة كلو » ! وامسك بعـد ذلك ببقـات أخـرى ، أطلق عليها أسماء اعضاء مجلس المدينة . ولم ينقض طويل وقت ، حتى ازدان الحائط ببقات مسحوقة تحمل أسماء أعيان المدينة . ثم رسم لها دانى آذانا وذيولا ، وخلع عليها أنوفا وشوارب طويلة !.. وبهت « تيتو رالف » ــ السـجان ــ واحس باستنكار ، ولكنه لم ينبس بأية شكوى ، لان دانى لم يكن قد ضم إلى معرضه القاضى الذى اصدر الحكم عليـه ، ولا احدا من قـوة البوليس .. فقـد كان عظيم الاحترام للقانون !!

وفى ذات ليلة ، امضت الوحدة «تيتو رالف» فوفد على زنزانة دانى وهو يحمل زجاجتين مليئتين بالنبيذ .. وإن هى إلا ساعة، حتى خرج ليحضر مزيدا من النبيذ ، فصحبه دانى إلى الخارج، إذ كان جو السجن خاليا من البهجـة !.. ومكثـا فى حانة « توريللى » يعبان الخمر عبا ، حتى القى بهما توريللى إلى الرصيف .. فيمم دانى عقب ذلك شطر غابات الصنوبر ، حيث استسلم للنعاس ، بينما اتخذ « تيتو رالف » طريقه عائدا إلى السجن وهو يترنح ، وابلغ المسئولين ان دانى قد هرب !

وعندما أيقظت الشمس الوضاحة دانى حوالى الظهر ، قرر أن يختبىء طيلة النهار ليفلت ممن قد يطاردونه ، ومن ثم اخذ يجرى محتميا بالأدغال ، مرسلا بصره خـلال الأشجار المنخفضة كما لو كان ثعلبا مطاردا . وعنـدما هبط المساء ، واطمأن إلى انه نجا بجلده من أية مطاردة ، خرج من مخبئه ، وبدأ العمل من أجل « مهمته » !.. وكانت مهمة صريحة ،

اتخذ سبيله إليها مباشرة . فقد سعى إلى الباب الخلفى لأحد المطاعم ، وسأل الطاهى : « هل اجد لديك شيئا من الخبز القديم لكلبى ؟ » . وبينما كان الرجـل الطيب يلف له غذاء « الكلب ! » ، سرق دانى شريحتين من لحم الخنزير ، واربع بيضات ، وقطعة من فخذ الضان ، وطائرا ذبيحا !

وقال الطاهى وهو يتناول منـه كيس الخبز : « لسـوف ادفع لك الثمن فيما بعد » .

ــ لا داعى لأن تدفع ثمنا للفضـلات .. إننى مضطر لان القيها خارج المطبخ إذا انت لم تاخذها !

وارتاح بال دانى إذ ذاك إزاء السرقة .. فقد اعتبر قول الطاهى شاملا لكل ما أخذ ، ومن ثم لم يكن عليه اى جناح او وزر .. فى الظاهر ، على الأقل !.. وتسلل دانى عائدا إلى حانة « توريللى » ، حيث استبدل بالبيضـات الأربع ، وفخذ الضان ، والطائر ، ملء كوب ماء من الحسـاء ، ثم ارتد إلى الغابات ، ليعد عشاءه ..

* * *

وكانت الليلة معتمة ، رطبة ، وقـد أطبق الضـباب على اشجار الصنوبر السوداء التى كانت تقوم كحراس ساهرين على اطراف (مونتيرى) . واندس دانى بين الأشجار ، واخذ بجرى موغلا فى الغابات ، باحثا عن ملجـا ، فما لبث ان رأى امامه شبحا آخر يمضى مهرعا . وإذ جهد فى الجرى ليقترب منه ، ادرك من مشـيته أنه صديقه القديم « بيلون » . وكان

دانى رجلا كريما سخيا ، ولكنه تذكر أنه قد باع كل ما كان معه من طعام ، اللهم إلا قطعتى لحم الخنزير ، وكيس الخبز الجاف ، ومن ثم قال لنفسه :

– سأتغاضى عن بيلون وأسبقه ، فانه يبدو كرجل امتلأ بطنه بديك رومى وما إلى ذلك .. فهو فى غير حاجة إلى كرمى !

على أن دانى لم يلبث أن لاحظ ان « بيلون » كان يضم طرف سترته إلى صدره فى شغف واعتزاز ، فصاح : « اى .. ه ! بيلون .. أيها الصديق ! » .

واوسع بيلون من خطاه ، فجد دانى فى ملاحقته راكضا ، وهو يقول : « بيلون ، أيها الصديق الصغير !.. إلى اين نراك مسرعا ؟ » .

ولم يجد بيلون حيلة إزاء أمر لا مفر له منه ، فتوقف وانتظر . ولحق به دانى وقد أخذ الاعياء منه ، ولكن لهجته ظلت رقيقة ، حارة ، وهو يقول : « لقد كنت أبحث عنك يا أعز الأصدقاء من الملائكة الصغار !.. كنت أبحث عنك ، لاننى احمل شريحتين من لحم الخنزير ساقهما الله لى ، وكيسا من الخبز الأبيض اللذيذ .. فشاركنى هذا الخير يا بيلون الصغير العزيز ! » .

وهز بيلون كتفيه وتمتم فى جفاء : « وهو كذلك ! » .. وسارا معا موغلين فى الغابة ، وقد استبدت الحيرة ببيلون . على أنه لم يلبث فى النهاية ان توقف ، والتفت إلى صديقه ، ثم ساله فى أسى : « صارحنى يا دانى .. كيف تسنى لك ان تعرف أننى أحمل تحت سترتى زجاجة براندى ؟ » .

وصاح دانى : « براندى ؟.. هل معك براندى ؟ » .. ثم انقلبت لهجته إلى دعابة وهو يقول : « لعله لأم عجوز مريضة .. أو لعلك تحتفظ به لمولانا يسوع المسيح عندما يعود إلى الأرض ثانية ؟!.. ولكننى لست سوى صديق ، فبأى حق أسألك عن غايتك من هذا البراندى ؟ .. بل إننى غير متأكد من انك تحمل براندى ، على الاطلاق ! .. ثم إننى لست ظامئا ، ولن امس هذا البراندى . ولكننى ارحب بك لتشاطرنى ما لدى من لحم الخنزير .. اما البراندى ، فهو لك .. إنه براندیك ! » .

فأجاب بيلون فى حزم : « إننى لا احجم عن أن اشركك معى فى هذا البراندى يا دانى .. فلنقتسمه مناصفة ، لأن واجبى يقضى على بالا ادعك تشربه كله فتثمل ! » .

* * *

وتغاضى دانى عن الموضوع فترة ، ولكنه لم يلبث ان قال : « ها هى ذى بقعة خالية من الأعشاب ، فتعال إليها .. وسأنضج لحم الخنزير ، بينما تقدد انت قطع الخبز التى يحويها هذا الكيس . ضع برانديك هنا يا بيلون .. هذا المكان انسب ، إذ ييسر لنا السبيل إلى مراقبته دون ان يشغل كل منا عن الآخر ! » .

وجمعا بعض الاغصان والأوراق فاتخذاها وقودا لنار اشعلاها ، وانضجا عليها لحم الخنزير ، والتهما الخبز القديم ، واخذ البراندى ينكمش بسرعة فى الزجاجة .. فقد استلقيا إلى جوار النار بعد ان فرغا من الاكل ، واخذا يتحسسان من

الزجاجة على مهل ورفق ، كنحلتين ترشفان الرحيق .. بينما هبط عليهما الضباب فكسا سترتيهما بالندى . وتنهدت الريح بأسى بين أفنان أشجار الصنوبر التى كانت تحيط بهما ..

وبعد فترة ، اكتنف دانى وبيلون شعور من الوحدة الموحشة ، إذ أخذ دانى يفكر فيمن فقد من أصدقاء .. وما لبث أن راح يتحسس ذراعيه بكفيه ، وهو يتساءل : « اين ارثر مورالس ؟ » .. ثم اجاب بنفسه عن السؤال ، وهو يترك ذراعيه تتراخيان فى اسى : « لقد مات فى فرنسا .. مات فى سبيل الوطن .. مات فى بلد اجنبى ! .. إن الأغراب يسيرون على مقربة من مثواه ، دون أن يعرفوا أن ارثر مورالس يرقد فى جوف الثرى هناك ! » .. ثم عاد يزحف براحتيه إلى اعلى ذراعيه ، ويتساءل : « وأين بابلو .. ذلك الرجل الطيب ؟ » .

وجاءه الجواب من بيلون فى هذه المرة ، إذ قال : « فى السجن ! .. لقد سرق بابلو اوزة ، واخفاها فى احد الأدغال .. ولكن الأوزة عضت بابلو ، فصرخ ، وفضح نفسه ! .. وهو الآن ملقى فى السجن لستة اشهر ! » .

وتنهد دانى فى حزن ، ثم عدل عن الموضوع وتحول إلى سواه ، إذ فطن إلى أنه قد تحدث عن الصديق الوحيد الذى يستطيع أن يستغل ذكراه ليعرض بلاغته فى الرثاء ! .. ولكن الوحشة عادت تمضه وتثقل عليه ، فأخذ يبحث عن مهرب منها . وما لبث أن قال أخيرا : « ها نحن نجلس ... » ، فقاطعه بيلون وهو يكمل العبارة بأسلوب شاعرى : « كسيرى القلب ! » .

ولكن دانى قال : « لسنا ننظم شعرا .. إنما أردت ان اقول إننا نجلس هنا شريدين بلا مأوى .. لقد وهبنا أرواحنا للوطن ، وها نحن نعود فلا نجد سقفا يظلنا ! » .. فعقب بيلون مواسيا : « ولكنا لم نؤت فى حياتنا من قبل سقفا يعلو رؤوسنا ! » .

* * *

واقبل دانى على الزجاجة يعب منها وهو غائب الوعى ، حتى مس بيلون ساعده ، واخذ الزجاجة منه ، فقال دانى : « إن هذا يذكرنى بقصة رجل كان يملك بيتين .. » ، وأمسك فجاة عن الكلام ، وفغر فاه ، ثم صاح : « بيلون ! .. بيلون ، يا صديقى الطفل الشبيه بالبطة الصغيرة السمينة ! .. لقد نسيت ! .. نسيت أننى ورثت ! .. أننى أملك بيتين ! » .

فتساءل بيلون ساخرا : « لعلهما بيتان للدعارة ؟! » ، ثم اردف قائلا : « يا لك من كذاب ثمل ! » .

— لا يا بيلون .. إنما أقول الحقيقة . لقد مات « الشيخ » وأصبحت وريثه .. فأنا أحب حفيد لديه !

فقال بيلون الذى كان يؤثر الواقعية : « إنك الحفيد الوحيد له .. وأين هذان البيتان ؟ » .

— اتعرف بيتى الشيخ على هضبة تورتيلا يا بيلون ؟

— هنا .. فى مونتيرى ؟

— أجل ، هنا فى مونتيرى .. على هضبة تورتيلا .

— وهل هما صالحان .. هذان البيتان ؟

فتهالك دانى على العشب ، وقد أنهكه اصطخاب المشاعر فى نفسه ، ثم قال : « لست ادرى .. لقد نسيت أننى أصبحت مالكهما ! » .

وظل بيلون فى مجلسه مستغرقا فى التفكير ، وقد ازداد تسلط الوجوم والأسى على أساريره .. ثم ألقى بحفنة من أقماع الصنوبر فى النار ، وراح يرقب اللهب وهو يذكو ويندلع حتى أتى عليها وعاد إلى الخفوت . وتحول بعد ذلك يتفرس فى وجه دانى طويلا ، وقد تجلى عليه القلق ، ثم أرسل زفرة عالية . وزفر مرة اخرى ، قبل ان يقول فى صوت حزين : « ها قد انتهى كل شىء .. ها قد انقضت الأوقات العذبة الحافلة .. لسوف يحزن أصدقاؤك ، ولكن الحزن لن يجدى فتيلا ! » .

فوضع دانى الزجاجة على الأرض .. والتقطها بيلون فوضعها فى حجره .. وما لبث دانى ان تساءل : « ما هذا الذى انقضى ؟ .. ماذا تعنى ؟ » .

فاجاب بيلون وكانه يستأنف حديثه السابق : « إنها ليست المرة الأولى ! .. ان المرء يقول لنفسه إذا ما كان فقيرا : لو اننى أوتيت مالا ، لاقتسمته مع اصدقائى » .. ولكن ، ما إن يواتيه المال ، حتى تتبخر روح الخير من نفسه . وهكذا الحال معك .. انت يا من كنت صديقى يوما ! .. لقد ارتفعت فوق مستوى أصدقائك ! .. اصبحت من أصحاب العقارات .. لسوف تنسى أصدقاءك الذين تقاسموا معك كل شىء .. حتى البراندى ! » .

وحركت كلماته أشجان دانى ، فهتف : « لا .. إننى لست من هذا النوع ! .. لن أنساك قط يا بيلون ! » .. ولكن بيلون قال فى فتور : « هكذا يخيل إليك ، ولكنك لن تلبث أن ترى نقيض ذلك ، إذا ما أصبح لك بيتان تأوى إليهما ! .. لسوف يظل بيلون فلاحا فقيرا ، فى الوقت الذى تجلس انت فيه مع العمدة على مائدة واحدة ! » .

فهب دانى من مجلسه مترنحا ، ثم استند إلى شجرة ريثما يتمالك توازنه ، وقال : « إننى أقسم لك يا بيلون ان مالى سيصبح مالك .. ولسوف اكتفى ببيت ، ليكون لك ـ أنت الآخر ـ بيت ! .. الا اعطنى رشفة من الشراب ! » .. ولكن بيلون قال فى صوت متقاعس : « لن اصدق هذا حتى اراه راى العين .. ولو صح لكان اعجوبة من أعاجيب الدنيا ، ولسوف يتوافد الناس من آلاف الأميال ليشاهدوه ! .. وإلى جانب هذا أحب أن اقول لك إن الزجاجة قد فرغت ! » .

(٢) بيلون

كيف أن الطمع فى استغلال الموقف اغرى بيلون على أن يستمرىء كرم دانى !

تركهما المحامى عند الباب الخارجى للبيت الثانى ، وصعد إلى سيارته « الفورد » ، وانحدر بها على السفح ميمما شطر (مونتيرى) .

ووقف دانى وبيلون أمام السياج المجرد من الطلاء ، وراحا يتأملان المبنى فى اعجاب : كان بيتا منخفضا ، ملطخا بآثار قديمة لطلاء الجير ، وقد بدت نوافذه بلا ستائر ولا مصاريع خشبية . ولكن « السلاملك » كان مزدانا بشجرة ورد أحمر كبيرة ، كما كانت زهور « الجيرانيوم » — التى زرعها الجد — تنمو بين الأعشاب الطفيلية فى الساحة الأمامية للدار !

وقال بيلون : « هذا أفضل البيتين .. فهو أكبر من الآخر ! » .

وكان دانى يمسك فى يده مفتاحا كبيرا ، فسار على أطراف أصابع قدميه عبر « السلاملك » المهشم الأرضية ، ثم فتح باب الدار ..

وكانت القاعة الرئيسية على حالها المألوفة أيام كان الشيخ يقيم فى البيت .. فهناك تقويم سنة ١٩٠٦ (نتيجة الحائط) الوردى اللون . وكان العلم الحريرى مثبتا إلى الجدار ، وكذا لوحة تمثل بارجة ضخمة يطل من ثناياها المحاربون ، فى الأيام الأولى لتعمير أمريكا . وكانت تتدلى من الجدار باقة من الورد المصنوع من الورق الأحمر ، وحبال محملة بالفلفل الأحمر والثوم ، وقد تراكم عليها الغبار .. وثمة مدفأة بالنفس (كوابور الغاز) ومقعدان هزازان متداعيان !

واطل بيلون خلال الباب وقال وهو متهدج الأنفاس :

— ثلاث غرف .. وسرير ومدفأة .. لسوف نعيش سعيدين هنا يا دانى !

وكان دانى طيلة الوقت يقف غارقا فى ذكريات أليمة تدور حول جده . ولكنه لم يلبث أن شرع يجوس فى أرجاء البيت بحذر . ومرق بيلون من جانبه ليتقدمه ، ثم سار الاثنان إلى المطبخ .. وهتف بيلون : « وهذا حوض ذو صنبور ! » ، ثم ادار مقبض الصنبور ، وعاد يقول : « لا ماء هنا يا دانى .. يجب ان تطلب إلى الشركة ان توصل الماء ثانية ! » .

ووقفا وجها لوجه ، ثم ابتسم كل منهما للآخر . ولاحظ بيلون أن هموم الملكية والثروة قد بدأت تثقل أسارير دانى ، فخفق قلبه رثاء : لن يخلو هذا الوجه من الأكدار طيلة العمر !.. ولن يعود دانى إلى تحطيم نوافذ الناس ، بعد أن صارت له نوافذ يمتلكها !.. لقد صدق بيلون فى حدسه ، فقد ارتفع دانى فوق مستوى زملائه !

* * *

وشد دانى قامته ، وبسط كتفيه ، ليصمد لمتاعب الحياة . على أنه افلت صرخة متوجعة قبل أن يهجر حياته السابقة البسيطة ، ويتجرد منها ما بقى له من عمر .. وقال فى اكتئاب : « بيلون .. ليتك كنت انت صاحب الدار ، وكنت انا الصديق الذى قدم ليعيش معك ! » .

وبينما ذهب دانى إلى (مونتيرى) ليخطر شركة المياه كى تعود إلى إمداد البيت بالماء ، اخذ بيلون يجوس خلال الساحة الخلفية التى انبثت فيها الأعشاب الفطرية . وكانت ثمة اشجار فاكهة معروفة ، هزيلة سوداء ، لفرط قدمها ، وقد

ذوت اوراقها وتكسرت أفنانها لطـول ما أهملت !.. كذلك كانت ثمة عشش للدجاج ــ على شكل خيام ــ بين الأعشاب ، وكومة من اطواق البراميل التى تكاثف عليها الصدأ ، وكومة اخرى من الرماد وبقايا النار ، وحشية مهلهلة !

والقى بيلون نظرة عبر السياج إلى الساحة التى كانت مسز مورالس تربى فيها دجاجها ــ فى البيت المجاور ــ وبعد ان فكر لحظة ، نتح بضع ثغرات فى السياج ، ليستدرج خلالها الدجاج ، وهو يقول : « إن الدجاجات تحب أن تقيم أعشاشها بين الأعشاب العالية » .. وخفق قلبه عطفا عليها ، ثم تحول يفكر فى صنع فخ على شكل رقم (٤) بالإنجليزية ، ليضلل الديكة إذا ما جاءت وحاولت ازعاج الدجاجات وشغلها عن ان تظل راقدة على بيضها فى الأعشاش .. وعاد يقول لنفسه : « لسوف نسعد بالإقامة هنا ! » .

ورجع دانى من (مونتيرى) مستاء ، فقـال : « إن تلك الشركة تبغى ان نودع لديها تأمينا » .

ــ تأمين ؟!

ــ أجل .. انهم يريدون ثلاثة دولارات قبل أن يسمحوا للمياه بأن تجرى ثانية إلى البيت !

فقال بيلون فى تفكير جدى : « ثلاثة دولارات .. اى ثلاثة جالونات من النبيذ ! فخير لنا ان نشرب النبيذ ، ثم نقترض ملء دلو من المـاء من مسز مورالس ، صاحبة البيت المجاور » .

ــ ولكنا لا نمتلك الدولارات الثلاثـة التى نشترى بهـا النبيذ ؟!

فقال بيلون : « إننى أعرف هذا ، ولكن بوسعنا ان نستعير قليلا من النبيذ من مسز مورالس ! » .

* * *

وانصرم الوقت ــ بعد الظهيرة ــ سريعا . وما لبث دانى أن قال : « لسوف نستقر فى معيشتنا غدا » .. ثم عاد يقول : « غدا نقـوم بتنظيف البيت وإزالة الأوسـاخ . وعليك انت يا بيلون أن تجتث الأعشاب ، وان تلقى القاذورات فى مقلب الفضلات ! » .

فصاح بيلون فى جزع : « الأعشاب ؟.. ما أظنك تقصـد تلك الأعشـاب ؟! » .. ثم طفق يشرح لصـديقه نظريته فى استدراج دجاجات مسز مورالس ، فوافق دانى فى الحال ، وقال : « لشـد ما أنا مغتبط لأنك قدمت للإقـامة معى هنـا يا صديقى !.. والآن ، عليك أن تدبر لنا ما نتعشى به ، بينما أجمع أنا بعض الخشب لأشعل نارا ! » .

وتذكر بيلون البراندى الذى قدمه لدانى ، وقارن بينه وبين ما أتاحه له دانى من مشاطرته داره ، فخيل إليه ان الصفقة غير عادلة ، وقال لنفسـه فى مرارة : « إننى أوشك ان أغدو مدينا له ، ومن ثم فلن ألبث أن أفقـد حريتى .. وسرعـان ما أصبح عبدا بسبب بيت اليهودى هذا ! » .. ومع ذلك فقد خرج ليدبر أمر العشاء !

واجتاز صفين من البنايات ، حتى إذا صار عند حافة غابة الصنوبر ، صادف ديكا فى أواسـط العمر ، من سـلالة

« بلايموث روك » ، ينبش ارض الطريق .. وكان قد أشرف على سن المراهقة .. السن التى يخشوشن فيهـا صوته ، وتتعرى فيها ساقاه ورقبته وصـدره من الريش .. ولعـل العطف الذى سرى فى قلب بيلون نحو ذلك الديك ، كان راجعا إلى انه فكر طويلا فى دجاجات مسز مورالس ، وفى الطريقة التى يقصى بها الديوك عنها ، إشفاقا عليها من أن تنصرف عن احتضان بيضها .. ومن ثم سار فى تؤدة نحو أشجار الصنوبر المعتمة ، والديك يجرى امامه !

وفكر بيلون فى نفسه : « يا للفرخ العـارى المسكين !.. ما أقسى البرد عليك فى الصباح الباكر ، عندما يتساقط الطل ، وتشتد برودة الهواء مع مقدم الفجـر .. إن الإله الرحيم لا يستمر فى الاشفاق على الحيـوان فى كل الأوقات ! » .. ورمق بيلون الديك ، وعاد يقول له فى خاطره : « هاأنتذا تلعب فى الطريق أيها الفرخ .. من يدرى ؟ ربما دهمتك يوما سيارة فداستك وقتلتك .. بل إن القتل يكون خيرا لك ، ولكنها قد تكتفى بأن تكسر لك ساقا ، أو تقصـف لك جناحا ، فتعيش طيلة عمرك عاجزا تتخبط فى التعاسة .. ما أقسى الحياة عليك أيها الطائر الصغير ! » .

وتحرك فى بطء وحذر . وكان الديك يحاول — بين آن وآخر — ان يرتد عائدا من حيث أتى ، ولكنه كان فى كل مرة يجد بيلون فى المكان الذى اختار أن ينفذ منه .. وما لبث فى النهـاية ان غاص فى الغابة ، فسار بيلون فى اثره وئيدا وكأنه يتسكع على غير هدى !.. وقدر لهذا الديك الصغير ، الذى تنبأ له بيلون

بأنه قد يعيش فى ألم وعذاب ، أن يموت فى دعة وسلام .. أو فى هدوء ، على الأقل !.. وليست هذه بالشهادة البسيطة لأساليب بيلون الفنية !

وما هى إلا عشر دقائق ، حتى برز بيلون من الغابة ، واتجه عائدا إلى دار دانى . وكان الديك الصغير قد جرد من ريشه ، ومن أحشائه واطرافه ، ووزع على جيوب بيلون !.. ذلك لأنه إذا كان ثمة مبدأ من مبادىء السلوك مقدما على سواه لدى بيلون ، فهذا المبدأ هو : إياك أن تحمل إلى البيت — مهما تكن الظروف — ريشا ، أو رأسا ، أو اقداما ، إذ أن من المستحيل التعرف على أى ديك إذا جرد من هذه المعالم !!

* * *

وفى المساء ، اشعل الصديقان النار فى أقماع الصنوبر التى كدساها فى الموقد ، فأخذت ألسنة اللهب تزمجر فى المدخنة . وكان دانى وبيلون قد أكلا حتى شبعا ، وسرى إليهما الدفء ، فشعرا بالسعادة ، وجلسا فى المقعدين الهزازين يتارجحان فى رفق إلى الأمام وإلى الخلف !.. وكانا قد استخدما — خلال العشاء — قطعة من الشمع أمدتهما بشىء من الضوء ، ولكن ظلام الغرفة لم يتبدد إلا عندما انبعث وهج النار خلال شقوق الموقد .. ولكى يكمل هناؤهما ، أخذ المطر يتساقط فيطـرق السقف بقطراته .. ولم يتسرب خلال شقوق السقف سوى قدر ضئيل من المـاء .. وحتى هذا القدر — على ضآلته — لم يهبط إلا على أماكن لم تكن بالصديقين حاجة إلى الجلوس فيها ، ومن ثم ظلا بمأمن من البلل !

وقال بيلون : « نعم الحال هذه !.. تصور الليالى التى كنا نضطر فيها إلى النوم فى البرد !.. هذه هى الحياة حقا ! ».

فقال دانى : « حقا !.. وما اغرب الظروف !.. لقد ظللت اعواما بلا ماوى ، ماذا بى احظى فجأة بدارين .. وليس بوسعى أن أنام فى بيتين فى آن واحد ! » .. وكان بيلون يكره الإسراف ، وقد رأى فى عدم استغلال البيت الثانى تبديدا وإسرافا ، فقال : « لقد ظل هذا الموضوع بالذات يشغل بالى .. لماذا لا تؤجر البيت الآخر ؟ » .

وانزلقت قدما دانى عن قاعدة المقعد ، فاصطكتا بالارض .. وصاح : « عجبا يا بيلون !.. كيف لم تخطر لى هذه الفكرة من قبل ؟! » .. وإذ ازداد اقتناعا بالفكرة ، تساءل : « ولكن ، منذا الذى يستأجر البيت ؟ » .. فقال بيلون : « انا استأجره .. سأدفع عشرة دولارات فى الشهر ! » .. ولكن دانى قال فى إصرار : « بل خمسة عشر !.. إنه بيت جيد ، يستحق خمسة عشر دولارا » .

ووافق بيلون على مضض ، بل إنه كان مستعدا لان يوافق على ما يزيد على هذه الأجرة ، إذ بدا يشعر بما يصيب الإنسان من سمو إذا ما عاش فى بيت خاص به .. وكان جد تواق إلى هذا السمو !.. وما لبث دانى ان قال : « إذن فقد اتفقنا .. لسوف تستأجر دارى .. اوه ، لسوف تجدنى مالكا طيبا يا بيلون ، فلن أضايقك قط ! » .

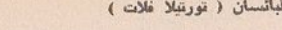
ولم يكن بيلون قد امتلك فى حياته كلها - فيما عدا العام الذى قضاه فى الجيش - خمسة عشر دولارا ، ولكن فكره

اوحى إليه بأن الأجرة لن تغدو مستحقة لدانى قبل انقضاء شهر .. فمن يدرى ما قد يجرى خلال الشهر ؟

وهكذا اخذ الاثنان يسمران فى هناء إلى جوار النار . وما لبث دانى أن غادر الغرفة بعد برهة ، فغاب بضع لحظات ، ثم عاد يحمل عددا من ثمار التفاح ، وقال يبرر عمله : « كان المطر خليقا بأن يفسدها .. على اية حال ! » .

ولم يشأ بيلون ان يكون اقل منه حيلة ، فما لبث أن نهض واشعل الشمعة ، ثم سار إلى غرفة النوم ، فغاب برهة ، وعاد يحمل وعاء للاغتسال (طستا) ، وآنيتين للزهور من الزجاج الأحمر ، ومروحة من ريش النعام .. وقال : « ليس من الخير أن نحتفظ بكثير من الأشياء القابلة للكسر او التلف .. فانها إذا كسرت أو تلفت ، أورثت المرء حزنا . بل إن الخير كل الخير فى الا نبقيها على الاطلاق ! » .. ثم انتزع باقة الورد الورقى الاحمر عن الجدار ، وقال مبررا عمله : « سأقدمها تحية للسنيورا توريللى » .. وانفلت مغادرا الدار .

وما لبث أن عاد بعد قليل ، وقد ابتل بالمطر ، ولكنه كان بادى النصر ، إذ كان يحمل فى يده ابريقا به جالون من النبيذ الاحمر .. واندمجا - فيما بعد - فى جدال حامى الوطيس ، ولكنهما لم يحفلا بتعرف من الذى انتصر منهما على صاحبه ، إذ كانا مكدودين ، بعد أن ارهقهما ما صادفهما اثناء النهار من



انفعالات . كما أن النبيذ أثقل رأسيهما وأجفانهما ، فلم يلبثا أن ان انطرحا على الأرض ، واستغرقا فى النوم !

وخبت النار ، فأخذت جوانب الموقد تطقطق وهى تزداد برودة .. وتضاءلت الشمعة ، ثم غاص الفتيل فى الشمع المذاب فانطفأ نوره ، وأرسل بضعة خيوط من دخان أزرق ..

وسيطر على البيت الظلام ، والهدوء والسكينة !



عبد زوجته

(أو سرج الحصان)

THE HARNESS



كان « بيتر راندال » من أكثر مزارعى مقاطعة (مونتيرى) حظوة باحترام القوم . وقد حدث عندما دعى يوما إلى إلقاء خطبة قصيرة فى مجمع ماسونى ، أن وصفه « الأخ » الذى قدمه بأنه مثال يجب أن يقتدى به شباب الماسونيين فى كاليفورنيا . وكان يقترب من الخمسين من عمره ، ذا طبع مهيب متزن ، كما كان ذا لحية أنيقة ، ومن ثم كان يحظى من كل مجتمع بما لذى اللحى من سلطان ! وكانت عيناه وقورتى النظرات كذلك .. كانتا زرقاوين ، وقورتين إلى الحد الذى يكاد الوقار ينقلب عنده إلى حزن !.. وكان الناس يدركون أن فى شخصيته قوة ، ولكنها قوة حبيسة !.. وفى بعض الأحيان، كانت عيناه تتخذان مظهرا عنيدا ومهينا ، كعينى الكلب الشرير .. ولكن هذه النظرة كانت سرعان ما تزول ، ليسترد وجهه رزانته واستقامته . وكان طويلا ، عريض الصدر ، مستقيم المنكبين ، ضامر البطن ، كأنه جندى !.. ولما كان المزارعون عادة مترهلين ، مكرشين ، فان بيتر اكتسب مزيدا من الاحترام بسبب قامته !

أما « ايما » ، زوجة بيتر ، فقد أجمع الناس على أنه كان من العسير أن يعرف المرء كيف تظل امرأة كهذه — جلدا على عظام ! — على قيد الحياة ، لا سيما وأنها كانت سقيمة معظم الوقت ، فقد كانت تزن سبعة وثمانين رطلا ، وكانت — وهى فى الخامسة والأربعين — ذات وجه مغضن ، أسمر ، كما لو كانت امرأة عجوزا .. بيد أن عينيها السوداوين كانتا تتقدان بالرغبة فى الحياة .. وكانت امرأة عزيزة النفس ، قل أن تشكو !

وكان بيتر يرحل مرة فى العام ، فيغيب اسبوعا ، تاركا زوجته وحيدة فى المزرعة . وكانت تقول للجارات اللاتى يزرنها ليؤنسنها : « لقد رحل لبعض الأعمال ! » .. وكانت ايما ، كلما عاد بيتر من رحلة الأعمال هذه ، تستسلم للمرض شهرا أو اثنين . وكان هذا المرض يشق على بيتر ، لأن ايما كانت تؤدى أعمال البيت بنفسها وتكره أن تستأجر فتاة لتؤديها عنها ، فاذا ما مرضت ، كان بيتر يضطر إلى القيام بأعمال البيت ..

***

وكانت مزرعة «راندال» تمتد على ضفة نهر (ساليناس) ، ملاصقة للتلال ، فكانت المزرعة خليطا مثاليا ، متوازنا ، من أرض منخفضة وأخرى عالية .. كانت تتألف من خمسة وأربعين فدانا مستوية على هضبة خصبة حمل إليها النهر الطمى من اخصب بقاع المقاطعة — فى العصور الغابرة — وثمانين فدانا من أرض بسيطة الارتفاع لزراعة البساتين . أما الدار ، فكانت بيضاء ، فى نظافة صاحبيها ووقارهما .. وكانت الساحة الملاصقة للبيت مباشرة ، محوطة بسياج . وقد زرع بيتر فى الحديقة بعض الزهور الجميلة بارشاد ايما !.. ومن الشرفة الأمامية للدار ، كان المرء يرى الهضبة ، والنهر من ورائها ، بما يحف به من مروج وأشجار القطن الكثيفة .. وعلى الضفة الأخرى للنهر كانت حقول البنجر تبدو من ورائها قبة محكمة (ساليناس) . وكثيرا ما كانت ايما تجلس فى مقعد هزاز فى الشرفة الأمامية ، حتى يضطرها النسيم إلى دخول

الدار . وكانت دائما تنهمك فى أشغال الابرة ، وهى ترفع بصرها بين آن وآخر ، لترقب بيتر وهو يعمل على الهضبة ، أو فى البستان ، أو على السفح !

ولم تكن مزرعة « راندال » مثقلة بالديون اكثر من سواها من مزارع الوادى . وكانت المحصولات تنتقى بحكمة ، وتتلقى عناية طيبة ، فتكفى لسداد فوائد القروض ، وتكفل مستوى معقولا للمعيشة ، ثم يتبقى منها بضع مئات من الدولارات فى كل عام تدفع للوفاء بجزء من الدين الرئيسى . لذلك لم يكن من العجيب ان يحظى بيتر راندال باحترام جيرانه ، وان تلقى الكلمات القلائل التى يقولها اهتماما منهم ، ولو كانت عن الجو او عن غيره من الأمور الجارية . فلو قال بيتر : « سأذبح خنزيرا فى يوم السبت » ، لذبح سامعوه جميعا — تقريبا — خنازير يوم السبت !.. وما كانوا يعلمون السبب ، بل كان يكفيهم أن يعرفوا أن بيتر راندال يعتزم ذبح خنزير .. فقد كان هذا يبدو لهم شيئا طيبا ، محمودا ، يتفق والأصول !

وكان بيتر وايما قد تزوجا منذ واحد وعشرين عاما ، جمعا خلالها ملء بيتهما من الأثاث الجيد ، وعددا من الصور ذات الاطارات ، وأوانى للزهور من كافة الأشكال ، والكتب الوقورة . ولما لم تكن ايما قد انجبت اطفالا ، فان البيت لم يصب بأى خدوش أو شقوق أو تشويهات . وكانت الحصائر المصنوعة من لحاء الكاكاو السميك مفروشة امام البابين الأمامى والخلفى ، لتمنع ما قد يكون عالقا بالأقدام عن التسرب إلى داخل البيت !.. وكانت ايما فى الفترات التى تتخلل مرات

سقامها ، تمنى بالبيت ، فكانت تحرص على تزييت مفصلات الأبواب والصواوين ، وتتفادى أن يفقد أى مقبض أحد مساميره . أما الأثاث والأشياء الخشبية فكانت تطلى وتصقل مرة كل عام . وكانت الاصلاحات تجرى عادة بعد عودة بيتر من رحلات اعماله السنوية .

وكان الجيران يعترضون طريق الطبيب وهو منطلق فى الطريق المحاذى للنهر ، كلما ذاع فى المزارع ان ايما مريضة ، فيسألونه عنها .. وكان يجيب : « أظن انها بخير ، وإن كان عليها ان تلزم الفراش اسبوعين ! » .. فكانت الجارات يحملن الفطائر إلى مزرعة راندال ، ويتسللن على اطراف اقدامهن إلى غرفة المريضة ، حيث كانت ترقد المرأة الشبيهة بالعصفور الهزيل ، فى سرير كبير من خشب الجوز . وكانت ترمقهن بعينيها السوداوين البراقتين ، فيسألنها : « الا تحبين أن نزيح الستائر عن النوافذ ؟ » .

— لا ، شكرا .. إن الضوء يزعج عينى !

— أما من شىء نستطيع ان نؤديه لك ؟

— لا ، شكرا .. إن بيتر يؤدى كل شىء على ما يرام !

وكانت ايما تصر على رفض كل خدمة ، فلم يكن امامهن ما يفعلنه من اجلها — وهى مريضة — سوى ان يحملن الفطائر والكعك إلى بيتر ، الذى كن يجدنه فى المطبخ ، وقد ارتدى مرولة انيقة نظيفة !

* * *

وفى خريف احد الأعوام ، سرى نبأ بأن ايما كانت مريضة ، فأعدت زوجات المزارعين الفطائر لبيتر ، وتأهبن للقيام بزياراتهن المألوفة . ووقفت مسز شابيل — ربة المزرعة المجاورة — فى طريق الدكتور وسألته : « كيف حال ايما راندال يا دكتور ؟ » .

— ما اظنها فى حال طيبة يا مسز شابيل .. ارى أنها مريضة جدا !

وانتشر فى المزارع المجاورة أن ايما راندال توشك ان تموت ، فان الدكتور « مارن » كان يرى ان المريض « فى حال طيبة » طالما انه لم يكن جثة هامدة !.. ولكن ايما راندال ظلت تغالب المرض زمنا طويلا . وكان بيتر يعنى بخدمتها بنفسه ، فلما اقترح الطبيب استخدام ممرضة ، قوبل اقتراحه بنظرات عنيدة ، مصرة على الرفض ، انبعثت من عينى المريضة . ومع ما كانت عليه من مرض ، فان مطالبها كانت تقابل باحترام .. ومن ثم ظل بيتر يغذيها ، وينظفها ، ويسوى فراشها بنفسه !.. وظلت الستائر مسدلة على نوافذ غرفة النوم . وانقضى شهران قبل أن ترين على العينين السوداوين الحادتين غشاوة ، ويستسلم العقل الحاد للغيبوبة . وإذ ذاك فقط ، وفدت على الدار ممرضة .. وكان بيتر قد أصبح هو الآخر نحيلا ، سقيما ، توشك قواه أن تتداعى !.. وكانت الجارات يحملن إليه الفطائر والكعك ، فيجدن ما احضرته من قبل ما يزال فى المطبخ لم يمس !

وكانت مسز شابيل فى البيت مع بيتر ، فى ذاك الأصيل الذى ماتت فيه ايما ، وجرفت بيتر نوبة هيستيرية فى الحال ، فأسرعت مسز شابيل إلى الاتصال تليفونيا بالطبيب ، ثم بزوجها الذى سألته أن يخف لمعونتها ، إذ راح بيتر يعول كرجل مخبول ، ويضرب خديه الملتحيين بقبضتيه .. وأحس « أيد شابيل » باستنكار عندما رآه ، إذ كانت لحية بيتر مخضلة بالدموع ، وشهقاته العالية تسمع فى البيت كله . وحين وضع « أيد شابيل » يده على كتف بيتر وقال له : « كفى يا بيتر ، كفى ! » ، ازاح بيتر يد « شابيل » .

ووقع الطبيب شهادة الوفاة .. وعندما اقبل اللحاد ، لقى الجميع عناء فى السيطرة على بيتر ، إذ غدا كالمجنون . واخذ يصارعهم عندما هموا بحمل الجثة إلى الخارج ، فلم يستطيعوا نقل جثة ايما إلا بعد أن أمسك « أيد شابيل » واللحاد ببيتر ، بينما حقنه الطبيب بمادة مخدرة .. ولكن المخدر لم يسلم بيتر إلى النوم ، بل جلس منطويا على نفسه فى احد الأركان ، وأخذ يحملق فى الأرض ، وانفاسه تتابع متهدجة . وسأل الطبيب المرضة : « من الذى سيمكث معه ؟ » ، فأجابت : « إننى لا اقوى على السيطرة عليه وحدى » .. فدعا الطبيب شابيل إلى البقاء معه ، وقال له : « هاك بعض اقراص البرومايد ، فاذا عاد إلى هياجه ، اعطه قرصا منها .. وإذا لم تفلح الأقراص ، فأعطه بعض « اميتال الصوديوم » .. إن قرصا من هذه كفيل بتهدئته ! » .

وقبل أن ينصرف القوم ، تعاونوا على نقل بيتر إلى غرفة

الجلوس ، فأرقدوه فى رفق على أريكة ، بينما جلس « ايد شابيل » فى مقعد مريح ، واخذ يراقبه ، وقد وضع اقراص « البرومايد » وكوب ماء على منضدة بجواره .. وكانت الغرفة نظيفة .. فقد عنى بيتر فى صباح ذلك اليوم بالذات بمسح أرضها بورق مبتل . وأوقد « ايد » نارا فى المدفأة ، وغذاها بكتلتين من الخشب .. وما لبث الليل أن هبط ، وهطل مطر خفيف كان يطرق النوافذ كلما دفعته الريح . وسوى « ايد » فتيل المصباح ، ثم خفف الضوء .. وظل فترة طويلة يرقب بيتر وهو مخدر على الأريكة ، ثم ما لبث النعاس أن غزا جفنى « ايد » .

* * *

وكانت الساعة قد قاربت العاشرة مساء ، عندما استيقظ « ايد » محملق فى الأريكة ، وإذا ببيتر جالس يتأمله .. وامتدت يد « ايد » إلى أقراص البروما يد ، ولكن بيتر هز رأسه قائلا : « لا داعى لأى شىء ، إذ اعتقد ان الطبيب قد خدرنى بمخدر قوى .. على اننى اشعر بارتياح ، وإن كنت ما ازال تحت تأثير المخدر قليلا ! » .

— لو انك اخذت واحدا من هذه الأقراص لنعمت بالنوم !

— ولكننى لا أريد أن انام .. لسوف أغسل وجهى فأنتعش!

وإن هى إلا لحظة ، حتى عاد إلى غرفة الجلوس ، وهو ما يزال يجفف وجهه بمنشفة .. وكانت على شفتيه ابتسامة غريبة ، توحى بتعبير لم يشهد « ايد » مثله من قبل ..

ابتسامة غامضة ، تثير العجب ! وقــال بيتر : « أعتقــد أن أعصابى افلتت منى عندما ماتت ايما » .

ــ آه .. اجل .. إلى حد ما !

ــ لقد لاح لى كأنما انقطع شيء فى جوفى .. شيء كان يشد أطراف كيانى .. فكأننى تفككت !.. على أننى الآن بخير !

وحملق « ايد » فى الأرض ، فرأى عنكبوتا صغيرا ، أسمر ، يزحف ، وإذ ذاك مد قدمه وسحقه . وسأله بيتر فجــاة : « هل تؤمن بأن ثمة حياة بعد الموت ؟ » .. فتردد «ايد شابيل» حائرا ، إذ انه لم يكن يحب الحديث عن مثل هذه الأمور ، لأن الحديث عنها يقحمها على ذهنه ، فيظل يفكر فيها !. وما لبث ان قال : « إذا شئت رأيى ، فانا أعتقد بوجود حيــاة بعــد الموت » .

ــ هل تؤمن بأن اى امرىء يرحل عن الدنيا يستطيع أن يطل عليها فيشهد ما نفعل ؟!

ــ لست ادرى ، فانا لم اتعمق إلى هذا الحد .. لست ادرى !

فاستطرد بيتر وكأنه يكلم نفسه : « حتى إذا كانت ترانى ، وإذا انا لم افعل ما كانت تحب ، فخليق بها أن تشعر بارتياح ، لأننى لم اقدم على هذا الذى لا تحبه إلا بعد أن غابت عن هنا .. وخليق بها ان تسر لأنها جعلت منى رجلا صالحا !.. إننى إذ اغدو غير صالح فى غيابها ، فسيقوم هذا دليلا على أنهــا هى التى كانت تصلحنى .. اليس كذلك ؟.. إننى كنت رجلا صالحا ! الا ترى ذلك يا ايد ؟ » .

ــ ماذا تعنى بقولك « كنت » ؟

ــ أجل ، لقد كنت صالحا ، فيمـا عدا أسبوع واحـد فى السنة ، ولست أدرى ما سوف أفعله الآن ..

واشتدت أمارات الحنق على وجهه ، وقال : « لست أدرى سوى شيء واحد ! » .. ونهض فخلع سترته وقميصه ، فبدا فوق ثيابه الداخلية حزام من القماش يشد كتفيه إلى الوراء ــ كسرج الجواد ــ ففكه والقاه بعيدا ، ثم خلع « بنطلونه » فكشف عن حزام عريض من المطاط حول بطنه . وخلع بيتر هذا الحزام ، وراح يحك بطنه فى استمتاع ، ثم ارتدى ثيابه من جديد ، وابتسم عين الابتسامة الغريبــة ، الغامضــة ، وقال : « لست أدرى كيف كانت تحملنى على تنفيذ رغباتها ؟.. لم يكن يبدو انها تفرض سلطانهــا على ، ومــع ذلك كانت تحملنى دائما على ان افعل ما تبغى . اتصدق ؟.. إننى لا اكاد أومن بوجود حياة أخرى !.. لقد كنت مضطرا ــ عندما كانت على قيد الحيــاة ، بل وحتى فى أوقات مرضها ! ــ إلى عمل ما كانت تبغى من امور ، ولكن .. فى نفس الدقيقة التى ماتت فيها .. شعرت .. كأن سرجا قد انزاح عنى ، وكان العنان اطلق لى !.. ولم استطع ان اصدق أن كل شيء قد انتهى ، واننى مسوق إلى ان اعتاد المضى بغير عنان !.. لسوف يبرز بطنى ويتكرش ، وسـاعده يبرز .. إننى الآن فى الخمسين من عمرى ! » .

ولم يرتح « ايد » إلى هذا الحديث .. فقد بدا له غير لائق فى تلك الظروف ، ومن ثم قال فى استخذاء : « لو انك تناولت

واحدا من هذه الأقراص لتمت بقسط من النوم ! » .. ولم يكن بيتر قد ارتدى سترته ، بل جلس على الأريكة وصـدر قميصه مفتوح .. فقال : « لست أريد أن أنام ، إنما أنا أهفو إلى الكلام .. أحسبنى سأضع ذلك الحزام والعنان (اللجام) ليشدا كتفى وبطنى أثناء الجنازة ، ولكننى سأحرقهما بعـد ذلك !.. اسمع .. إن لدى زجاجة مليئة بالويسكى فى مخزن الغلال ، وسأذهب لاحضارها » .. فبادر « ايد » إلى الاعتذار قائلا : « آه ، لا .. لست مستطيعا ان أشرب الآن .. فى وقت كهذا ! » .. ولكن بيتر انتصب واقفا وقال : « لا بأس .. إننى أستطيع الشرب ، وفى وسعك أن تجلس وتشاهدنى إن شئت .. لقد انتهى كل شىء كما أكدت لك ! » .

* * *

وغادر بيتر الغرفة ، تاركا « ايد شابيل » فريسة للشقاء والشعور بالاستنكار . ولم تنقض لحظة حتى عاد ، وشرع يتكلم وهو ينفذ خـلال الباب حاملا الويسكى : « لم يكن لى من فرص فى حياتى سوى تلك الرحلات .. لقد كانت ايما امرأة لامعة الذكاء ، وقد أدركت أننى مسوق إلى الجنون إذا لم ابتعد عنها مرة فى العام .. يا إلهى ! لشد ما كانت تثير ضميرى إذا ما عدت! » .. وخفض من صوته كمن يوشك أن يدلى بسر ما ، ثم قال : « أو تدرى ماذا كنت أفعل فى تلك الرحـلات ؟ » .. واتسعت عينا « ايد » هولا ، إذ تبين ان الذى أمامه لم يكن بيتر المعهود ، وإنمـا كان شخصا جـديدا !.. وتناول قدح الويسكى من بيتر وهو يجيب عن سؤاله : « لا .. ماذا كنت

تفعل ؟ » .. فعب بيتر من الشراب ، وسعل ، ثم مسح فمه بيده وقال : كنت أسكر ، وأذهب إلى بيوت الهوى فى سان فرانسيسكو !.. كنت أثمل طيلة اسبوع فى العام ، وأذهب إلى بيوت الهوى كل ليلة ! » . واترع قدحـه الشراب وهو يمضى قائلا : « واحسب ان ايما كانت تعرف ، ولكنها لم تقل شيئا على الاطلاق .. كنت خليقـا بان انفجر إذا لم تتح لى الفرصة للرحيل ! » .

وقال « ايد شابيل » وهو يرشف شرابه فى تردد : « لقد كانت تقول دائما إنك تسافر لبعض الأعمال » . فنظر بيتر إلى قدحه ، ثم أفرغه فى جوفه ، وملأه من جديد .. وبدأت عيناه تلمعان ، ثم قال : « اشرب قدحك يا ايد .. إننى أعرف انك لا ترى فى تعاطى الشراب فى مثل هذه الظروف عملا لائقا .. ولكن أحدا سوانا لن يعرف بما يجرى الآن بيننا . حرك النار فى المدفأة ، فلست حزينا ! » .. ونهض شابيل فحرك النار ، حتى تطاير الشرر فى المدخنة كطيور لامعة براقة ، بينما ملأ بيتر القدحين ، واضطجع فى الأريكة . وعنـدما عاد « ايد » إلى مقعده ، رشف من قدحه وهو يتظـاهر بأنه لم يفطن إلى أنه ملىء من جديد !.. وبدا خداه يتوردان ، وخيل إليه أن تعاطى الشراب فى مثل تلك الظروف ليس بالأمر المنكر .. بل إن فترة الأصيل ، وحادث الوفاة ، غابا عن ذهنه فى جوف الماضى !

وقال بيتر : « تصـور .. أعتقـد أننى لن أقرب الفطير والكعك مرة أخرى .. لقد ظل الناس عشر سنوات يواتوننى بالكعك كلما مرضت ايما .. ولقد كان هذا كرما منهم ، ولكن

الكمك أصبح يقترن فى نظرى بالمرض .. اشرب ! » .. وطرا إذ ذاك تغير على الغرفة ، فتطلع كل من الرجلين إلى الآخر محاولا ان يعرف ما جرى .. كان ثمة تغير جعل الغرفة تختلف عما كانت عليه قبل لحظة .. وما لبث بيتر ان ابتسم فى استخذاء وقال : « لقد وقفت الساعة التى على رف المدفأة . ما اظننى سأملؤها من جديد .. سأحضر ساعة صغيرة ذات جرس ، وذات بندول سريع ، فان حركة بندول الساعة الكبيرة بطيئة ، توحى بالحزن ! » .. وتجرع الويسكى الذى كان فى القدح ، ثم قال : « احسبك ستقول للملأ إننى مجنون ! » .. فرفع « ايد » رأسه عن قدحه ، وأومأ مبتسما ، ثم قال : « لا .. إننى اقدر مدى شعورك إزاء الأمور .. ما كنت أعلم أنك ترتدى عنانا وحزاما ! » .

فقال بيتر : « لقد كانت ترى ان الرجل يجب ان يكون مستوى القامة . ولكننى اميل إلى الاحديداب بطبيعتى ! » .. ثم انفجر فى حنق : « بل إننى أحمق بالسليقة ! لقد ظللت عشرين عاما اتظاهر باننى حكيم ، طيب .. اللهم إلا اسبوعا من كل عام !.. كان كل شىء يملى على املاء ، بل كانت حياتى ترسم لى .. الا دعنى املأ قدحك !.. إن لدى زجاجة اخرى فى مخزن الغلال ، مخبأة تحت الاكياس ! » .. تقدم « ايد » قدحه ليملأ ، بينما استطرد بيتر قائلا : « لقد خطر لى أن من البديع ان ازرع كل ارضى المستوية ، الممتدة على ضفة النهر ، بالبازلاء .. تصور منظرها إذا جلس المرء فى الشرفة الأمامية ، وشاهد كل هذه المساحة وقد اكتست بزهور زرقاء ووردية .. فاذا هبت عليها الريح ، فاح منها عبير يسكرك ! » .

— كثيرون من الناس أغرتهم البازلاء فأفلسوا !.. صحيح انك تحصل على ثمن عال للمحصول ، ولكن هناك اخطارا كثيرة تهدد هذا المحصول !

فصاح بيتر : « لست أحفل البتة .. إننى اتوق إلى اشياء كثيرة .. إلى أربعين فدانا من الألوان الجميلة والعبير الشذى !.. وإلى امرأة سمينة ، ذات ثديين كأنهما وسادتان .. إننى جائع !.. أوكد لك اننى جائع إلى كل شىء !! » .. وتجهم وجه « ايد » إزاء الصياح ، وقال : « لو أنك أخذت واحدا من الاقراص ، لنعمت بالنوم ! » .. وتبدى الخجل على بيتر ، وقال : « إننى بخير ، وما قصدت ان اصرخ هكذا .. إننى لا افكر فى هذه الأشياء للمرة الأولى ، بل لقد ظللت افكر فيها عشرين عاما ، كما يفكر الأطفال فى العطلة المدرسية !.. لقد كنت دائما فى خوف من ان اكتهل ، او ان اموت قبل زوجتى ، فتفوتنى كل المتع !.. على اننى لم اتجاوز الخمسين ، ما يزال لدى كثير من القوة .. لقد حدثت ايما عن زراعة البازلاء ، ولكنها لم تدعنى احقق رغبتى .. لست ادرى كيف كانت تحملنى على أن أرضخ لها !.. لست أتذكر ، فقد كان لها اسلوب عجيب .. ولكنها رحلت ، وإنى لأشعر بأن عهدها انقضى كما انقضى عهد ذلك العنان !.. لسوف أنزهل يا ايد ، حتى املأ البيت بجسمى .. وسأحمل الأوساخ فى نعلى إلى داخل البيت .. وسآتى بمدبرة ضخمة سمينة للبيت .. ضخمة سمينة .. من سان فرانسيسكو !.. وسأحرص على أن تكون على الرف زجاجة براندى دائما ! » .

ونهض « ايد شابيل » فتمطى قائلا : «أرى أن أعــود إلى دارى الآن إذا كنت تشعر بأنك بخير ، وسأنام قليلا .. يحدس بك أن تملأ الساعة يا بيتر ، فليس من الخير للساعة أن تقف معطلة ! » .

* * *

وشرع بيتر يعمل فى مزرعته منذ اليوم التالى للجنازة ، فلمح آل شابيل — الذين يقيمون فى المزرعة المجاورة — نور المصباح فى مطبخه قبل طلوع النهار بوقت طويل ، ولمحوا مصباح اليد (الفانوس) يتحرك فى ساحته إلى مخــزن الغــلال قبل أن يغادروا مضاجعهم بأكثر من نصف ساعة !.. وقضى بيتر ثلاثة أيام فى تشذيب أشجار بستانه وتقليمها ، فكان يعمل منذ انبثاق ضوء النهــار ، حتى تدلهم الظلمــة . ثم شرح بفلح الأرض الواسعة الممتدة إلى جوار النهر ، فحرث وعزق . وما لبث أن أقبل غريبان على المزرعة ، وهما فى ملابس ركوب الخيل ، فتفقدا الأرض ، وتحسسا التربــة بين أصابعهما ، ودقا « خابورا » فى جوفها ، حتى إذا رحلا ، حملا معهما أكياسا بها عينات من التربة .

وكان من عادة المزارعين أن يكثروا من التزاور قبل موسم الزراعة ، فيجلسون القرفصاء ، ويفترفون تراب الأرض ، ويفركون القطع المتماسكة منه بين أصابعهم ، وهم يتحدثون عن الأسواق ، ويتذاكرون السنوات التى ارتفعت فيها أسعار « الفاصوليا » ، والسنوات التى لم يكد محصول البازلاء يدر فيها ثمن التقاوى . وكان من المعتاد بعد مداولات عديدة من

هذا النوع ، أن يزرع الفلاحون جميعا صنفا واحدا .. وكان لبعض الرجال آراء راجحة بينهم .. فلو أن « بيتر راندال » — أو « كلارك دى ويت » — رأى أن يزرع « لوبياء » حمراء وشوفانا ، لانقلبت معظم الزراعات إلى « لوبياء » وشوفان فى ذلك العام ، إذ كان من المسلم به انه ما دام مثل هذين الرجلين محترمين وموفقين ، فلابد أن خططهما تبنى على شيء أكثر من مجرد المصادفة والحظ !.. وكان مما يؤمن به القوم — وإن لم يجهروا به — أن بيتر راندال وكلارك دى ويت قد أوتيا مقدرة عقلية أكثر مما أوتى غيرهما من الناس ، وموهبة خاصة تمكنهما من معرفة الغيب !

وعندما بدأ التزاور المعهود فى ذلك العام ، لوحظ أن هناك تغيرا طرأ على بيتر راندال .. إذ كان يعتلى محراثه ، ويتحدث فى مرح . ولقد قال إنه لم يستقر بعد على ما يزرعه ، ولكنه قالها فى شيء من الارتبــاك ، أوحى بأنه لم يكن راغبــا فى أن يصرح بالمحصول الذى اختاره ! حتى إذا صد بعض المتسائلين فى جفاء ، انقطعت الزيارات لمزرعتــه ، واتجه المزارعــون بجمعهم إلى كلارك دى ويت ، وكان كلارك قــد قرر أن يزرع أرضه شوفانا ، فأملى قراره الرأى على أغلبية المزارعين فى المنطقة !

ولكن الاهتمام بما قرره بيتر لم يقف بتوقف الناس عن سؤاله . بل كان المارون بجوار أرضــه يتأملون الحقــل ، محاولين أن يتبينوا من طريقة حرثه نوع المحصول المقبل . وعندما شرع بيتر يسوق آلة البذر فى أرضه ، لم يعد أحد ينفذ إليها ، إذ

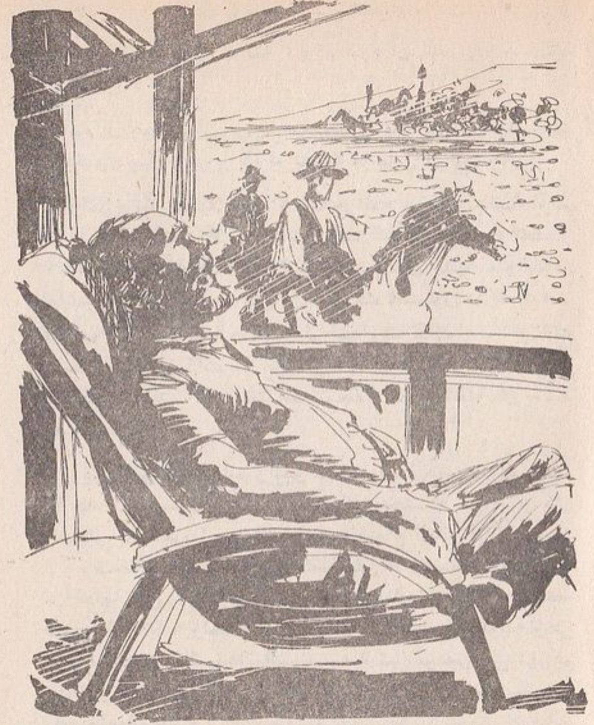
جهر بيتر بأن نوع محصوله سر يجب أن يتكتمه !.. ولم يفش « ايد شابيل » ما كان يعرفه .. فقد كان يشعر باستحياء كلما تذكر تلك الليلة .. كان يستنكر انهيار بيتر ، ثم تحرره ؛ كما كان يستنكر من نفسه أن استمع له ! وكان يرقب بيتر خلسة ، ليرى ما إذا كان قد نفذ نواياه المرذولة ، او ان كل ما سمعه كان نتيجة اختبال وانهيار عصبى أصاباه عندما ماتت زوجته ! .. ولاحظ ان كتفى بيتر لم تعودا مستقيمتين ، وان بطنه قد برز قليلا . وذهب إلى دار بيتر ، فارتاحت نفسه حين لم ير اثرا للأوساخ على الأرض ، وحين سمع الساعة التى تعلو المدفأة تدق !.. وكثيرا ما كانت مسز شابيل تتحدث عن ذلك الأصيل الذى ماتت فيه ايما ، فتقول : « كنت خليقا بأن تظنه قد فقد عقله .. إذ راح يعول .. ومكث « ايد » معه شطرا من الليل ، حتى سكنت نفسه . وقد اضطر « ايد » إلى أن يسقيه بعض الويسكى ليحمله على النوم .. ولكن العمل الدائب هو خير ما يقتل الحزن .. إن بيتر راندال يستيقظ فى الساعة الثالثة من كل صباح ، فأنا ألمح من مخدعى النور فى نافذة مطبخه ! » .

وأصبحت مياه نهر (ساليناس) قاتمة ، وظل الفيضان شهرا ، ثم هبط مستوى المياه ، فخلف بحيرات خضراء صغيرة .

وكان بيتر قد احسن تخطيط ارضه وحرثها ، فلم تعد بها كتل من التراب المتماسك تزيد فى الحجم على البندقة .. وكانت — عندما تهبط الأمطار — تبدو قرمزية غنية بالخصب . ثم نبتت السيقان الخضراء الواهنة ، فى صفوف عبر أرض الحقل

السمراء . وتسلل احد الجيران فى جنح الظلام ، ومد يده خلال السياج ، فقطع ساقا صغيرة ، ثم قال لأصدقائه : « أحسبها بازلاء .. وفيم تكتمه أمرها ؟ » .. وسرى النبأ خلال المزارع : « أنها بازلاء .. لقد زرع الأفدنة الخمسة والأربعين كلها بازلاء ! » .. وسعى الرجال إلى كلارك دى ويت يسألونه رأيه ، فكان هذا الرأى : « إن الناس يخالون أن بوسعهم أن يثروا من وراء زراعة البازلاء ، لانك تستطيع أن تبيع الرطل بثمن يتراوح بين عشرين وستين سنتا . ولكنها أكثر المحصولات فى العالم تعرضا للأخطار .. إن البازلاء قد تكون مربحة إذا لم تصبها الحشرات .. ولكن قد يشتد الحر يوما ، فيتلف المحصول كله !.. او قد يهبط بعض المطر بعد الأوان ، فيفسد المحصول كله ! .. إن من الصواب أن تزرع بضعة أفدنة ، ولو ان فى هذا مجازفة ، ولكن من غير الحكمة أن تزرع ارضك كلها .. لقد أصيب بيتر بمس من الخبل منذ موت ايما ! » .

وانتشر هذا الرأى ، وأصبح كل رجل يفضى به وكأنه رأيه الخاص !.. وكثيرا ما كان اى جارين يقولانه ، فيفضى كل منهما بنصفه !.. وعندما ردده الكثيرون لبيتر راندال ، استشاط غاضبا فى احد الأيام وصاح : « الا تنبئونى .. ارض من هذه ؟.. إذا كنت أريد الإفلاس فهذا من حقى .. أليس كذلك ؟ » .. وبدل قوله هذا من الشعور العام ! فلقد تذكر الناس أن بيتر كان دائما مزارعا موفقا ، فلعله أوتى دراية خاصة .. ولابد أن الغريبين اللذين زاراه قبل الموسم كانا من



وأخذ (بيتر راندال) يجلس فى مقعد هزاز فى الشرفة الأمامية لداره بعد ظهر كل يوم ..

الخبراء بالتربة !.. وتمنى كثيرون من المزارعين لو أنهم زرعوا بضعة افدنة بازلاء ! .. واشتد هذا الشعور لديهم عندما امتدت فروع البازلاء ، وتشابكت ، وغطت الأرض السمراء .. وعندما بدأت البراعم تتكون وتوحى بأن المحصول وفير . ثم تفتحت الزهور ، فاذا الألوان تنتشر فى الأفدنة الخمسة والأربعين ، وإذا الشذى يفوح من الأفدنة الخمسة والأربعين ، حتى لقد قيل إنك كنت تستطيع ان تشم العبير فى (ساليناس) التى تبعد عن المزرعة بأربعة أميال !

وأخذ بيتر راندال يجلس فى مقعد هزاز فى الشرفة الأمامية لداره بعد ظهر كل يوم ، فيسرح البصر فى الأحواض الواسعة التى انتشر فيها اللونان الوردى والأزرق ، وفى الأرض كلها التى اختلط فيها اللونان .. وعندما كان نسيم الأصيل يهب، كان بيتر يستنشقه فى نهم ، وقد فتح صدر قميصه ، وكأنه كان يتوق إلى ان ينفذ العبير خلال جلده !

وسعى الرجال إلى كلارك دى ويت يسألونه رأيه ، فقال : « هناك عشرة افتراضات بشأن ما قد يحدث فيفسد المحصول . ولكن ، هنيئا له ببازلائه ! » .. وادرك القوم من انفعال كلارك أن الحسد دب إلى نفسه . وأصبحوا كلما تأملوا الحقول الملونة ، ومدوا ابصارهم إلى بيتر وهو يجلس فى شرفة داره .. اصبحوا يشعرون بإعجاب جديد ضاعف من احترامهم إياه !.. وزاره « ايد شابيل » ذات اصيل ، وقال له : « لقد أوتيت محصولا طيبا يا سيد ! » . فأجابه بيتر : « الظاهر أنه كذلك ! » .. ثم تنهد قائلا : « ولكن موسم

الأزهار أوشك على نهايته ، وكم أكره أن أشهد تساقط الزهور ! » .

ـ بل يسرنى أن أراها تسقط ، فلسوف يعود عليك المحصول بمال وفير ، إذا لم يحدث ما ليس فى الحسبان .

واخرج بيتر منديلا كبيرا ، فمسح انفه ، وحك جانبيه ، ثم قال : « سأشعر بالأسف حين يغيب الشذى » .. واشار « ايد » إلى ليلة وفاة ايما ، ثم غض إحدى عينيه ، وتساءل هامسا : « هل عثرت على من تدبر لك شئون دارك ؟ » . فأجاب بيتر : « لم أبحث .. لم أجد وقتا لذلك » .. وكانت تحيط بعينيه تجعدات تنم عن قلق ، فقال « ايد » لنفسه : من ذا الذى لا يقلق ، إذا كانت أتفه سحابة ممطرة كفيلة بأن تفسد عليه محصول عام باسره ؟

ولكن ، لو أن الموسم والجو كانا قد أعدا خصيصا للبازلاء ، لما جاء المحصول خيرا من ذاك الذى جناه بيتر !.. كان الضباب يهبط قريبا من الأرض فى الصباح الباكر أيام الحصاد .. وعندما استلقت الفروع المثقلة على « المشمع » الذى نشر من أجلها على الأرض ، أخذت الشمس تشرق حامية ، فتجفف قرون البازلاء .. وأخذ الجيران يرقبون الأكياس الطويلة وهى تمتلىء بالحبات السوداء السمينة ، ثم يعودون إلى دورهم ويحاولون أن يحسبوا مقدار المال الذى سيجنبه بيتر من محصوله الهائل !

* * *

عندما يسافر أحد من أبناء وادى (ساليناس) الأعلى إلى (سان فرانسيسكو) لعمل أو لنزهة ، فانه ينزل فى فندق « رامونا » ، لأن بوسعه دائما أن يجد فى بهو الفندق فردا من موطنه ، فيجلس معه فى مقاعد البهو الوثيرة ، ويروح الاثنان يتكلمان عن وادى ساليناس .. ولقد قدر لايد شابيل أن يذهب إلى سان فرانسيسكو ليقابل ابن عم زوجته ، الذى كان مقبلا من (أوهايو) فى رحلة للنزهة . ولما لم يكن القطار مرتقبا قبل صباح اليوم التالى ، فقد أخذ « ايد » يبحث فى بهو فندق « رامونا » عن أحد من وادى ساليناس ، ولكنه لم ير فى المقاعد الوثيرة سوى أغراب !.. ومن ثم ذهب إلى إحدى دور السينما ، حتى إذا عاد ، أخذ يبحث من جديد عن شخص من موطنه ، ولكنه لم ير فى هذه المرة أيضا سوى أغراب !.. وفكر فى أن يلقى نظرة على سجل نزلاء الفندق ، ولكن الوقت كان متأخرا ، فجلس فى البهو ريثما يفرغ من تدخين سيجارة قبل أن يأوى إلى مخدعه !

وفجأة ، سمع جلبة ، ثم رأى كاتب الفندق يشير بيده ، فيهرع أحد الخدم إلى الخارج .. واستدار « ايد » فى مقعده ليرى ما هناك ، فاذا سائق إحدى سيارات الأجرة يساعد رجلا على مغادرة السيارة . ثم تقدم خادم الفندق فأخذ الرجل من السائق ، وراح يقوده إلى الباب .. وكان ذلك الرجل بيتر راندال ، وقد زاغت عيناه ، وفغر فاه ، وسال لعابه . ولم تكن تعلو شعره المشوش قبعة !.. وقفز « ايد » من مقعده ، وسار إليه ، وهتف : « بيتر ! » .. وكان بيتر يناضل الخادم

فى ضعف ، وهو يقول : « دعنى .. اننى بخير .. دعنى وسأمنحك دولارين ! » .. وعاد « ايد » يهتف : « بيتر ! » .

وتحولت العينان الزائغتان إلى « ايد » فى تؤدة ، ثم ألقى بيتر بنفسه بين ذراعيه وهو يصيح : « يا صديقى الحميم !.. أيد شابيل ، يا صديقى الحميم الطيب !.. ماذا تفعل هنا ؟.. اصعد معى إلى غرفتى ، وتناول كأسا ! » . وساعده أيد على أن يستوى على قدميه ، وهو يقول : «سأصعد بالتأكيد، فانى أميل إلى تناول كأس قبل النوم ! » .

ـ كأس !.. لسوف نخرج فنذهب إلىإحدى دور السينما ، أو إلى شىء من هذا القبيل !

وأعانه ايد على الوصول إلى المصعد ، وعلى بلوغ غرفته . وهناك ، ارتمى بيتر على السرير . ثم جاهد حتى استطاع أن يجلس ، وقال : « هناك زجاجة ويسكى فى الحمام ، فأحضر لى معك كأسا ! » .. وأحضر « أيد » الزجاجة وكأسين ، وهو يقول : « ما الذى تفعله يا بيتر .. أتحتفل بمحصولك ؟.. لابد أنك كسبت مالا وفيرا » . فبسط بيتر راحته ، وأخذ يطرقها بسبابة اليد الأخرى ، وقال : « بالتأكيد .. ولكن الأمر لم يكن أكثر من مقامرة . أجل ، كان أشبه بمقامرة صريحة ! » .

ـ ولكنك كسبت ثروة .

فزمجر بيتر مفكرا ، وقال : « كان من المحتمل أن أخسر ثيابى نفسها .. لقد ظللت فى قلق طيلة الوقت .. العام بأسره !.. كانت مقامرة ! » .

ـ ولكنك كسبت ثروة ، على أية حال !

وحول بيتر مجرى الحديث قائلا فى اعتذار : « لقد أصبت بقيىء ودوار .. لقد تقايأت فى « التاكسى » .. إننى عائد لتوى من بيت للهوى فى طريق فان نيس ! لقد وصلت الليلة إلى المدينة .. كنت أوشك أن أنفجر لو أننى لم آت وأنعم بشىء من التحول عن نظام حياتى ! » .

وتطلع إليه ايد فى عجب ، فإذا رأسه يتأرجح بين كتفيه ، وإذا لحيته مشعثة ، مهوشة .. وشرع ايد يقول : « بيتر .. ليلة وفاة ايما .. لقد قلت إذ ذاك إنك تعتزم .. أن تغير مجرى حياتك ! » .

فارتفع رأس بيتر المتأرجح فى بطء ، وتطلع إلى ايد شابيل وجفناه يكادان ينطبقان على عينيه ، ثم قال فى تثاقل : « ولكن ايما لم تمت .. إنها تأبى أن تدعنى أتصرف وفق هواى .. لقد أقضت راحتى طوال العام بشأن تلك البازلاء ! » .. وبدت الحيرة فى عينيه وهو يمضى قائلا : « لست أدرى كيف تتسلط على ! » .. ثم عبس ، وعاد يطرق إحدى راحتيه بأصبع اليد الأخرى ، وهو يقول : « ولكن ، ثق يا ايد شابيل أننى أبيت أن ألبس ذلك العنان (اللجام) ثانية .. بل إننى لن أرتديه ما حييت .. فاذكر هذا العهد ! » .

وعاد رأسه يميل إلى الأمام ، ولكنه ما لبث ان عاد يتطلع إلى « ايد » بعد لحظة ، وقال : « لقد سكرت ، ولقد ارتدت بيوت الهوى » .. ثم مال على « ايد » وقال هامسا وكأنه يفضى إليه بسر : « ولكن ، لا بأس .. سأكفر عن ذلك ، عندما أعود إلى المزرعة .. أتدرى ما الذى سأفعله ؟.. سأدخل الضوء الكهربائى فى البيت .. لقد كانت ايما ترغب دائما فى المصابيح الكهربائية ! » .

واستلقى على السرير ، فسوى ايد شابيل من اضطجاعه ، وخلع عنه ثيابه ، قبل ان يغادر الغرفة ، وهو يعجب فى نفسه : لقد ماتت ايما ، ولكن الفنان ما زال يشد بيتر ويسيطر على حركاته !



صدر من هذه السلسلة :



مطبوعات كتابى
إصدار جديد

عزيزى القارئ :

تعدّ هذه الرواية من أروع ما كُتب عن حركات المقاومة للاحتلال الأجنبى ، فقد كتبها « شتاينبيك » عندما سوّلت الأطماع لألمانيا النازية أن تعتدى على حرية الدول ، فأشعلت نار الحرب العالمية الثانية ، وأرسلت قواتها لاحتلال بلاد النرويج الآمنة ، غير حافلة بحيادها الذى كانت تضمنه القوانين الدولية . ومن سخريات القدر أن النرويج فى كفاحها النبيل ، كانت تتطلع إلى انجلترا كملجأ للحرية ، بل إن أبطال حركة المقاومة النرويجية كانوا يتطلعون إلى انجلترا كما لو كانت الزعيمة التى تحمل لواء الدفاع عن الحرية . ولكن القدر شاء قبل أن تنقضى **14** سنة على كفاح النرويج ، أن يكشف حقيقة انجلترا للعالم بأسره ، فإذا « بطلة الحرية » تنضو عنها ثوب البطولة الزائف : لتبدو على حقيقتها : ذئبًا كاسرًا ، لا يعبأ بشرف ، ولا مبادئ ، ولا مثل عليا ، ولا قوانين دولية ، فى سبيل إشباع نهمه الاستعمارى البشع ، كما تجلى على حقيقته للعالم ، فى عدوانه الوحشى الآثم على بور سعيد فى عام **1956**

والآن ، أتركك لتستمتع بقراءة هذه الرواية الخالدة من مؤلفات الروائى الأمريكى الشهير « جون شتاينبيك »

